الكتابة الثانية

جيندار

السر الأحمر..

عبدالرزاق الجبران

جيندار

.. السر الأحمر



جيندار .. السر الأحمر

عبد الرزاق الجبران

جميع الحقوق محفوظة .. الطبعة الأولى

2016

طباعة: شركة صبح للطباعة والتجليد / بيروت - لبنان

email: hasobh@live.com Fb: sobhco.forprinting@facebook.com



© إنسان

٠٠٩٦٤٧٧٠٩٣٩٢٧٩٤

insann71@gmail.com

أخي صادق . . قتلوك خلف البطولة، لأنك إمامُها .

لقد كان كبيرا، فلما قبره صغير !!! آه لا عدل حتى في القبور .

هل تَذْكر طفولتنا . إنها تركض خلفي . . و لـن تركض الحياة دون طفولة .

مسافات الجمر..

(كلُّ الحروفِ مريضةٌ حتى الألف، أُقيمُها فتَنحرف..)

. . النِفّري

1

قبل لقاء الحافي بسنوات قَبَليّة في الدين وفي الشفاه، كانت قد الحّت رامة الهمدانية على عيون جيندار كثيرا؛ علّمني دينك. . أجابها؛

لا تخطأي. . لا تُعلي السماء على الارض، الارضُ أعلى من السماء.

لا تخطأي. . لا تضعي القُبلَة على الشفاه، ضعي الشفاه على القُبلة.

إذا توحّد كحلك بعينك صرتِ عاشقة، واذا توحّد كلُك بثوبك صرتِ راهبة، واذا توحّد معبدك بحانتك صرتِ مؤمنة.

قالت له الان عرفتك فيلسوفا . خُذْ قرطي لك، هل تستطيع ان تأخذه دون أنْ تلمس اذني. . قال لها؛ اخشى هي أنْ تلمسني.

هذا أول ما بدأ جيندار يرويه للحافي عن أيام الهمدانية واسمها، فطلب منه الحافي أيام اسمه. فلقد احتار الحافي بإسم جيندار كثيرا، من منحه اياه؟، وما هذا الاسم الذي لم يسمعه يوما ولا يعرف عنه أي شيء، لا في الكتب ولا في الوجوه.

نهض جيندار يطوف حول الشمعة، وضَووُها يطوف عليه. .

أجابه؛ يا حافي القلب، المتصوفة يقولون؛ أنّ الاسماء تنزل من السماء، ولكنهم لم يقولوا ان الجبال تصعد من الارض.

أتعلم، رغم ان النجوم تقع بين الأرض والسماء، ولكن البشر يرونها سماوية والملائكة يرونها أرضية!.

يا حافي القلب، قالت لي رامة في رابع ليالينا السبع، وحين تكون ليالي الجمال سبع تنسى السماء أعدادها. قالت لي؛

أيها التائه، اسم جيندار يُريدك، لا انت من تريده.. اسمٌ غمرته اسرارنا كما غَمَرَ هو عقيدتنا. اسم كُنّا ندفنه في أساطيرنا وفي طيننا. والطين يقول اكثر من الورق، كما الطبيعة تقول اكثر من الفلاسفة.

حكت لي وكنتُ أرى في عيونها كل اسماء الجمال، كما يرى الصوفي في الصحراء كل اسماء الله؛

أيا جيندار، جاء إلى أجدادنا رجل جوّال يُلقّب بالكحّال قيل انه من بقايا اخوان الصفا في البصرة، يحمل في جعبته كتابا وصرّةً من الجلد مختومة بنقش عينٍ معدنيّة لا يفهم سرُّها. صرّة فيها حبرٌ لا يقبل ان يكتب به ولا يقبل أن يبيعه بكل كحل الدنيا، رغم ان مهنته كانت صناعة الكحل فحسب.

آوته جبالنا وأخفته قلوبنا، لانه أظهر لقلوبنا اسمائها الاولى قبل الدين والكاهن.. قال لاجدادنا؛ علينا ان نخاف على اسمائنا كما نخاف على ديننا. إنها قصة السرّ مع إخوان الصفا.

منه أتاهم إسم جيندار الذي جعله لهذا الوادي امامنا في يسار الجبل دون ان ينطقوه امام أحد. كان يقول ان الجبال تجمع على كتفيها مسافات الظلام بالنور. وهذا الكحّال كما كان يجمع العين بالكحل، كان يجمع الوجود بالغيب، المعبد بالحانة، النبوة بالطين، الرقص بالصلاة، الروح بالجسد.

كان يجمع الاديان في صلاة واحدة، كان يصلّي في ديار المسجد صلاة المسيحين، ويصلّي في ديار الكنيسة صلاة المسلمين.. كان يقول؛ هكذا أوحد ألله.

يا حافي القلب، قالت لي تروي عن أبيها؛ لكُلّ اسمٍ حرفٌ يحملُ لغزه، لكلّ كلمة حرف ينوب عنها، الفلسفة بفائها، ورامة بميمها . . الجمالُ بجيمه، والعشق بقافه. ولكن اسم جيندار تتيه في سره الحروف، إنه اسم تتصارع الحروف فيه.

يا حافي القلب، قالت لي؛ سرُّ هذا الاسم من أسرار اخوان الصفا الكثيرة. سرٌّ يربض في المسافة بين جيم الجمال ونون النبوة. سرٌ يربض في المسافة بين راء الروح ودال الجسد. وبين الألف والياء مسافة أبجَديّة. . فمسافات اللغة أبعد من مسافات العيون.

أيها الحافي، أنا لست من المدرسة الحروفية للحلاج، أنا من يريد أن يحلج من الطبيعة حروفها فحسب. ولكني لم احلج لغز إسمي هذا للان.

يا حافي القلب، قالت لي؛ كان الحلاج من ألاجيال التائهة لإخوان الصفا، لقد اعطاهم اسم الطواسين في سجنه الاخير، اسما لن تجد له جذرا في قاموس العرب، لا يكذبوا عليك. إنه لغز يعبر لغز طاء سين في المصحف. لغزٌ تعاظم عليهم حين وجدوا قبل الحلاج بقرون قول قديسة؛ (أنا أبنة الطواسين) . ماذا تعني بوصف آبائها هذا ؟ . لا أعرف.

قالت لي بتَيهٍ أكثر فيه؛ ليس في الطبيعة من يطوي المسافات كالمطر، وليس فيها من يشرب المسافات كالشجر. سل الجذور وسل الشمس إنهما لا يتعانقان الا في الاشجار، وسل التراب والفضاء إنهما لا يلتمان الا في الأمطار. . فلا مسافات للشجر الا بمسافات المطر.

يا حافي القلب، أحببتُ الاسم، الححتُ على سرّه، فقالت؛ لا تهتم، ستعرف معنى هذا الاسم يوما . . حينما يعيد ليلُك كل الاقمار القديمة على سنينك، وحينما تعيد عيوني كل المسافات الأليمة على عيونك.

ايها الحافي، لم تسمّني الهمدانية بجيندار لأنها تأملتْ ان تلتقِي جذورها بمطري في المسافات، أو لأنني كنت أحب طوي المسافات؟ . بل لمسافة أُخرى تمشي بي لاخوان الصفا، أو تمشي بي للكحل، أو تمشي بي للوادي الذي بإسمي. لا أعرف.

قلت لها؛ . . أمشي كل الليل ساعةَ انسى أنّي على مسافة قمرٍ من عيونك، فكيف إن كنتُ على مسافة اسم من شفاهك.

قالت؛ لا تخشَى، اعبرني كالمطر . . فقَبلْتُ أنا اسمها وقبلتْ هي مطري.

2

في أحدى لياليهما السبع قالت رامة لجيندار ؛ سبع ليال من القمر تكفيه بدرا لا عشرة. . يا جيندار جيم الجمال هي جيم الوجود. الحرف يمشي في الحرف.

ياجيندار، اسمك فيه سبعة احرف لا ستة. فبين الجيم والراء مسافة حرف تائه. هل تعرفه؟ دعك من العدد وقِسْ المدد.

يا جيندار. . لن تقول لفتاةٍ منبهرا؛ الله، كم مِنَ الكحلِ في عيونك! . قل لها؛ الله، كم من العيونِ في كحلك! .

هذه كانت كلمة الكحّال حين رأى جلنار أول مرة بكحلها لتصبّ من سر عيونها كل سر قلبه.

يا جيندار، حين ظهر في سوق ورّاقي البصرة كتاب رسائل إخوان الصفا على حين غرة من المجهول، بعد أن انتبه لها ورّاق فقير في دكانه دون معرفة من وضعها فيه، طُورِد الكثيرون من قبل الوالي بعد أن نسخها ذاك الورّاق وباعها لأجلِ لقمته لا لأجل أمّته. . لم يكن يصيح من على باب دكانه؛ من يشتري الكتب. . كان يصيح متهكّما؛ من يشتري الزور.

سُجِنَ الكحّال حينها وكان لم يحمل لقبه هذا بعد، مُتّهِمَا إياه والي البصرة أنه من تلك الجماعة السرية الجديدة. جماعة قد تقلب كل شيء، ولكن المسلمين لا يقلبهم شيء. لا فيلسوف ولا حروف.

كان بين الوالي والكحّال ثأر قديم، لأنه لم يقبل يوما أن يكتب له تاريخا يُمجّد فيه سيف أجداده، ففرح أن يجده اليوم مُتّهَمَابكتابة احدى رسائل إخوان الصفا التي لا يُعرف ليوم الناس هذا من اللذين كتبوها، تماما كما لا يعرفون من كتب ألف ليلة وليلة. . أليس غريبا؟! . ما بالُ العرب، لا يعرفون حتى لياليهم؟! .

لم يقتله الوالي، بل أراد له ما هو أكثر عذابا. حينها أشار عليه احد رجالاته الدهاة، أنْ يسجنه ويمنعه عن الكتابة فحسب. لأنه اقصى عذاب يعرفه الكاتب. حينها ستأكل روحُهُ روحَه، مبررا ذلك بقوله حكمة يتداولها النسّاخون عن اخوان الصفا أنفسهم في فكرة الجنة والنا ر يوم القيامة، وهي؛ أنّ العقاب من جنس الروح لا من جنس الجسد.

ارتاح الوالي للفكرة، فأودعه السجن ومنع عنه القرطاس والدواة، وأحكم الرقابة عليه. . كان يجاوره في السجن رجل كهل، تزوره ابنته الوحيدة "جلنار" بين الحين والاخر، فكانت ترى رفيق أبيها حزينا مغموما طوال زياراتها.

سألت أباها عنه، فقال لها أنّ حزنه هو سجنه عن الكتابة لا عن الناس، وأنّ السجّان يُفتّش كل زائر بتمادي كي لا يدخل له شيئا من ادوات الكتابة. اخبرها أنه تدبّر أمرها ولم يبق الا الحبر فقط. لكن جلنار لم تر قرطاساً أو قلماً، فأومأ أبوها إلى ريش يقع على ارض السجن من عش حمامة يعلو ايوان سجنهما في كوّة تعطيهما بعض ضوء الشمس، ويمكنه الكتابه به. وأشار إلى مصحف مركون في زاوية من السجن لسجين كان قد سُجِن قبلهما. لم تفهم ما نفع هذا المصحف ؟. . فقال لها؛ انه سيكتب في البياض بين سطور هذا المصحف. وهكذا لن ينتبه لذلك أحد.

يا جيندار. . في الزيارة التالية، تفاجأ الاب أن أبنته جلنار جاءته كحلاء بأكثر من الكحل، ولم يكن الامر من عادتها. . قال الكحّال بعد زمن عن تلك اللحظة؛ لم أرَ الكثير من الكحل في عيونها كما رأى أبوها، بل رأيت الكثير من العيون في كحلها.

لم تجب على استغراب أبيها، أتجهت فقط لخانة رفيقه سجين اخوان الصفا وأخذت كوز مائه، فقرّبته من عيونها ودعكت الكحل فيه، ثم بدأت تُحرّكه وتُذيبه بريشة أخذتها مما هو متناثر في أرض السجن.

حار ابوها والكحّال بذلك، ينظران لبعضهما بصمت، لا يعرفان ماذا تُريد. . انتهت من تذويبه، ثم تقدمت أخيرا بكوز الكحل لرفيق ابيها وصمته، فقدمته له وقالت له؛ خذ، هذا حبرك. .

ارتفعت عيونه لعيونها، وكانت عيونها ببقايا الكحل أحلى منها وهي بكل الكحل. . قال في نفسه حينها؛ أقلام تتوضأ بالعيون، لابد أن تجعل الكلمات وضوءاً. . اقلام تتوضأ بالكحل لابد ان تجعل الكلمات كحلًا.

ذهب ابوها مُتلهّفا للمصحف في زاوية السجن واعطاه له. التفتت عيونه لعيون أبيها ودهشته، وغمس الريشة من جديد في الكوز، ثم فتح المصحف ووضع الريشة على البياض أسفل البسملة، فكتب دون أن يشعر؛

بإسم الله الكحّال الكحيل.

الحمد لله الذي كحّل النهارَ بالليل، وكحّل البياض بالسواد. الحمد لله الذي كحّل مصر بالنيل، وكحّل دجلة ببغداد. الحمد لله الذي كحّل الانبياء بجبريل، وكحّل ثمودا بِعاد.

الحمد لله الذي كحّل الجسد بالقَلب، وكحّل الحَمَام بالسَرب.

الحمد لله الذي كحّل النجوم بالعَد، وكحّل الصدر بالنَهد.

الحمد لله الذي كحّل العدم بالوجود، وكحّل الغيب بالشهود.

الحمد لله الذي كحّل البر بالبحر، وكحّل البرد بالحر.

الحمد لله الذي كحّل الشروق بالغروب، وكحّل البراري بالدروب.

الحمد لله ربُّ الحالِمين. الذين يحلمون بالخير مع الطير، وبالسيوف مع المناجل.. الذين يحلمون بعالم دون جوع، وبأطفال دون دموعٍ.. بدين دون قتل، وبأمم دون جهل.

الذين يحلمون بعالم دون حروب، وبأمٍّ دون عويل.. بسماءٍ دون عيوب، وبخيول دون صهيل.

الذين يحلمون بمدينة دون طغاة، وبعدل دون قضاة.. بشرائع دون كهنة، وبمعابد دون سدنة.

الذي يحلمون بالموت تَوَحُّدٌ بالشجَر، وبالحياة تَوَحُّدٌ بالمطَر.. الحمد لله ربّ المطر، الحمد لله ربّ الشجر.

الحمد لله رُغمَ الظنون. الحمد لله ربّ العيون.

3

لم يُصدّق الكحّال كيف نزحت روحه لهذه الكلمات وكيف سكبت ريشته هكذا كحلها.. التفتَ لجلنار بكل عيونه؛

يا جلنار، لم أجد حبرا من قبلُ مثل كحلك. الان بدأت بهذا القدر أُكحّل الحروف.. والتفت لأبيها؛ الأن بدات أعي أنّ مهمة الفيلسوف هو أن يُكحّل الاشياء.

بقيت بزياراتها وبكحلها اسابيع على هذا الحال، والسجّان لايشك بها حين تخرج وعيونها

خالية من الكحل لإعتقاده أن الدموع تذيبه حين ترى أباها . . آه ولكنه هو الكحل كما يتورط به القلب يتورط به الجسد . . لقد أغرى كحلُها كبيرَ السجانين فاختطفها بعد تلك الأسابيع حين خروجها وهي تعبر دهاليز السجن، وأُخِذتْ من ازلامه لأعلى قلعة السجن في غرفة تطل على نهر البصرة الكبير.

ما تداوله الناس عن السجانين بعد زمن ؛أنها طلبت من كبير السجانين وهو يهمُّ أن يقترب منها، ان يعطيها وقتا تتكحّل فيه، طالما ان كحلها هو من جعله يرغب بها، وكان ما عليها من كحل قد اذابته في السجن، فاقتنع السجّان بالامر وفرح به، لانه كان لايريدها الا وهي كحلاء كما كان يراها وهي تأتي السجن، فابتعد عنها قليلا.

كانت تهمس لنفسها وهي تضع الكحل؛ "أُريدُ أن أموت بكحل أحيا غيري. . آه، الكحل يحيي، الكحل يميت" . . لم يفهم السجّان ذلك. لحظة ذاك هرعت للنافذة والقت بنفسها من اعلى القلعة . .

أشاع الدفّان أنه شعر برائحة الكحل في دمها .

ما زالت رامة تروي لجيندار، وما زال جيندار يدفن دمه. . وهو يشعر كأن فيها روح جلنار.

يا جيندار، لم يقو الكحّال أن يسمع ماحصل من قصة موتها وكلمتها الاخيرة تلك، وكأنها تخاطبه فيها . ولم يقوَ على معرفة الموت في كحلها وعلى قبول دفن عيونها، كان حزنه أكثر من كحلها . . اكمل السطور بين المصحف، وزاد عنده القليل من كحلها الذي لم يذبه بعد، فكان أنيسه في السجن، وكأن عيونها من هي معه. . بقي لوحده في السجن، فلقد مات ابوها امامه كمدا في سجنه، وبقي الكحّأل على كمده. . كان دائما يردد؛ " الكحل يحيي، الكحل يميت" .

بعد اسابيع شتوية من موتها، كان أنقلاب ثورة الزنج في البصرة، حينها قُتِلَ الوالي وكُسِرت السجون، فخرج الكحّال. . لم يُرَ بعدها يوما سعيدا قط، ولم يكتب بعد حبرها قط، وفاءا لكحلها .

يا جيندار، لقد سمّى كتابه بمصحف الكحل وسمّاه الناس هو بالكحّال، لأنه غدا بعد

ذلك صانع كحل لا يعرف أحدٌ سرّ خلطته السحرية وتاثيرها بالرجال. خلطةً هي التي جعلت صاحب الزنج يتزوّج من كحلاء تشتري خلطته وهو الذي لا يهوى الا سواد زنجه. ولكم حاول بعده الرازي بعقود في كتابه" رسالة في الكحل" وابن سينا في كتابه" المهذب في الكحل" فلم يفلحا. لان الكحّال لم يكتب رسالته عن تحضير الكحل وكيميائه، كما كان يضنّان مثلما يقول اجداد رامة، وإنما عن كحل الوجود وسرّه.

لم يكن حجر الأثمد وحده طحين كحله كما اعتاد العرب على أخذه من الحجاز واصفهان، بل كانت لديه احجاره الاخرى التي يتزاوج بها حجر الاثمد. كان أول من خلط نواة التمر باحجار الكحل. قيل أنه كان يستظل يوما بنخلة وعيونه على سعفها، ومن عادته أن يحدّق في ألغاز الطبيعة كما اخوان الصفا.

انتبه حينها بأن في هذا السعف شيئا من رموش المرأة، إذن لابد للنخلة أن تعطي كحلا.. كان يعي أن لا اعتباطية في الوجود، وأن الشكل يأخذ كثيرا من الروح، انه فن في ظاهريات الوجود.

كان إخوان الصفا يعرفون كيف تقول الطبيعة نفسها، وكيف يشير الوجود لأسراره، وأننا في وحدة وجود مع الطبيعة والكون بأسرار مازلنا لم نرَ كحلها بعد. كان يرى ان هذه هي الميتافيزيا وليس الغيب.

حين سألوه كيف غدوت كحّالا، أجابهم: عيونها التي توضّأت بالكحل، جعلت قلبي كله كحلا، فصرتُ كحّالا.

في فترته شاعت تسمية وطفاء وكحلاء وكحيلة، ومنه تعودت نساء البصرة على ذلك وشاع فيهن الكحل، فجعل عيونهن غير كل المدن. ومنه شاع ان يهدي العشّاق كحلا بدل الذهب واللآلئ. كان يكره الحِليّ كثيرا. لذا كان ينادي وهو يتجول بائعا في القرى: بائع الكحل أفضل من بائع الذهب.

سُمّي كتابه بمصحف الكحل، ليس لان كحل جلنار فيه فحسب، بل لأن الكحّال كتبه في بياض المصحف بين سطوره، وكأن ريشته كانت مرودا لتكحيله.. كان تلامذته بعد أن استقر في همدان يضنون أنها نسخة مقدّسة، لذا اطلقوا عليها أحيانا بـ(قريانا) الكحل، حين

اعاد أحد الغنوصيين من جماعة الكحّالة تسمية القرآن لأصله السرياني الأرامي. حتى روي أن هذا الغنوصي ذهب من همدان بعد موت الكحّال بزمن الى قبر جلنار في البصرة كي يستخرج هذه النسخة. كان يظن هذا التلميذ انها نسخة سحرية يمكنها أن تفعل الخوارق، لانها الكتاب الوحيد في التاريخ الذي اختلط فيه كتابة الله بكتابة البشر. كان فردا صوفيا تنازعه اهواء في خلق مذهب خاص يؤسطر به جلنار وكحلها، ولكنه لم يرجع، ولا يعرفون ماذا حل به، لم يَروه ثانيه فحسب.

لاحظت رامة وهي تحدّثه بعضَ الشمعة في عيون جيندار، ولاحظت بعض عيونها فيه، ثم مشت قليلا الى قناني كحلها تجلس لها، وكأنها تتجهّز لطقسٍ لايَشَمّ من الكحل فيه الا رائحة الروح.

قال لها جيندار وعيونه على كحلها. وكأن جُلنار تعود في عيونها؛

يا رامة..

في الاحزان تتساوى الدموع، في الامطار تتساوى الجذوع.. في الجروح تتساوى النايات، في البؤس تتساوى الحضارات. لذا لحن الحزن واحدٌ بينِ الشعوب.

و لكن يا رامة..

.. في الكحل لا تتساوى العيون، وفي السجن لا تتساوى السنون.

4

نزل من الحافي ماء قلبه بعد قصة الكحّال وجلنار التي رواها له جيندار بعد اليوم الثالث من لقاء اقدامهما، ونزل من الشمعة ماؤها أكثر وكان قبلها يجمد في منتصف قدّها..

النخلة والشمعة يتشاركان كثيرا في اسم القدّ لدى جيندار، لذا كان يعشقهما كثيرا.. كان يُصدّق أخوان الصفا بأن النخلة وحدها فيها روحٌ من عالم الانسان، وكان يُصدّق نفسه أنّ الشمعة وحدها فيها ضوء من عالم الروح.

طلب الحافي حينها من جيندار وصية ثلاثية بعد ان رآه يُثلّث الحياة بين أقانيم قلبه وقدمه وعيونه، فقال له جيندار؛

انتبه من الدين إنّه حِلُّ الشيطان.

خُذ كرسيك فلن يُعطيك اللهُ عرشَه.

بدأتك الحياة وحدك، إذن فإنتهِ منها وحدك.

شعر جيندار انه سيبدأ يتحدث بإنجيل جديد يعرفه الحفاة فحسب. كان لا يقبل النعال في البريّة لانه يحجب عن قدمه التراب، كما كان يكره المصابيح لأنها تحجب عنه الليل.

كان يكره العقل لانه يحجب عنه القلب، كما كان يكره الكتب لأنها تحجب عنه الحقيقة.. آه، كان يكره الكاهن لانه يحجب عنه الله.

يا حافي القلب دوّن بعض أغانيي؛

- أغنية بلا دين افضل من اغنية بدين.
- الصحراء دائما نائمة في داخلنا.
- مغرور هو الرمل لان قيسا مشاه.
- اذا وفى الفارس لفرسه جرى دَمُه فيه، واذا وفى الانسان لقيمه سرى اسمها فيه.
- لا تريحُ أبا ذر الا عصاه.
- الانسان كأس الانسان.
- الماء على قلبك غيره على وجهك.

نظر جيندار الى الشمعة، وكانت تترك بعض ضوئِها على شِفاهه، كأنها تتركه على كلماته.

يا حافي القلب، دوّن بعض ليلي؛

- الليل جعل للقديسين وللغواني على حد سواء.
- في الحمار جمالٌ كثير.
- القلب بلا جهات.
- لن تعرف الحروف بقاموسها، تُعرف الاهوار بجاموسها.
- حين تكثر الطرق تتيه الحقيقة. والنبوة هي ان تعرف الطرق لا أن تعرف جبريل.
- اذا وصل القلب وضوءه غدا نبيا.
- الفيلسوف يحتاج رقصا، ولكن الرقص لا يحتاج فيلسوفا.

- لا تمنع مصليا عن قِبلته ولا تمنع عاشقا عن قُبلته.

حينما نقل الحافي هذا السطر لتلامذته الثلاثة بعد زمن من ليل جيندار ذاك ومن أغاني أنجيله هذا، روى لهم؛

ذات يوم بعد أن التفّ الشتاءُ على جيندار، جلس الى ركن أحمر من قطار جنوبي، يُسكره هذا الركن. حينها شاهد ورقة تسقط من عاشقة هاربة كما عرف لاحقا منها، وهي تمر بهذا الركن، كتبت فيها لزوجها وكذبته كلماتٍ حاكها جيندار بقلمه لاحقا في إنجيله؛

اعذرني.. دون شغافٍ لن يُولدَ النهد، دون فراقٍ لن يولد الوجد.

دون حياء لن يولد الخد، دون جرف لن يولد السد، دون غدر لن يولد الوعد.

بعد حديث عن نزيف حياتها، قال لها جيندار وهما يشاهدان إمرأة خلف نِقابها؛

و اكتمل الخراب، واكتمل النقاب.. لم تبق للشمس فتوى كي تلمع بها الشفاه. لم تبق للقمر فتوى كي يلمع بها الليل.. يا للحسرة، بقيت فتوى الكاهن فحسب.

أنشد على أحلام شفاهها المخفية حسرة شاعر عربي؛

توهّمتُ قُدُمَاً أن ليلى تبرقعتْ... وأنّ حجاباً دونها يمنعُ اللثما.

.. التفت للهاربة، قائلا؛

كم يبقى لي من القلب إنْ أعطيتك نصفه؟.. لا قلب. لأنه لا يعمل إلا كاملا.

القلب كما الحب لانصف فيه، والحب كما الله لاكاهن فيه.

كانت قلقة على هروبها وعلى عشقها.. رَفَعَتْ هي بعض نبضها، وقالت؛

.. إلهي، إن أخذتَ عشقي أخذتَ ايماني ولن أحضر القيامة.

5

جيندار من اصبح يناديه بحافي القلب، ليس لأن قلبه لا يقبل ان يغطيه معبد ولا كتاب، كما اراد هو من جيندار أن يجعله حافيا من كل شيء، وإنما لان قلبه حاف من الظلم والكره، قلبٌ بلا لون إلا من لون ضميره، قلبٌ كبقرة موسى مُسَلّمّة لاشيّةَ فيه.

كان بيتُه لا يقبل أن يكون غنيّا، كما لا يقبل قدره ان يكون وفيّا. ولكن كما أن الحافي كان ركام قلب، كذلك كان أيضا للاسف ركام كهنة.

أراد الحافي حين عرف جيندار ان يلومه لانه بلا معبد. ساعة ذاك، أجابه جيندار؛

يا صاح، لا تلمُني لأني بلا معبد.. لقد عَبَرتُ بين شفتين فسقطتُ في القُبْلَة، وعبرتُ بين دينين فسقطتُ في الكاهن.. لم اسقط يوما في حضن الله قط.

يا صاح؛.. لا أُريد ديانة مقلوبة، أُريد ديانة تقلبُني.

سأله الحافي؛ علّمني دينك.. أجابه؛ لا تخطأً، لا تُقدّم الانسان لله، قدّم الله للانسان.

لا تقدّم الوضوء للصلاة، قدّم الصلاة للوضوء. ولكن إياكَ أن تجعل االوضوء ماءا، فالسكر لم يولد خمرا.

.. لم يفهم منه الحافي. ولكنه فهم أنه كلام تُكفّره الاديان كلها.. لاحظ جيندار ذلك، اقترب من الشمعة كأنه يتدفأ بها.

يا حافي القلبِ، اللهُ حافي الدين.

الله ليس مسلما ولا يهوديا.. الله هو الله.

الله ليس لأحد، هذا هو معنى وحدانيته، لا إنّه واحدٌ.

الله ليس لأحد، لا لمسلّمين دون مسيحيين، ولا ليهود دون بوذيين، ولا لمؤمنين دون ملحدين. الله لا يكون لمُصلٍ دون سكير، لا يكون لإمرأة بيت دون امرأة ليل.

الله لا منتم حين يقف بين المعبد والحانة، بين الطليان والهنود، بين البيض والسود، بين الفيلسوف والامي، بين النبي والزنديق.

يا حافي القلب.. الحزب الذي يحمل للناس خبزا أفضل بكثير عند الله من الحزب الذي يحمل لهم مصاحفا.

كافر من حجّ الكعبة وجياع المدينة وراءه.. كافر من صلى بمحمد وقتلى عيسى وراءه.

لن تجد الله عند الكعبة، هو ليس ملك تطوفون حوله. تجده مع اليتامى هو من يطوف حولهم.

يا حافي القلب..

يعرف فلاسفة الجمال أن العين تتوضأ بالكحل، ولكنهم لا يعرفون ان الكحل يتوضأ بالدموع.

يعرف الفلاسفة أنّ الأغصان تتوضأ بالمطر، وأنّ الليل يتوضأ بالقمر.. يعرفون أن الشراع يتوضأ بالريح، وأن القلب يتوضأ بالعشق.. يعرفون ان الحزن يتوضأ بالناي، وانّ الكأس تتوضأ بالشفاه.

و لكنهم لا يعرفون أنّ الشمس تتوضأ بالناس، ومن لا يتوضأ بالناس تبطل صلاته.

يا حافي القلب، رأى عليٌّ الشمس تشرق وهم يحملونه مجروحا بضربة ابن ملجم من مسجد الكوفة الى بيته.. حدّق بالشمس، قائلا لها؛ (اعلمي ياشمس انك لم تشرقي عليّ قط). هو من كان يُشرق عليها، لأنها لم تستيقظ قبله قط، فغدا هو وضوءها.

كان هو يشرق على الناس قبلها. ومن زاحم الشمس على شروقها زاحم السماء على إلهها.

يا صاح.. من كان مضروبا في هامته، كان هو هامة الوجود.

آه، والف آه على هامته وعلى كلمته. كانت تكفي سَمَرَ ألف ليلة وليلة لألف فيلسوف وفيلسوف.. كان من حقّ الشمس ان تصغي له حينها، والا لكان الوجود خطأً.

آه، ان تقول الكلمات غيره ان تضع أنينها.. فللناي شأنٌ غير شأن الطبل فيه.

6

فقط حين تستقر الشمس بعيدا نعرف حقيقة الدفء.. وُلِدنا بلا ريش وصرنا بلا قلوب. انظر كيف وُلِدتَ وكيف صِرت!.

مؤسف أن تجد نفسك بعد عمر مع عشق دون مطر، عشق كنت قد ظفرت له من حزنك وسهرك وشوقك قصيدة كحله.

مؤسف أن تجد نفسك بعد عمر مع وجود دون معنى.. الحقيقة تتكلم متأخرة!.. لما؟، لا يهم، فالجرح أكبر من سببه.

مؤسف جدا ان تجد نفسك مع دين دون دين.. مع الله دون الله.

مؤسف أن تجد نفسك مع أُمّة تصلي ضد الله في عين محرابه. أُمّة بكذبة هي حسناء بكذبة.. كُلّما كُثر من الحسناء حسْنُها كلما كثر حزنُها. حينها الناي سيُطيل.

العازف لا يتمرد، الناي من يتمرد به. لم تقبل الاغنية أن تظهر، تأخرت الاغنية، لأنها وجدت نفسها بلا ناي.

بعد قرونٍ من الناي وقليل من اغاني العشق.. بعد قرون من الكهنة وقليلٍ من نهارات الله، مرّ جيندار على حانة لعلّه يشمُّ الله، بعد ان شمّ كثيرا من الكنائس فلم يتنفس صلاة واحدة... عَبَرَ يهودا وبوذيين فلم يعبُرهُ اللهُ، ظن أنّ الله في المساجد فلم يجد غير شيوخها. ذهب إلى التاريخ فوجدهم شيوخا على الله نفسه. أراد أنْ يتديّن في الحياة معهم فانتهى مُداناً لها.

قيل عنه؛ صلى في داخله أكثر من الف عام، وسَكَنت روحه الف صحراء، وعاش قلبه الف عمر. وما زال قليلًا.. الزمن يلاحقه.

سمع أكثر من جبريل، وعرف اكثر من الحقيقة، وبكى اكثر من الدموع. وما زال تائها!.. الصحراء تلاحقه.

شرب فوق خمرٍ، ونزلَ تحت ماخورٍ. وما زال نبيا!.. جبريل يلاحقه.

كان يدعو؛ إلهي، مدينة نظيفة أَقطفُ بها أنا آخر قبلتي قبل مدينتي الاخيرة، واقطفْ بها انت اخرَ قلبي قبل شمسك الاخيرة..

إلهي، القلب في الدنيا غيره في الاخرة. إلهي، انا انسان في دنياي، وليس في آخرتي.

إلهي، مدن الحضارة لوّثت البشر، مدن الكاهن لوّثت الدين..

إلهي رجعنا خائبين من المدن المقدسة، اهلها ليسوا كضريحها.

.. إلهي، المدن مزورة.

بعد مدينة رامة، همدان، قال؛ عبرت كثيرا من المدن الا مدينة رامة هي من عبرتني، لأنها عبرت اسمي.

أراد ان يبقى تائها، حتى يصل الى المدن النظيفة. لأنها كإرم ذات العماد، لن تجدها حتى تتيه في الربع الخالي.

ردّد؛ حينما يتيه الانسان تضعُ الصحراءُ طرقَها، وحينما يحزن القمر يضعُ الليلُ نجومَه.

غفى في ليلة نجوم، فأخذه حلمٌ.. كان فيه؛

كما الذين تاهوا، وجد جيندارُ مدينةَ الله. ترقّب تيه السور، انه بلا معبد. إذن أين يصلي جبريل؟!. ضحك وقال حكمته الكبرى؛ جبريل لا يصلي.

استيقظ لحظتها فدوّنها، وبقيت هي كل أنجيلة.. جبريل لا يصلي.

قال للحافي في غرفةٍ جمعتهما بتلك الشموع؛

يا صاح، أردتُ ان أستر الفضيحة كما علموني في رهبنة الدين، فوقعت في خطيئة الستر.. الستر خطيئة مع الحقيقة. فلا تقول الحقيقةُ نفسها الا عارية.

يا صاح، لا تأخذ الحقيقةَ الناعمة التي تخجل لأثوابها.

يا صاح، إنْ اردتَ ان تكونَ نبيلا مع الحقيقة فعليك ان تشق اثوابها، وتفضح صدرها، بل ان تقاربها على مرأى من المارة.. دون ذلك لن تُولَد القافلة.

رمشت عيونه ورمشت الشمعة معه.

يا صاح، القلب بيع كثيرا، من مربدٍ لمربد. ليلى لم تَرْبُط القلب، ليلى أستبطرته فحسب.

يا صاح، اللهُ بِيعَ كثيرا، من معبدٍ لمعبد. الأديانُ لم تعبد الله، الأديان استعبدته فحسب.

آه، القلب يمشي بَطِراً على طول العشق وعلى طول القُبَلات، والله يمشي أسيراً على طول التاريخ وعلى طول الصلاة.

يا صاح، أخطأ العلماء. عيسى المُخلّص كما تُسمّونه، كان مُخلّص اللهَ لا مُخلّص البشر. فالكهنة يستعبدون الله والنبلاء يُخلّصونه.

التفتَ إليه بوجع أكثر.. هل أقول لك سرّاً؟.. هزّ الصاحب رأسَه، أربكَهُ استلام السرّ.. اقتَرَبَ التائهُ أكثر لعيون الحافي، كان يرى؛ انّ العيون حين تقترب تقول الحقيقةُ نفسَها اكثر. بل العيون حين تقترب تصبح الحقيقةُ نفسها عيونا.

يا حافي القلب، قال لكم فقيه زارا؛ (إن الله قد مات).. والحقيقة هي أنّ الله قد سُرِق.

7

حارَ الحافي، هل غرفة جيندار حمراء بقلبه أم بشمعته، لا يعرف.. عيون الحافي اصبحت قديمة بكلام جيندار، عيونٌ تعرفها فقط قرون الجواري. وعيون جيندار اصبحت جديدة بمآسي الشمس، عيونٌ تعرفها فقط لفتات الشمعة جوارهما.

حكى للحافي عن يوم قديم من عيونه، التقى فيه بفيلسوف استهان بدمه الأسمر كثيرا فاستهان بفلسفته. . قال عنه للحافي: لا ألومه، لم يكن يعرف دم أبي ذر، كان يعرف دم نيتشه فحسب.

يا صاح، لنيتشه زرادشته وليَ ناره، عَبَر هو زرادشت وعبرتني أنا النار. . أَعْذُرْهُ، ليس لديه عصا أبي ذر ولا سمرة صاحب الزنج، لديه قدح ديونيس فحسب.

يا صاح. . فقط حينما تكون جمرا تعبُرُكَ النار. وأَنْ تَعرف مسافات الجمر غيره أن تعرف مسافات النار، فالجمرُ وحده يُخفي نارا.

يا صاح. . لا جمرة مثل القلب، لانه لا ينطفئ حتى بعد الموت. آه، لقد ذهب المقتول بحسرته.

يا صاح. . الله دفن النار فيك كما الجمال، ولكن القصة هي في من يشعل جمرتك وفي من يسكب خمرتك؟.

إشتعل الزنجي بصاحبه وانتشر الشراع براكبه. . إشتعلت المجدلية بعيسى كما اشتعل قيس بليلى.

لا بأس أنا أَعَلْمُ: لا يُنظف الرمال الا الرمال، ولكن إعْلَمْ انتَ: لا ينظف العصا الا أبو ذر.

يا صاح. . . دعك من عصا موسى، لأنه كان يهشُّ بها الاغنام، وابو ذر كان يهش بها الحُكام.

أضاف موسى عن عصاه وبإهتمام: وليَ فيها مآربُ أخرى. لقد كان أيضاً يتوكأ عليها !. . لا بأس.

اعذرني ما زلت لم اتعلم الضحك. . هنا مِخدة الفلسفة.

تعال اسمع صخور الرَبَذَة كيف عانقت جندب بن جنادة، وتعال اسمع ابنة شعيب كيف عانقت موسى بن عمران. . تعال اسأل الربذة كيف مات بمنفاه نبي الفقراء، وتعال اسأل مصر كيف مات موسى مع اخر حِساء.

. . هل سيزعل موسى مني كثيرا؟. ربما، ولكنه سيحب الربذة أكثر.

تفاجأ موسى مرة حين شاهد راعيا يُصلي بين خمره وخرافه. كان يخاطب الله ثملا:

انت صديقي لانك منحتني الخراف ونايها، منحتني الشمس وفجرها. تعال انزل لشوقي وسأشوي لك اسمن خرافي. تعال نمشي سوية، فمشي الخراف ليس كمشي البشر، إنها لا تؤذي.. ثم يعود يعزف بنايه. كانت شفاه الراعي تتوزع بين كلمات دعائه وبين رشفة خمرته وبين قطعة نايه.

لامَهُ موسى على هكذا صلاة. حينها قال الراعي لموسى وهو يرفع جرّةَ خمره؛ يا موسى..

الله ليس إله دين.. الله إله فجر.

الله ليس إله معابد.. الله إله حقول.

لا تعلّمني الدين ياموسى.. دعني بدين الخراف.

لا اريد من الله دينا وصلاة.. اريد من الله خرافا ونايا وصباحا.

الله يحب الصباح كما نحبه.

يا موسى ان الله يرعى معي الخراف. الله أجده في لون البراري والفجر والناي.

ثم رفع نايه وبدأ يمشي عن موسى بخرافه.. وموسى حائر ينظر لمشية الخراف تتوحد بمشية الراعي.

ليلتها كلّم اللهُ موسى؛ دع الراعي بدينه، لأنني على مشي خرافه..

يا حافي القلب، كانت براري الراعي تعشق نايه أكثر من عصا موسى.. يا حافي القلب؛

لا تبدأ الفضيلة قبل غسلها، ولا تبدأ القدس قبل نعلها.

لا تبدأ الثورةَ قبل سجونها، ولا تبدأ الحكمةَ قبل جنونها.

لا تبدأ العقل قبل قلبِك، ولا تبدأ الكاهن قبل ربّك.

لا تبدأ العيونَ قبل كحلها، ولا تبدأ الشفاه قبل قولها.

لا تبدأ الطير قبل سربها، ولا تبدأ الكأس قبل سكبها.

حينها هدأ جيندار، فهدأت عيون الحافي، وقال له؛

يا جيندار.. أوراقك ستجعل الأناجيل تُباع من جديد. ولكن آه، أنت من سيشتري أناجيلك؟.

مسافات اليسار..

(إفتح عينيك على الجهات الست..)

.. الرومي

1

في الليلة الثالثة من همدان، أخرجت رامة لجيندار كتابا مدفونا خلف قناني كحلها الكثيرة، وكأنها لا تقبل أن تغطيه بغير الكحل. وضعته امام مرآتها . كان تحته كتابا آخر يُمثّل مدوّنات لتلامذة الكحّال عن حياته، قدّمته له، فتقدم كل قلبه يريد أن يرى أي كحل للوجود في هذي المدوّنات، فكان مما يُروى فيها؛

أن الكحّال لجأ إلى الصعاليك والشطّار مرةً حين تجواله بائعا للكحل. . قدّسوه كثيرا بعد أنْ قال لهم؛ أنّ سَرِقَتَهم رجال الولاة فيها من الشرف الكثير. . شرفٌ يعود نسله إلى مبدأ عصا أبي ذر.

كان قد ضمّ ثائر كوفيٌّ هولاء العيّاريين له لقطع الطرق على أموال ورجال دولة الجواري في بغداد، ولكنه ملّ من تراجع بعضهم لأنهم ملّوا من عذابات تشردهم، ومن بطش الولاة.

كان جيندار مُغرما بالشُطّار والعيّارين في التاريخ، لانهم عيّروا القيم بميزان الرجولة لا بميزان الدين. لذا تشوّق لحدث الكحّال معهم في المدوّنات.

قال لهم الكحّال يوما وهو بين خيامهم في البرية ليلا، وكان قد تعب من لوم بعض الراغبين منهم بالعودة للمدينة وراحتها، وترك البراري وعنائها في حدود الطرق؛

اختاروا، إما نعالكم أو اسمكم؟ . . لن تكونوا انتم بنعال المدينة.

اختاروا اما عصا أبي ذر أو عصا موسى . . لن تكون عصا أبي ذر بهَش الغنم.

أتعرفون البربر؟ . . عظمتهم انهم يولدون في المعركة ويموتون في المعركة . . لا تَزورَهم الاشياء خارجها.

كان بينهم فتى يُدعى (ترّاب) . . أسم أطلقه عليه العيّارون لانه اعتاد أن يضع على صدره التراب اذا ما غزوا اغنياء الولاة. كما اعتاد أن يضع خبزته على التراب إذا ما فرش طعامه . . كان لا يتوضأ للحرب الا بالتراب، لم يقبل الماء يوما . حينما يُسئَل عن ذلك، يجيبهم؛ يكفيني ماء قلبي.

أعجبَ الكحّالُ بإسمه، فعرِفَ فيما بعد منه أنه ليس عيّارا وانما أخفى نفسه بينهم، لأنه الأبن الوحيد لرأس المعارضة الذي تبحث عنه دولة العباسيين، فبقي متنكرا باسماء عدة بعد موت أبيه. تنكّر حتى عن الثوار انفسهم. لم يبح له بذلك الا حين شمّ منه بعض افكار اخوان الصفا.

كان ترّاب يساراً احمر. . كان يعطي للفقراء جُل ما يغتنمه من غزو الأغنياء، دون أن يُبقي حتى ولو خُمسا من الغنيمة كما تمنى من العيارين هذا التقسيم يوما واصبحت فيما بعد من أصول الصعاليك والعيّاريين المدرسيين الذين انتموا للقرامطة لاحقا. لذا أصبح يؤمن بأبي ذر لأجل ذلك المبدأ، بعد ان حكى له الكحّال عنه. ولذا أراد الإلتحاق بمعتزلة بغداد دون البصرة لأن الفيلسوفان جميل الحدثي والخير بن خابط عَبَرا معلمهما أبي سيار النظّام، وانتهيا الى أنّ ابا ذر أفضل من انبياء بني إسرائيل.

قال له الكحّال؛

يا ترّاب. . العشق يُخْرِج القلب كما أبو ذر. لذا، العشق وابو ذر إمامان، إنْ قاما وإنْ قعدا.

إمامُك من فتح قلبك لا من أغلق عقلك، فكيف نُسميّ الكاهن إماما وهو خلف لحيته!؟. كيف نُسمّي الملك قائدا وهو خلف جيشه!؟.

يا ترّاب. . الإمام هو من يقف أمام الجميع في الجوع وليس أمام الجميع في الصلاة.

فقط من يكون أمام الحقيقة حين يكون الناس خلفها يحقُّ له كسر الهمزة، ليكون إماما . . دعك من الهمزة بين أمام وإمام، فالاعلى اصل الاسفل.

يا ترّاب. . أنْ يُصلي على جثتك إمامٌ أرهقَ دينك، غيره أن تجثو الصلاة أمامك تلعن دينه.

حين روى جيندار ذلك للحافي من أيام رامة ودفاتر كحلها، ابتعد ذهن الحافي الى مدوّنات تلامذة الكحّال، وإلى الكتاب الذي فوقه، لما وضعته عند مرآتها، وكأنه طقسُ كحلها.

نزل جيندار للارض يريد أنّ يلمسَ بعض الضوء بأصابعه، وبدا في عينيه أنّه يريد أن يروي حكاية للحافي من المدوّنات، فلجيندار منها اساطير لم يدوّنها الا إنجيله. . ومن يُكذّب الاساطير فلن يصدّق نفسه.

ياحافي القلب قرأت في مدونات الكحّالة عن قساوسة ينتمون لأخوان الصفا، اسطورة تقول؛

أنّ المسيح بعد الف عام من صلبه ينزل للارض بثوب فلاح بسيط، يَمرُّ بمدينة في القرون الوسطى. فلا يعرف احد وجه عيسى، تماما كما لا يعرف أحد روح عيسى، سيما أن عيسى سيد الروح.

يرى من بعيد حشودا من الناس، يقترب منهم، يجد قسّاً يريد أن يرجم عاشقة وحّدت جسدها بحبيبها، فهي زانية والناس حوله يُهللون لشريعته وفضيلته.

عيسى وهو بين الحشود، لم تؤذه شناعة القس، بل آذته شناعة الناس.

الناس تبدأ برشق الفتاة المسكينة بالحجارة. لم يتحمل قلب عيسى فاسرع ووضع جسده فوق الزانية، والناس تصيح عليه ابتعد أيها الفاجر، هل تحمي زانية تخالف شريعة عيسى. بعضهم قال انه رجل زنديق. بعضهم قال أنه احد عشاقها . .

لم يعبأ عيسى بكلامهم، زحف للقس قريبا منها، مُنحنيا يتوسل له ان يترك الزانية وحالها، فلم يعبأ به القس. . نزل عيسى الى قدمي القس متوسلا أن يشفع لها . . فأجابه القس بوجهٍ مُكفَهِرٍ؛ هذه لا يشفع لها حتى الله. اغرب عن وجهي.

سأله القسُ بقسوة؛ هل انت مسيحي، فاجابه عيسى بنعم. . قال القس؛ إذن عليك ان تلتزم معنا بشريعة عيسى. . قال له يسوع؛ ولكن هذي الشريعة ليست لعيسى، لانه لم يرجم مريم المجدلية ولم ينبذها وهي غانية، واعاب على الناس رجم زانية. . فهو لا غير من قال؛ من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر. . أين الشفقة التي هي كل دين عيسى.

هنا غضب القس قائلا لعيسى؛ ويحك وهل انت اعلم بعيسى مني! . . اغرب عن وجهي قبل ان اصلبك جنبها ! .

أجاب حينها المسيح؛ اطمئن، فلقد صُلبتموني منذ الف عام! .

يا حافي القلب، لم يفهم القس لان روحه خارج عيونه، وضميره خارج قلبه.

. . ثم صلبوا المرأة امامه. وعيونه تنزف أكثر مما ينزف قلبها .

. . رفع عيسى يديه؛

. . . آه، إلهي إنك تصلبني كثيرا ! .

2

بقي للحافي بعض الصمت في عيونه وبقيت كل المصلوبة في قلبه، ولكن لم يبق لجيندار بعض الناس في قناعته. إنه غضِبٌ من الناس في التاريخ أكثر من غضبه على الكهنة والملوك، كيف تقبل عقولهم هكذا كهنة.

عاد لعيون الحافي، وكأن الشمعة تعود معه. فقال له؛ حماقة المجتمعات أنها تجتمع على الحماقة.

البشرية لا تنام كلها مرة واحدة والا لارتاح الله. . آه لو لم يخلق الأرض كروية.

الله يتدفأ بالانبياء، لان البشرية باردة.

كذبوا، لم يقل النبي؛ (لا تجتمع امتي على ضلال)، بل قال؛ (لا تجتمع أمتي على هدى) . . لأننا لم نجدها يوما اجتمعت على خير، اجتمعت على الدم فحسب. .

ابحث تاريخها طولا وعرضا ولا تبحثني أنا في قلمي، ليس لي شأن في الامر.

يا صاح. . وحدهم الذين خرجوا على يمين الكاهن، وصلوا الى يسار لله.

يا صاح، عرفت من دفاتر الكحل أنّ الكحّال أوضح لتلامذته أنه على أمثال حسرة هذه المصلوبة نشأ يسار الاعتزال في الكوفة، وليس على خصام ابن عطاء في البصرة، حمقى من يضنون ذلك. المعتزلة يسارٌ وحسب، فلقد تزور الاسلام باكرا. المعتزلة يسار جمع يسار الاديان فيه، فلم يبق عنده يمين. فلقد التحق بهم كثيرون من اديان عدة، وجدوا ان اديانهم قد تزوّرت.

لم يكن المعتزلة مسلمين فقط، فللمعتزلة يهود كثر، قساوسة كثر، صابئة كثر، زرادشتيون كثر. هذا مالم يقله التاريخ لانه تزوّر أكثر من الدين. . وهذا ما تحسر عليه جابر بن حيان الصابئي وابن المقفع الزرادشتي. لأنهم كانوا صِبْيَة المعتزلة وتلامذة اديانها الاخرى.

يا صاح، دائما هي مقولة الزمان؛ للتاريخ حقيقة لم تُنطق بعد. دائما هي مقولة التيه؛ للطريق أقدام لم تمرُّ بعد. . وللاربعون أسرار لم تعرف بعد.

يا صاح، اجتمع أربعون من يسار الاعراق والاديان عند مُعلّم الكوفة في سرّية عَذِبَة، فعلّمهم يسارا في الله أقصى الطغاة والكهنة. . كان يسارهم اهم من دينهم، لذا التقوا شمال البشرية ومعابدها.

كان تلامذة الكوفة الاربعون من كل الاديان، ولكنهم كانوا على عقيدة واحدة في الظلم والعدل، في خير الله وفي شر الحاكم، في صدق الانبياء وفي كذب الكاهن.

كانوا يريدون من الطاغية عدل الناس، وكانوا يريدون من الكهنة عدل الله. . لذا غلّبوا العدل على التوحيد.

يا صاح، كان التلامذة الاربعون ومعلّمهم لا يقبلون صفة إسلام على الحجّاج الثقفي ويعطونها للعبيد الوثنيين الذين استعبدهم. بينما كان علماء المسلمين يعطون صفة الإمامة للطاغية القاتل وللمؤذن السافل!.

كانوا يتألمون على الموالي من الاعاجم والعبيد والجواري وما يحل بهم بإسم الدين. . كانوا يتالمون على اهل الذمة من المسيحين واليهود والزرادشتيين.

. . لم يكن همهم وحدة السماء، كان همهم وحدة الارض.

كان أربعون الكوفة يجلسون في سر الليل يضعون لأنفسهم سر النهار. كانوا أول من اسس السرانية في أحزاب التاريخ. لقد علّمهم معلم الكوفة كل مبدأ السر.

كان المعتزلة الاربعون يتربع على يسارهم أبو حنيفة وليس ابن عطاء، ولكن هكذا يلعب التاريخ في كذبه.. ذهب ابن عطاء للبصرة وعَدَنها، واقتاد الخليفة المنصور ابا حنيفة لبغداد وسجنها.

يا حافي القلب، إن كان واصل قد اعتزل معلّم البصرة، فابو حنيفة اعتزل طاغية بغداد.. لا يخدعنك التاريخ، فعمر بن عبيد من اعتزل الحسن البصري وليس بن عطاء. ابن عطاء لحِقَ بأخ زوجته عمر بن عبيد فحسب.

يا صاح، لم ينجب بن عطاء تلميذا معتزليا. فلقد أخذ أبي سيار النظّام الاعتزال من هشام بن الحكم أمين مُعلّم الكوفة وتلامذته الأربعين.

لم يتفاجئ الحافي، فقط تحسّر على ما تكذب به الكتب على الناس ليومنا هذا.

يا حافي القلب، الاعتزال حصل في الكوفة وليس في البصرة، ما زال التاريخ يكذب كثيرا.. كان واصل هو أسوء معتزلي أنجبته الكوفة، لذا تأخر اعتزاله كثيرا، وكان ابن المقفع هو اصغر معتزلي أخذته البصرة. لكن البصرة سجلت بإسم كبيرها ماكان لصغيرها.

يا صاح، لقد جاء أبو حنيفة اثنين وعشرين مرة للبصرة وليس لبغداد. لقد خاط فيه مُعلّم الكوفة كل الحقيقة، فاراد هو أن يخيط البصرة بمقفّعها وعَمُرِها وواصلها، كما كان يخيط كل الثورات في خزّه.

آه يا حافي القلب، لم تعد البصرة مدينة في يسار الوطن، لذا لم تعد تخرج منها الثورات كثيرا، ولم يعد يرغب بها اخوان الصفا.

يا حافي القلب كان المعتزلة يسار التاريخ، ولكن يسارهم غدا يمينا. فلقد خان اواخر المعتزلة يسارهم، ونام اليمين فيه.. كما خان القرامطة حمدانهم.

يا صاح.. حينما يتيه التاريخ تتيه الجهات.

يا صاح.. قدّم اليمين على اليسار، ولكن اياك ان تجعل اليسار يمينا..

يا صاح.. مسافات اليمين تجهل مسافات اليسار. الثانية تعبر طريق القلب، والاولى تعبر

طريق البغال. سل البغال كم تلتفّ في شعاب الجبل لاجل قمّته، وسَل القلب كيف يلفّ الاشياء في شعاب الحياة لاجل حكمته.

ما اغربه من عار لليسار.. حتى البغال حين يُحمّلوها أكثر من ظهرها تُلقي نفسها من الجبل، تنتحر. ليس تخلُّصا من الالم، وانما تخلُّصا من الذل.. بينما لَكَمْ حمّل اليمينُ على اليسار ذله، فلم يُلقي اليسار بنفسه من يمين الذل ولا يساره.

يا صاح.. لكم كانت البغال عظيمة، ولكم كان اليسار ذليلا.. آه، كل البغال أعلى الجبال، الا الإنسان أسفل القيم.

3

نهض عن الشمعة عند النافذة يمشي على الليل، وكأن ضوءها نهض يمشي على وجهه.

سأله الحافي وفي عيونه كثيرٌ من الحيرة هنا وهناك؛ هل يعقل أن ابا حنيفة فقيه الكهنة لدينا، هو من آباء الاعتزال دون واصل.. فاجابه جيندار؛

يا صاح.. أبو حنيفة ليس حنفيا.

سخرية المذاهب أنّ الحنفية اليوم يقدسون الامويين والعباسيين بينما أبو حنيفة كان ثائرا عليهما.. أبو حنيفة كان يرفض قريش بينما الحنفية وضعوا له حتى لحيتها.. أبو حنيفة ينصر العبد على السيد بينما الحنفية يقتلون العبد لاجل عهر السيد.. أيها الحافي، عظيم هو الذي ينصر العبد على السيد.

أراد أبو حنيفه نفسه للجياع والعبيد وأراده أبو يوسف القاضي للدولة والرشيد.

يا صاح.. لا مذهب لأبي حنيفة غير أبي حنيفة نفسه، ولا خائن لأبي حنيفه غير الحنفيين.

يا صاح.. كان أبو حنيفة اكثر من يشكُّ بإسم الأمة، فسرقوا اسمه.

يا صاح.. كان أبو حنيفة أكثر من يشك بالكهنة في التاريخ، فجعلوه كاهنا!.

لَم يقبل منهم الا سبعة عشرة حديثا، والأن بيننا الآلاف منها!. أحدس أنه كانت لديه قاعدة في جيبه ضاعت عن جيوبنا، وهي؛ لا تثق بكاهن حتى يَصدُقَ الذئبُ مع الشاة أنّهُ يُحدّق بعيونها لا بلحمها.

أبو حنيفة كان حلاجيّا ولكن الحنفية حَلجوه. أبو حنيفة كان ثائرا ولكن الحنفية كهنوه.

يا حافي القلب؛ ردّد أبو حنيفة؛ (يدخل الحديث الى العراق شبرا فيخرج منه مترا). وأردد؛ يدخل أبو حنيفة الى التاريخ ثائرا فيخرج منه فقيها. يدخل التاريخ يسارا فيخرج يمينا.. يدخل معتزليا فيخرج سلفيا.

هذا شأن العراق، يدخل الرجل فيه مؤمنا فيخرج كافرا.. يدخل ثائرا فيخرج سارقا.

يا صاح.. ردّد الكاهن سفيان بن عيينه؛ (ما رأيت أجرأ على الله من أبي حنيفة)، وأردّد له؛ ما رأيت أجرأ على الكاهن من أبي حنيفة. وهنا عظمته، لأني لم أر ثائرا على الكهنة مثله، ولانه لم ير أحدا أجرأ على الحقيقة منهم.

كَتَبَ الكاهن نعيم بن حمّاد؛ (أُستُتِيبَ أبو حنيفة من الكفر مرتين)، هكذا لخَّصَه الكاهن!. وانا أُلخّصُهُ؛ ثار أبو حنيفة على السلطان مرتين.

لم يكن الفقه يوما أحكاما، كان حِكمةً فحسب. وابو حنيفة لم يمت بين الفتاوى، أبو حنيفة مات بين الفتن. فلابد للحكيم أن يموت ثائرا.

ابو حنيفة كان حكيما في الحقيقة ولكنهم جعلوه فقيها في الشريعة.

ردّد عليٌّ للمسلمين من حوله بحسرة؛ (أُريدكم لله وتريدونني لأنفسكم).. آه، لكم لوّع المسلمون عليّا، ولكم لوّع الكهنةُ الاسلامَ.. لكم زوّر المسلمون عليّا، ولكم زوّر المسلمون الاسلام. لكم زوّر الحنفيةُ أبا حنيفة، ولكم زوّروا فيه الاقلام.

لقد ثار أبو حنيفة علويا وسُجِن علويا ومات علويا، ولكنه دُفِن عباسيا!. غريب أمر الاقدار تظلم حتى في القبور.. آه لم يزر قبر أبي حنيفة علويٌّ قط..

يا صاح. أراد الله محمداً لأبي ذر، والمسلمون ارادوا الله للرشيد.

اراد الله الاسلام أن يكون محمدا، وهم ارادوا الرشيد أن يكون إسلاما.

اراد الله محمدا لبلال، وهم يريدون بلالا من محمد.

أراد الله لهم الدين قيمة وهم يريدونه غنيمة.

عاد الحافي لعيون جيندار ببعض عيونه، وهو لا زال يفكر بسر أربعين الكوفة ومعلمهم وكذبة البصرة واعتزالها، وكذبة الامة وطولها. إنها كذبة طويلة وطويلة..

قال لجيندار؛ كم كذب علينا التاريخ عن زعل بن عطاء وشيخه البصري. . لم تكن حكاية البصرة ساذجة، نحن من كنا ساذجين في تدويرها .

. . المعتّزلة كبار، لا يمكن ان يؤسس الزعل الصغير اعتزالهم.

قال له جيندار؛ ايها الحافي، رغم ان الشمس تبدأ شرقها من الصين ولكن أنهار الصين تبدأ من الغرب. . للوجود دروبه وللشروق غروبه.

رغم انّ الحقيقة تبدأ من النبوة، ولكن الخديعة تبدأ من الكاهن. . فالكاهن غرب النبوة.

يا حافي القلب، كم عليك ان تمحو ما ثبّته الاخرون، وكم عليك ان تكشف ما زيّفه المزيّفون.

لا تقل أنا أمشي إذن انا موجود، قل أنا أمحي إذن انا موجود ؟ . . لا تقل أنا أُكفر اذن انا موجود، قل انا أحفر اذن انا موجود .

تنهّد مرددا؛ كم يكتبون، كم يكذبون.

التفتَ لرفوف المكتّبة خلفهم؛ . . كم تعانين؟

ياصاح دوّن بعض رفوفي؛

- ابن العبد عبد بأبيه، سيما في عبودية الحرف.
- كذبة مومس لا تعادل كذبة مؤرخ.
- التاريخ مسافات قريش لا مسافات النبي.

عاد الحافي لجيندار وداخله يحفر في سر التلامذة الاربعين؛ أيا جيندار، عرّف لي المعتّزلة.

اجابه؛ سمّيناهم خطأً . . أُمّتُهم من عزلتهم.

4

حاول الحافي ان يخرج من نفسه لأنّ اسرار التاريخ دخلت عليه. قال لجيندار؛ ألم تقل أنّ ابا حنيفة وعمر بن عبيد ون عطاء وجابر وابن المقفع وجُلُّ التلامذة الاربعين لمعلم الكوفة ابناءاً لأديان ولاقوام اخرى. لم يكن ابائهم مسلمون ولا عربا .

ألم تقل؛ كان وحده معلم الكوفة عربيا بينهم، وأنّ الاعراق في محفل النواويس، غرب الكوفة قالت؛ لولا معلم الكوفة لما اتبع احد منا عربيا، لو لا معلم الكوفة لضاع العرب. و لكن العرب هم من ضيعوه. فكيف اتبعه الاربعون؟ !.

بعد فتحةِ قدم من الباب رفع جيندار رأسه للنجوم، وكرّر؛ يا حافي القلبِ، اللهُ حافي الدين.

يا صاح.. الله ليس عربيا ولا عبريا، لا هنديا ولا سنديا، لا من روما ولا من مكة. الله هو الله.

الله لا يختار شعبا على آخر. ظلمه اليهود والمسلمون بذلك، لقد جعلوه عرقيا بامتياز. لا يليق بالله ذلك..

لا تقل إنّ الله ربّك دون اليهود، إنّك بَشَره دون السود، إنّك شعبه دون الهنود.

الله لا يمنح قيثارته لأحد، ولكن يمكنك أنْ تجعلها تُعزَف بيده على قدر إنسانيتك لا على قدر لحيتك.

قيثارة الله على قدر مبادئك لا على قدر معابدك.. لا تؤثر بالله عدد المعابد وحجمها، فلدى الله؛ غاندي واحد خيرٌ من ألف مسجد.

يا صاح.. فهمت من دفاتر الكحل عند رامة أنّ إخوان الصفا يقبلون كل الاديان، ولكنهم لا يقبلون الا قلبا واحدا، القلب السليم لا الدين الحكيم، حتى وإن كان وثنيا.

انتبه الحافي لإسم اخوان الصفا، لأنهم جماعة الفيلسوف الكحّال، مالذي جاء بهم هنا وسط المعتزلة.. استمر جيندار يريد انْ يتكلم عن سر الاربعين تلميذا ولمّة أديانهم وأعراقهم عند معلّم الكوفة.

يا صاح.. مَنْ يكتسبْ معبداً يخسر اللهِ.

ليس لأنّ الله بلا معبد، وإنما لان الله أُميٌّ في دينه، في سينه وفي شينه، لا يُفرّق بين الحروف العربيات ولا بين أنسال الأبجديات.

يا حافي القلب.. لابدّ لله ان يكون أُميا والا سيكون لدين دون آخر، ولشعب دون آخر، ولأناسٍ دون أخرى. حينها سيغدو طائفيا وعرقيا وطبقيا، وهو ما لا يليق بالله..

يا من يليق به القلب، مبدأ(يليق ولا يليق)و مبدأ (يجب ولا يجب)للمعتزلة على دم واحد

في علم الكلام. . إنه حدٌّ علمي بإمتياز، حدٌّ يجعلني أضع للدين تعريفا كبيرا، أكبر من علم الكلام كله . ؛أنه فلسفة يليق ولا يليق.

ياحافي القلب. . لا يليق بالحرب أن تقتل الاطفال، ولا يليق بالعشق أن ينسى الأطلال.

لا يليق بالفارس أن يقبل العار ولا يليق بالنبيل أن يسرق الجار. .

لا يليق بالثورة أن تُبيد القرى ولا يليق بالشمس أن تكون للكرى.

يا حافي القلب. . قلت يوما لفتاة ناصعة البياض مُنقّبة؛

كيف تخفون البياض بالسواد! . . لا يليق بالخائن عتاب ولا يليق بالجمال نقاب.

غارت عيونها لعجبي. . قالت لي؛ علّمتُ ولدي ان يمسك القلم باليمين. . قلت لها؛ علّميه قبل ذلك ان يمسك العشق في اليسار.

رجعتُ اقول لعيونها؛

. . لا يستحق السافلُ قُبُلاتك ولا يستحق الكاهنُ صلاتك.

يا صاح. . هذا هو الدين وهذي هي وجوديته. .

يا صاح. . الليل يحن للشموع، كما الشتاء يحن للمطر، كما القلب يحن للعشق. هكذا تبدأ الوجودية وهكذا يبدأ الدين معها.

لقد أسرفوا كثيرا مع الروميّ في فلسفة الناي وقصبته. . الفراق بينهما ليس في ابتعاد الناي عن قصبته، وانما في ابتعاد الانين عن حبيبته. ليس في ابتعاد الطين عن أصله وإنما في ابتعاد قَيسٍ عن وصله. .

في حنين الانسان لإلهه وحنين الجُرف لمياهه. في ابتعاد القلب عن حزنه وابتعاد الجذع عن غصنه.

ياصاح؛ ها هو تعريفي الأكبر للوجودية، هنا أصعد سُلّما في تعريفها؛ (إنها شوق الماهية للوجود) . . لا أبدا، لم يرسم الغابرون تعريفها.

. . تكلّم الفلاسفة كثيرا عن خصام الماهية للوجود، أيُّهما أوّل وأيُّهما ثانٍ، أيهما أصيل وأيُّهما دخيل. ولكن لم يتكلموا يوما عن توحدهما، عن شوق احدهما للاخر. . تكلموا كثيرا عن خصام الروح للجسد، ولم يتكلموا عن عناقهما. .

ياصاح. . حين تنافر الروحُ الجسد يظهرُ الحرامُ، وحين تطابق الماهية الوجود يظهر الحلال. هنا كل أسس الفقه. آه من يفهمني.

يا صاح. . لا تمنع الشفاه عن القُبَل، ليس لأن الشفاه ستُخطّئ الله، بل لان القُبَل ستُخطّئ الوجود.

الزهرة لا توجد الا بالشمّ، والشفاه لا توجد الا بالقُبل. وجود الزهرة في شمّها لا في ماءها. . إنها فلسفة الماهية.

يا صاح. . لا لن يكون الجناح طيرا دون سربه، ولن يكون الانسان خَيْرًا دون حبه.

يا صاح دون بعض سربي؛

- اعط الشفاه قبلتها تكن شفاها.
- من تكون عارية في جسمها تكون عارية في اسمها. .
- الصهوة دون صحراء تجهل خيولها.
- حين خرجتْ الطبيعةُ على حبيبته، بدأ أوديب مصيبته.

يا حافي القلب. . قال الحكيم بابا عريان (إذا جاءت الحكمة بَطَلَ العلم)، ولكنه لم يقل؛ إذا آمنت الحكمة كَفَرَ العلم.

5

ضوء الشمعة يغازل الغرفةَ، وعيونُ الحافي تغازل قلبه. نزل بعض الضوء يصيد بريق عيونه.

عاد يسأله الحافي عن عيون التلامذة الأربعين من كل الاديان وسر المعتزلة الاول في قدرة معلّم الكوفة على جمع كل تلك الاعراق على قلب واحد، على جمعِ كل تلك المحاريب على إله واحد. . فقال له جيندار؛

كنتُ قد رأيتُ في أخر أيامِ لحيتي اثنين سال بينهما الدم لأجل عشقٍ، وأنا آتٍ من اثنين سال بينهما الدم لاجل دين. . آنذاك ردّدتُ ضاحكا على اللحية، أخاطبها؛

يتخاصمون على فتاة ونحن نتخاصم على الله!!!. لهم الحق، فالفتاة تكفي واحدا، ولكن الله يكفي الجميع.

اللهُ لايسكن الكعبة..

كيف حدّدوا مكان الله من يتخاصمون على حدّ لحاهم؟!!!.

الحياة ليست معبدا..

كيف حدّدوا شكلَ الحياة من يتخاصمون على شكل القبور؟!!!.

الدين ليس فقها..

كيف حدّدوا حرام الدين من يتخاصمون على حلال الموسيقى؟!!!.

.. وهل الله الا موسيقى، هي الوحيدة إنْ عزفتها تعزفُك، فلا تجعله كاهنا يَخلُفُك.

يا حافي القلب، وجد قسٌّ نبيل من الجيل المتأخر لأخوان الصفا مخطوطةً في غارٍ قديم مكتوب فيها؛ "مملكة الرب في داخلك وحولك وليس في مباني المعبد". أصرّ هذا القس أنّها لعيسى وأصرّ القساوسة أنْ لا يبقى هذا القس قسّا، لانها مقولة تهدم الكنيسة..

نزع هو ثوب الكهنة فوجد يسوع، ونزع جبل قاسيون آخر متصوفيه فوجد حسرةً منه محفورةً على احجار قبره تقول؛ المعبد الذي حفرته بآلامك جال به عاهر صلاة.

يا صاح، قال الكحّال لتلامذته وفيهم اثنان من أديان أخرى؛

أفضلُ معدنٍ في الارض هو أكثر من أساءَ لها.. ألم يكن ذلك شأن الذهب؟.

صحيح انه لم يجمع الجماعات بتلك الشدة غير الدين، ولكن أيضاً لم يُفرّق الشعوب بتلك الشدة غير الدين. صحيح انه لم يُحيي الجماعات مثل الدين، ولكن أيضا لم يقتل الجماعات مثل الدين.

حكاية الدين والذهب واحدةٌ في الشر. فحينما امسى الذهب يحمل أُس كل مال، أصبح أُس كل مشكلة.. وحينما أمسى الدين يحمل قلم السماء أصبح يحمل خنجر الارض.

.. الكهنة يغلبون الناس بالدين، والعريس يغلب الفتاة بالذهب.

يا حافي القب؛ اخفتَ الكحّال بصوته قليلا وكأنه يريد أن يختم ببعض جلنار فقال؛.. والعين تغلب العشق بالكحل.

يا صاح، تبحث البشرية عن الحقيقة في الكتب وهي زورها!. تبحث البشريةُ عن الله في المعبد وهو سجنه!. تبحث البشرية عن الفضيلةَ عند الكاهن وهو جزّارها!.

مشكلةُ الانسان انه لا يتوقع انْ يرى روحه خارج جسمه، ولا إلهه خارج معبده.

يا صاح. . لقد بدأ الكاهن خديعته حين بدأ يحصر الله في المعبد وكُتبه، في المفتي وخُطبه.

الله لا مُنتم، والتوحيد لا إنتماء. . أهل الماخور يشعرون بذلك دون الكهنة، لذا يحلفون بالله ويَدْعُونَه في عين ماخورهم، لأنهم يرونه للجميع، بينما الكهنة يرونه لهم فقط!. . عندها رأى الله الكهنة لغيره.

غريب أمر الوجود، يكون فيه أهل الماخور اعرف بالله من أهل المعبد!. . غريب أمر المعابد، لاتعرف قلبَ الله رغم أنها أكثر من تردد إسمه!.

ياحافي القلب. . أَعذُرُ قناعاتي أنّ فيها حانات التاريخ هي معابد الكهنة لا ملاهي الغانيات، لان المعبد أسكر البشرية اكثر مما اسكرتها الحانات.

سأله الحافي عمّ تبحث؟. . أجابه؛ ابحث عن وجود في قصيدة، وجود في امرأة، وجود في مُعلّم، وجود في صلاة، وجود في ناي، وجود في مدينة. فقط لتكن نظيفة. . يكفي أنها نظيفة.

المدن مزورة كما المعابد. .

المدينة لا تنجب امراة عاشقة، هي تنجب إمراة سارقة. . فلا عشق يتم في المدينة، ولا صلاة تتم في المعبد.

المدينة لا تنجب انبياءا، والانبياء لا ينجبون مُدنا. . لم تظهر في التاريخ مدينة نبوية قط. دعكَ من كذبهم.

يا صاح. . قال بيلاطس ليسوع؛ انت ملك اليهود. . . أجابه يسوع؛ مملكتي ليست من هذا العالم.

يا صاح. . الانبياء لا ينجبون أعلاما، هم ينجبون اقداما.

يا حافي القلب هاكَ دوّن بعض إنجيلي؛

– دعك من جهات الشمس، دعك من جهات الصلاة.

– لن تعرف الصحراء حتى ترى المدينة، ولن تعرف الله حتى تعرف الشيطان.

- أنْ لا تجد فراشك، غيره أن لا تجدك أرضك.
- لا تَسَل الريحَ عن الأشرعة، سَلْ الاشرعةَ عن الريح، فهي من مشت بالأقدار.
- من يعرف الكأس هو من يعرف الساقي وليس من يعرف الخمر.

6

فتح ليلتها إنجيله امام شمعته، فكتَب:

الله لا منتم.. الله يقف ضد المؤمن حين يظلم ملحدا. هنا إلزام عدالته، وإلا لكان الله متحيزا لجماعته.

أنْ تُنزّه الله هو ان لا تجعله ظالما وليس ان لا تجعله حجرا. لا يهمّ اللهُ شكل عرشه، مايهمه شكل مبادئه.

لا يتألّم الفارس على هدم أندلُسيته، يتألّم الفارس على وَصم فروسيته.

لا تَهُمُّه قامةَ دولته، ما تهمُّه قامة رجولته.. لا تهمُّه قِممَ قصوره، ما تهمُّه قِممَ صقوره.. وما بين الصقور والقصور مسافة أجنحة لا مسافة أحجار.

الله نبيل جدا، يقف مع المومس ضد المصلي إن عيّرها، هنا إلزام نبالته.. إنها الزامات علم كلام جديد. لن يقفوا بها امامي.

غريب أمر الكهنة، يُردّد لهم النبيُّ مبدأً لله: "دعوةُ المظلوم مستجابة وإنْ كان فاجرا"، فيفجُرُونَ فيه بقتله!..

يُردّد لهم عليٌّ: "لو رأيتُ الفاحشة بعيني لغطيتُها بردائي"، وهُم يرجمون عَليّها!.. يأبى الكهنةُ ان يكون الله نبيلا.

لطالما قتلوا إنساناً لأجل خَمْرته، ولطالما عهّروا خدّاً لأجل حُمْرته.

أبداً، الدُعاة لا يَدْعُون الى الله، الدعاة يَعدُّون على الناس فحسب. إنهم جواسيس معبد وزبانية سلطانٍ. فأنْ تدعو الناس للخير غيره أن تَعُدّ عليهم الشر.

و لكن، لكُلٍّ مسلَّته في الخير والشر. مسلّةٌ اختصرها مُتمتماً أحدُ مترجمي الملائكة في قرية بشرّي:(إنْ كان ما يقولونه عن الخير والشر صحيحا فإنّ حياتي كلّها سلسلة من الجرائم).

إنتبه إلى المجرم إنه قدّيس! .. ليس الغرابة ان تَجِدَ القديس مجرما، الغرابة هي أن تجد المجرم قديسا.

كيف يريدون أنْ يكتبوا الخير والشر؟! والوجود كانّ قد كتبهما قبل أن يكتب آدم إسمه! .. يا صاح، كل القصة بين الشغاف والشريعة؛ كم نصَّ بينهما، كم لصَّ بينهما؟ ..

.. مشت عيونه إلى النافذة أكثر، إلى الليل أكثر.

قرأت في مدونات الكحّالة قولَ يسوع للمجدلية غداة نظر لها احد الكهنة الفريسيين كمومس غانية؛

هل تعرفين الشغاف، لا تكتبوا فوقه، اتركوه لكلماته.

المعبد ليس اسما للصلاة، انزعي منه صلاتك واتركي له صلاته.

.. عاد يتكأ على ضوء الشمعة في الحائط.

كان يعرف جيدا؛ أنْ تتكأ على الليل غيره أنْ تتكأ على وهد الوسادة، ان تتكأ على القلب غيره أن تتكأ على نحر القلادة.

...كتب؛

الرياح تسعى دائما ان تقول البحر، ولكن الاشرعة قليلة.. المعرفة تسعى دائما ان تقول الحكمة، ولكن الكتب كثيرة.

القلوب تسعى دائما ان تقول الله، ولكن الاديان عديدة.. اللغة تسعى دائما ان تقول الحقيقة، ولكن الاسماء بعيدة.

حينما بدأنا نحسب الوقت ضاع منا الزمن، وحينما بدأنا نحسب الركع ضاع منا الله.

أنْ تنحني في صلاتك غيره ان تُصلي في حناياك.. تريد ان تصِل لجبهتك، أم تريد أن تَصِلَ لقلبك؟.

أن يضيع مزمارك، غيره ان تفقد لحنك فيه.. أن تضيع سفينتك، غيره أن تنسى شاطئك بها.. ان تضيع الكلمات، غيره ان تخرف معانيها.

جراح الانبياء تنجب قلبا وليس فقها، تنجب ثوارا وليس كهنة.. يا حافي القلب، كلُّ دين يُنجب كهنةً اعلم أنّه مزوّرٌ في صلاته وفي فلاته.

ابو ذر لم يكن يعرف من منطق ارسطو شيئا، ولكنه كان المشّاء الوحيد بين الفلاسفة المشائين، لانه يمشي الى الحقيقة بمسافات الزقاق، وهم يهرولون لها بمسافات الورّاق.

أخطأ المجددون في تجديد الحسرة والآه، كل القصة في تجديد الله.. الانسان خرج على ماهيته، والله أُخرجَ من هويته.

هم يُجددّون الفقه، وأنا أجدّد الله.

الله لا يحتاج علما في تجديده، الله يحتاج قلبا كي يجده.

قانون الله هو ما يفتيه قلبك لا ما يفتيه فقيهك.. ما يوجد في السماء من مبادئ تجده فوق ضميرك لا تحت عمامته.

هنا يمكن لكانط الالماني ان يُرتّل المصحف العربي(و نفختُ فيه من روحي)، لأنه وحده من ينتصر له أمام الفلاسفة.

ردّدت رامة الهمدانية بحسرة بعد زمن وهي تسمع أخبار أقلامه؛ ونفخت فيه من اسمي.

7

انقضت الشمعة وراءه عطشى لضوئها.. وعاد يكتب؛

صحيح ان الله كاتب للحقيقة، ولكن محابر الكهنة لا تقبل الله الا مزوّرا.. التاريخ لا يقبل كتاباً حقيقياً، كما المعابد لا تقبل إلها حقيقيا. لهما الحق لأنهما يخسران.

مشكلة الكاهن أنه يوقّع مصائبه بإسم الله، مصائب لا يقبلها طاغية على إسمه!.. النبي يقول انا من الناس، الكاهن يقول انا من الله.. لن ألوم الكهنة، ألوم الناس فهم من يسجلون على الله ما يراه الفقيه حتى السبي والقتل.. مسكين هو الله.

في جمهورية الله، النبيُّ نائب الناس. في جمهورية الكهنة، الكاهن نائب الله.. في السماء الله وفي الارض الكهنة، حتى آيته (و هو الذي في السماء اله وفي الارض إله) أخذوها منه.

الان افهم جيدا اسطورةً تقول ان موسى حين لقائه بالله، طلب منه ان يصونه من لسان الناس، فهم يتقولون عليه اشياءا لم يقُلها قط.. ردّ عليه الله؛ يا موسى، هل سلمتُ انا منهم حتى تسلم منهم انت؟!.

تقوّلوا عليك عشرة اعوام يا موسى، فكيف وانا قد تقوّلوا عليّ الاف السنين.

ياموسى؛ لقد نسبوا لي شرائع لم أقل بها قط.. انا الذي في السماء غيري انا الذي في الارض.. ذلك الذي لديكم ليس هو الذي انا.

فتح صفحة بيضاء لم تتقول على الحقيقة بعدُ وكَتَبَ؛ الآن اعي اسطورة النبي ورفيقه، التي كُتِبتْ حين اصبح اليسار يمينا فتأسس اخوان الصفا.. لا بأس ساجعل إنجيلي يجعلها من حبره؛

كنت أنتظر ملائكة ما زالوا يرتادون الأرض بوحيٍ ضاع منا نبيه، ولكني وعيتُ بعد حين أن النبي من ضاعت ملائكته!.

قبل أن يدفنَ النبيُّ آخرَ أوراقه، لم يستطع احد حوارييه صبرا: لِمَا تدفنها؟!!!، فليس للإنسان الأخير غيرها.

يلتفت إليه النبي بملائكته، يُحدّق في آخر الصحراء وكأنّه يحدّق في آخر الزمان.. فوحدهم الانبياء كانوا يرون ان الرمال من صنعت الزمان لا العكس.

يجيبه؛ أبدا، بل خشيتي من الانسان الاخير ان يجدها، فتغدوا غيرها. حينها يظهر الله غير الله، وأظهر انا غيري. وقتئذ تشربون بها فتسكر هي قبلكم.

أسفي عليكم، أنكم حملتم الوجود قبل ان تجِدُوه، فكسرتم عقولكم قبل ظهوركم.

تبعتموني قبل ان تبلغ أقدامكم النبوة، فجررتم طريق غيري.

أطعمتم كلماتي غير معانيها فتقيأتْ هي تيهكم، وأسكنتموها غير حجرتي فغُرّرت بغيري.. قيدتموها بسلاسل تحمل اسمي فما عادت تجرُّ آلامي، ثم أضفتم إلى جدائلها طين أسواقكم وحروبكم ومذاهبكم فضاع عنها ملمس يدي.

اسكرتموها باسم معرفتي فما عادت تعرفني.. آه، بل ما عدت أنا أعرفها.

يسكت النبي قليلا، ويعود لعيون صاحبه متنهدا؛

ليست القصة يا صاحبي ان لا تجدوا كلماتي، القصة ان لا أجدها انا بعد حين !.

يلتفتُ النبي، يتلفّت؛ أين ملائكتي؟!!!.

. . . هدأتْ عيون جيندار بحسرة، رجع يتذكر عيون رامة، حين عرف من دفاتر كحلها سر اربعين الكوفة ويسارهم. . قال لها؛ واحسرتاه، حتى قبورنا اصطفت الى يسار القبور مع ما على اليمين من أعشاب.

لم يبق لابن حيان قبر ولا لمعلمه. . بقيت قبور السلاطين فحسب!.

سألته رامة ليلة ذاك، وهي ترجف بيسارها؛ يا جيندار، لما القلب في يسار الجسد ؟.

أجابها؛ كي يكون الله يسار الانسان لان الحقيقة في اليسار. . العشق يسار الانسان.

يا رامة، اللهُ يساريٌّ كما العشقُ.

عادت فتاة همدان لرجفتها أكثر، وعاد هو يمسك الرجفة بعيونه. .فقال لها؛

يا رامة. . لا تخطأي. الشمس يسار الوجود لا شرقه، والقمر يسار الليل لا أعلاه. .

مسافات الشفاه..

(إذا أردتَ المضيّ نحوى السكارى، فعليك أن تسكر..)

الرومي . .

1

بعدِ زمنٍ دون كحل، قبل أن يروي الحافي لتلامذته الثلاثة قصّةَ رامة مع جيندار، قال، لكم أُحبُّ كلمةً جيندار لي؛

لا تسل العاشق ماذا تفعل في أقصى الشفاه، سَله ماذا تفعل الشفاه في اقصاك؟.

لا تسل الكرديّ ماذا يفعل في اقصى الجبل، سَله ماذا يفعل الجبلُ في اقصاك؟.

لا تَسَل المتنسّك ماذا تفعل في أقصى المدينة؟. . سَله ماذ تفعل الاقاصي في أقصاك؟.

ثم روى؛ ملّ جيندار من دينه ومن طوافه، من فريقه ومن طريقه، من شاطئه ومن رماله. بقي معه ناي قلبه فحسب، يتيه به حيث تتيه أغاني أقدامه. . لقد قال مرةً؛ للأقدامِ أغانيٌ لا يسمعها الا من تمشيه الصحراء. . أن تمشي الصحراء غيره أن تمشيك هي.

حين تسمع روح سفينتك يصبح البحر من يسمعك.

لقد كان أبو ذر يسمع عصاه، فأصبحت الصحراء تسمعه.

يا أصحابي. . في بعض من سنيّ القرن العشرين، في زمنٍ جميلةٌ هي الارض اكثر من السماء. . احذروا من الوجود حين تكون ارضه أدنى من سماءه.

في تلك السنين، قبل أن يقلَبَ جيندار قلبه قبل قميصه، عبر الحدود نحو مدينة همدان، كبرى مدن الجبال. . مرّ على قريةٍ كان تمّوزها كانوناً وكانت فتياتها عيوناً . ففي همدان كل الفصول للثلوج وكل الجمال للرموش. . هذا شأن الكحل فيها وذاك شأن الفصول معها .

لاقى على مشارف قُراها الغربية جسدا غانديّا ينعزل في مدخل وادٍ يفتحُ الجبلُ كوّة له تنتهي لغارٍ يحمل في داخله انفاسا من اسرار قديمة تشعر أنّها أهم مما دوّنته الأُمّه في قصور السلاطين وغوانيهم. . قال في نفسه؛ . .تعسا لأمّة تدوّن ما في قصورها وتترك ما في جحورها .

سأله جيندار، وكان لم يأخُذ اسمه بعد؛ لِمَ انت عارٍ ؟ .

رفع الهمداني عيونه بغانديّةٍ أُوضح. . فعيون غاندي من كانت عارية وليس جسده.

أجابه الغانديُّ؛ لا أُريدُ ان أُعطي قلبي. القلب لا يحتاج ثوبا، والانسان قلب فحسب.

هذا ما يقوله معلّمي العريان بابا طاهر، مُعلّمٌ لم أره قط.

اثارت جيندار كثيرا كلمة العريان؛ القلب لا يحتاج ثوبا .

سأله جيندار؛من معلّمك هذا ؟ . اجابه؛ أنه قافله قديمة لم تعوي لها الكلاب، فالشهرة عواء فحسب.

سأله؛ كيف غدا عريانا ؟ . . أجابه الغانديُّ وفي عيونه كثير من جوع الجبل؛

يُروى لنا أنه قبل مئة والف من السنين، كان هنالك تلميذ لم يفلح في علوم المدرسة الدينية، فسمع اثنين من زملاءه يتحدثان بسهولة عن أرسطو امام ساقية متجمّدة قريبا من ايوانات المدرسة. سألهما متعجبا؛ كيف وصلتما ذلك ؟ . . اجاباه، يسخران من غباءه؛ انزلْ لبرد الساقية ليلا وستغدوا في الصباح شمساً . هكذا يمكنك ان تشرب كل علوم ارسطو جرعة واحدة.

ذهب هو الى الساقية وذهبا هما الى الضحك. نزل الى مائها البارد ليلا فخرج صباحا بكل نارِ زرادشت. تمشي به الحكمة دون كتاب. . لا يعرف أحد ليوم الناس هذا كيف حصل الأمر ؟ ! . لم يُجبهم عما حصل.

. . كل ماقاله بابا عريان حينها لهم؛ (امسيتُ كُردياً وأصبحت عربياً . .) .

التفت الغانديُّ لجهة الساقية في اسفل الوادي بحسرة مخاطبا جيندار؛
أيها الغريب، بقيتُ عشرة اقمار أغطس بين ليلة وليال، أُجرّب الساقية وأطوف بها، واعود اتدفأ بهذا الغار، فلم يحدث لي ماحدث لعريان.. وها أنا اقطن همدان وثلجها، بلا حكمة ولا ثوب.
تمتم جيندار حينها؛ هنا يمكن للفلسفة ان تضحك.
.. وحينما تضحك الفلسفة يبكي فلاسفتها.

2

حدّق جيندار بالغانديّ وسط الغار، وتكلم بدفء الجبل فوقه وبندى الساقية تحته؛
يا صاح، انت قبل رؤيتك ليلى غيرك بعدها، ولكن ليس كل من رأى ليلى اصبح قيسا، ولا كل من عشق ليلى اصبح مجنونا.. ياصاح؛ القصة ليست في ليلى، القصة في قيس.
يا صاح، ليس كل من نحت افلوطينة اصبح أغمانون، ولا كل من حدّثه تبريز اصبح الرومي.. يا صاح، لاتخطأ، القصة ليست في شمس تبريز، القصة في ليل الرومي.
يا صاح، انت قبل سماعك عليّا غيرك بعده، ولكن ليس كل من سمع عليّاً مات هُماما[1]، ولا كل من مشى لمحمد اصبح ابا ذر، ولاكل من لمسها المسيح اصبحت المجدلية.
انت قبل العجوز الفقيرة غيرك بعدها، ولكن ليس كل من رأى الفقير ثارَ كأبي السرايا[2].
ياصاح، معلمك العريان قبل الساقية غيره بعدها، ولكن ليس كل من دخل الساقية غدا عريانا.. القصة في عريان وليس في الساقية..

---

(1) هُمام هو الشخصية الكوفية التي ماتت اثر سماعها كلمة ابن ابي طالب المشهورة بخطبة اليقين. حدثُ هذا الشخصية في موتها بنشوة الكلمات يفتح ملفات صوفية وجودية للروح تتجاوز كثيرا من المعارف. حدثُ يكسر كثيرا من مفهوم الاسطورة لتتغير من رمز دون واقع إلى واقع برمز، أو وجود بلغز. لذا، فالوجود عينه اسطورة.

(2) ثار أبو السرايا بسبب هذي العجوز الفقيرة التي وجدها حين دخوله العراق من على مشارف الكوفة، وهي تبحث عن بقايا طعام في القمامة. بينما قصر الخليفة العباسي يرتع بمال هولاء الفقراء.

ياصاح، كلٌ له ساقيته وليلاه وجرحه وكتابه وأغنيته التي هو بعدها غيره قبلها . .

يا صاح، نبحث عن الله في القبلة، والانسان قبلته ! . نبحث عن الحكمة في الساقية، وليلى سُقيانا ! .

ليس المسألة أنك تعرف طريق الكعبة، المسألة أنّك تجهل طريق الله . . طريق الناس ام طريق مكة ؟ .

هلا تسائلتَ؛ أنّك قبل العشق غيرك بعده، فلِما انت قبل الطواف عينك بعده؟ .

انت قبل اليتيم غيرك بعده، فلِما انت قبل الكاهن عينك بعده؟ .

يا صاح، ليست المسألة ان تؤمن بوجود الله، المسألة ان تجهل أيهما وجوده؛ وجوه اليتامى ام وجوه الكهنة ؟ .

. . الله ليس صلاةً والحجُ ليس مكة، الله ليس مأذنة ولا ناقوسا . . الله لا يحدده درب، لله دروب. اللهّ لا يحدده بيت، لله بيوت .

قل للمسيحيَ، لابأس، أورشليم مدينة الله، ولكن أعبرتَكَ اورشليم ام عَبَرتَها ؟ .

قل للصوفي، لا بأس، العبادة شباك الله، ولكن دون الناس يضيع بابه . .

يا صاح، عبر عريان الساقية ام عبرته . ام هنالك أحد ما قد عبرهما ؟ . سل عن الحقيقة أكثر، سل عن القصة أكثر . يا صاح، هنالك مَن جعل الساقية عارية معه .

خرج لابسا الحكمة فلم يقبل ان يلبس أثوابه . لذا بقي عريانا . . لم تُغطه معرفةٌ يوما ، في هذا كان عاريا وفقط . . . القصة ليست في ماء الساقية، القصة في قلب عريان . .

لم يصل عريانُ للوجود بحبر الكتب، وَصَلَه بمشي السحب . . وآه من غبار الكتب، ومن فلسفة السحب، إنها تعرف اين تمطر، للأمر لغزٌ ابعد من فيزياء الرعد .

يا صاح، الوضوء لم يبدأ ماءا والحكمة لم تبدأ كُتُبا ، كان حكيم الاسلام أُميُّها . . لله كتب كثيرة في القلب، قليل هم من قرأوها .

ياصاح، لقد صَدّق معلّمك عريان زملاءه ليس غباءاً، صدّقهم لانه كان يُصدّق الساقية فحسب . لقد صدّق الوجود والطبيعة، إنه يُصدّق الروح في الوجود . . الروح في كل التراب، كما في كل الماء . في كل القمر، كما في كل القلب . . هذه هي وحدة وجود، لا تُصدّق وحدة الصوفية .

ياصاح، الساقية وعريان عَرَفَا بعضهما، كان كلاهما يريد التيه. . الا ترى الجدول الصغير حين جريه بين القرى يبدو وكأنه مسافر يهوى التيه وليس تائها . . تشعر وكأن فيه روحٌ تتعمد أن تجعله يمر ساعة هنا وساعة هناك. أنه يُعلّم الاقدام فلسفة التيه الجميل. .

يا صاح، لا ترسم دربك، دع الدرب يرسمك. . لا تحدد اقدامك، دعها تحددك.

ياصاح؛ اتعرف لما لم يمت عريان بثلج الساقية؟ . . لأنه نزل الى قلبه، فكان الماء نارا .

يا صاح، وحدة الوجود هي؛

رسالة القمر لا يقرأها الا من كان ليلا. ورسالة البحر لا يقرأها الا من كان شراعا .

3

أراد أن يودّعه مبتعدا عن همدان، ولكنه رغب بأن يمر على الساقية قبل ذاك. . عرض عليه الغانديُّ أن يأتي معه إليها، ولكنه فضّل ان يراها وحده. . قال له؛

حينما تكون مع الاشياء وحدك، تقول لك ما لا تقوله وانت مع الجميع. . هذا شأن القمر يقول لك كثيرا لانه وحده وسط الليل. . لذا، احذر ان تلتف عليك النجوم.

ودّعه ومشى. . الغانديُّ روحه تمشي اكثر، كُلُّه الصمتُ من كلام هذا الغريب التائه. اتّكأ الى كوته وجبله، علّ الجبل يحمله قليلا.

نزل جيندار باتجاه اسفل الوادي حيث الساقية قرب أطلال المدرسة القديمة للبلدة. . شعر أنّ ألاودية تحمل رائحة كحل، ولكن روحه تقول له أنها رائحة عيون. . سخر من روحه في ذلك، فلا رائحة للعيون.

وصل الساقية، وقف أمامها يحدّق على زمانها وسكانها . تناول كومة حصى من جواره، يلقيها تواليا، يفتح نفسه على روح الدوائر التي تُحدثها حصاه، وكأنه يريد ان يحفر فيها الزمان ليرى ماحدث لبابا عريان. . شعر بزمن من الكحل تمر رائحته عنده. لايعلم لِما تلاحقه هذي الرائحة!. ولما مازلت روحه تنطق؛ رائحة عيون؟!.

فارق الساقية مغادرا البلدة. شقّ اخاديدا تتناثر عليها بيوت القرى، وكأن البيوت لا تريد بعضها، ازقة الشجر والحجر تجرُّه لها، فغادر أزقة الناس. . شعر من جديد انه يتعثّر أكثر

برائحة العيون، فتعثر بحَجَر . . انتبه الى دماء على قدمه، رفع عيونه فلَمَحَ فتاة في شرفتِها فزّت على وقوعه من بعيد، فلم تَعُدْ عيونُه لجرحه.

كانت شُرْفَتَها تملك كل القمر، كما كان خصرها يملك كل الغجر. . كتب عنه في أنجيله بعد زمن:

أقبَلُ الصلبَ إنْ كان خصرها صليبي.

صحيح أنّه حين راى عيونها غفى جُرحُه، ولكن كل من نام على قلبها سهرت عيونه. . عَزَلَها الليلُ فاتكأت على حائط تُثني قدمها عليه. تركضُ كل الحيطانُ لظهرها .

كما كان الحائط يُقيم ظهرها، كان الحزنُ يثني صدرها .

فزّت هي على عيونه، على جرحه. فزّت عن شرفتها، عن حائطها، عن حزنها . جاءته. . وصف جيندار مجيئها ذاك للحافي:

جائتْ مُثقلةً بعيونها، فمَنْ يَحملُ عنها تلك العيون؟ .

. . . اللهُ يمشي بجنونها، يُعرف اللهُ بالجنون! .

قال عنها:كانت فارسية الحروف، تعرف العربية في شهرزادها وبنجوينها وقصيدة يا دار عمْرَةَ من محتلها الجَرِعا، هاجت بي الهم والاحزان والوجعا . .

هذا هو وجعي دائما، أني أثمل سريعا بالوجود، منذ أن تعلمت هذا البيت في طفولتي، ومنذ ان مررت بالف ليلة وليله في صباي، ومنذ ان عبرت قرية بنجوين في شبابي.

كأن في عمق آبائها جارية تلفّعت بالعشق ايام كان للعرب عشق وناقة، قبل ان تتحول ايامهم الى معبد وناقة.

كان فيها كل ليالي الالف إلا ليلة، فيها ليلة إلا الليالي الالف. . كانت لا تحب عدّ الليالي، بل كانت الليالي من تُحِبُ عدّها .

وصلت عيونها لجرحه، ووصلَت عيونه لكحلها . . تمتمتْ روح جيندار: اجلبي لعيونك نبيا، لايقوى عليها احد .

تراجع، يلوم وصفه، يريد أن يعطي عيونها أكثر، فقال عنها: . . عيونٌ يتيه بها نبيٌّ عن وحيه.

قال للحافي يروي له تلك اللحظات؛عاينتْ هي الدماء من قَدمي، وعاينتُ أنا في عيونها قِدمي. . كان فيها كل التاريخ الذي أُريد .

كان قد أتعبني المطر فأوكأتُ قلبي على قطراته، وأوكأتْ هي جرحي على مطرها .

كنت أُرتّل كحلها بقلبي، وكانت هي ترتّل جرحي بيدها .

حينها بدأت أُعوّل على بن عربي؛ (كل ما لايؤنث لا يُعوّل عليه) . . ليس لان المرأة بنيان الوجود، بل لانها أيضا مِعْوَل الوجود .

يا حافي القلب، أضف قاعدة في إعراب اللغة؛ الكلمات التي تخترقنا علينا ان نؤنث قوسها، لأنها من جنس المراة.

يا حافي القلب دوّن بعض انجيلي؛

- كحلٌ عربيٌّ خير من صلاةٍ عربية.
- الفيلسوف الذي لا يهوى الشفاه لا يهوى الحقيقة. . لانهما بعذوبة واحدة.
- الشفاه بلا قمر لا تُسكر الروح. . اغبياء من يشربون في النهار .
- جلجامش مشغولٌ يريد رفيقا . كان يريد صعودا، لا يريد خلودا .
- الشفاه لا تنطق الحقيقة الا بقُبلة.
- حين يهيج البحر تعصف الصحراء .
- دع الكأس يُسكركِ أكثر من خمرته.

4

طلب الحافي من جيندار أن يصفها أكثر، فردّد جيندار؛

أَيْ عجيبٌ، لعينيكِ بعض العجب.

. . لاخصركِ فارسي، ولا دهرُكِ بعض العرب.

كيف اختصر لك وصفها وقد كان خصرها يختصر الوجود . .

كانت جميلة اكثر من قريتها، وكانت عيونها من أول مابدأ الله الخلق. لذا يمكن معرفة فلسفة الخلق كثيرا من عيونها .

كانت تستطيع ان تسمي الله بإسم آخر دون ان تخدش علم الكلام، ودون ان يزعل قديس.

.. شعرها التائه، علّم القوافل تيهها.

أيها الحافي، لا يجوز ان المس نحرها دون وضوء، لا يجوز ان اقبل شفاهها دون صلاة، لايجوز ان اسمع صوتها دون آذان.

كانت لاتريد لقلبها وطنا، أُكتفت بشال يستوطن كتفها، وبنقاب يشيل عيونها.

يا حافي القلب، اذا رأيتَ أنفا فيه بعض القمر فاشتري مظلة من النجوم.. ولكن أنفها يجعلك تشتري مظلة من التاريخ، لان فيه كل السيوف.

ايها الحافي حين وصلتني، لامستُ عيوني عيونها.. وحين تتلامس العيون تتلامس القلوب، هذي حكاية العشق. حين تتلامس الكلمات تتلامس الحقيقة، هذي قصة الفلسفة. اما حين يتلامس الكهنة تتلامس الخديعة، هذه قصة الشيطان.

شعرتُ بقُبْلَةٍ هندوسية في العيون.. الهندوس وحدهم قالوا بقبلة العيون. يكفيهم ذلك حضارةً في دين الجسد.

شعرتُ بقُبلة مجوسية في النار.. المجوس وحدهم يعبرون النار بقُبلة. يكفيهم ذلك حضارةً في دين العبور.

أيها الحافي، العيون هي الاهم في مقولة الجمال، لذا كلمة احبك ليس كلمة لسان، انها كلمة عيون.

.. نحن لانشعر بعيوننا الا مرتين، مرة حينما نبكي ومرة حينما يكون الجمال امامنا.

يا صاح، كان لقب الكحّال يُطلق عند العرب على طبيب العيون، لكن كحّال اخوان الصفا كان يمنح العيون كحلها لا طبّها.. كان يكره ذلك كثيرا.. قال لتلامذته؛ طبيب الاسنان غير طبيب العيون، الثاني وحده يتوجع أكثر من مريضته.

أيها الحافي، تمتمتُ لها؛ عيناكِ تكفيان لقبلة قيس ولثورة الزنج.

رجع يصف عيونها؛ ازعل على الله ان حرقهما بالنار، حتى وان أخطأت. فالعدل غير الجمال.

يتقولون على النبي؛ (النساءُ أكثرُ أهل النار) . . آه، إن كان ذلك، إذن فالنار أكثر عطرا من الجنة.

يا صاح؛ الله لا يحرق الجمال، الجمال من يحرقنا . . للدنيا نار كما للاخرة.

أيها الحافي، سأنسى انّ المرأة شرٌّ لابد منه، ساقول؛ أنّ المرأة سحرٌ لابد منه. . أيها الحافي؛ الرجل لايقتله الا الحب، والمرأة لا تَقتُلُ الا به.

ليلى ماتت وهي زوجة، ومات قيس وهو مجنون. . يكفي ذلك لخطيئة ليلى.

يا صاح، حينما خُيّر رجل بين المراة والغرق، أجاب؛ لا فرق بينهما، ولكنني اختارُ الغرق، لأني اقلها أموت رطبا، فقيس مات جافّاً في الصحراء.

ياصاح. . إلهُ عشقي من انجبني لا إله ديني. فلا تدفنوني مُصلحا، ادفنوني عاشقا.

. . آه، سلوا شامها، من يعرف بقاسيونَ دربَ المطر.

قالت لي ساعة واحدة وأعود. . أُمشّطُ شعرَك.

لم تعُد. .

آه. . لا أُريدُ الساعةَ، أُريدُ المشط. . لا أريدُ قاسيون أريد المطر.

5

ردّد الحافي بداخله كثيرا حسرة جيندار؛. . سلوا شامها، من يعرف بقاسيونَ دربَ المطر.

شعر أنّ لجيندار عشقا يعرفه مطر دمشق قبل أن ترفعه جبال همدان. . عاد جيندار يروي للحافي رامته وكحلها بعد أن مرّر قلبه على هدأته.

يا صاح. . حين دخلتُ بيتها دخلتُ اسمي، قليلون هم من يجعلونك تدخل أسمك.

في منزلها غازلتْ جرحي يداها. تقترب من رأسي المطرق في زاوية ناعسة بدرجة قلب ونصف. . تنتهي من مداواة الجرح، دون ان اعرف اني مجروح. وهل من جُرح غير عيونها ؟ .

أناديها في داخلي؛ سلّمي القلبَ، فما بقي للقلب ندى. . لم تبقَ جبالٌ بهمدانَ، ولا بقي في السيف ردى.

سألته رامة حينها؛ من انت؟..

أجابها بكل لحن إنجيله؛

انا نبي خرّبته الغيوم، انا صبيٌّ أوجرته الاحلام.. انا لحن اسقطته النجوم، انا نَصْبٌ نَحَتَه الحَمام.

انا مرود عطّرته الرموش، انا سِربٌ أخطاته السهام.. اسكرُ وفي كفي عيوني، متى تغفو، متى تنام؟.

نسيت في هذه الليلة اسمي، لا أريد اسما بأقلام.. كووسي الحمر بلّلت صلاتي، لا أريد صلاةً بإمام.

.. تبلّلت روح رامة بكلماته.قالت لنفسها؛ هذا هو المطر.

اقترب منها ووجهه للشُبّاك.. قال لها؛

حينما يكون اللهُ أمامَك، لا تبقى هنالك إمامة، وحينما يكون العشق إمامُك، لا تبقى هنالك قيامة.

سكتت أياديها عن جرحه، ولكن عيونها لم تسكت عن الكحل.. اسمها لم يسكت أيضا.

سألها بعد ليلة إسمه، يا رامة؛ من جاء بإسمك؟.

قالت؛ هو اسمٌ أطلقه عين ذاك الفيلسوف الكحّال من جماعة اخوان الصفاعلى سفح لدينا هنا، أعلى الوادي الذي بإسمك، فيه كوة تكاد تكون غارا، كان يلتقي فيه مع تلامذته، واشارت إلى جهة السفح الذي يقطنه الغانديُّ. فأعاد عليها قصة الساقية ورواية الغانديّ.

فقالت له، أيا جيندار، قال لي أبي؛أنّ الكحّال هو من عبر الساقية ليلتها وعريان فيها، فقال له بضع كلمات، لانعرفها، جعلته يخرج وراءه عريانا. ثم التحق به يتدفأ في تلك الكوة التي بإسمي، حيث يقطن من تُسميه أنت بالغانديّ.

يا جيندار، قال لي أبي واشكُّ أحيانا انه من نسل كحّالة أخوان الصفا، فها هو يسافر سرّاً عن قريتنا في كل عام بعض عام، يحب أن يوزّع صوفيته بين الاديان، كما كان يحب الكحّال ان يوزع الكحل بين الاوطان.

قال لي أبي؛ ان هنالك لغز أيضا لإسم رامة، وأحب أن يكون اسمكِ لغزا . . فلطالما أحببتُ آية؛ "لم يكن له سميّا" .

يا جيندار، قيل انّ بعض اخوان الصفا حين أختفوا وتشردوا بين الامصار في جيلهم الثالث، كانوا يلتقون كل عام بسريّة على سفح أسموه بإسم تلّة رامة التي جمعت قيس وليلى بعد فراقهم الأكبر، فلقد شك قيس بوفاء ليلى حينها، واخوان الصفا هم خلان الوفا . مبدأهم الاول والاخير هو أن تقي لله وأن تقي للانسان.

وقيل أن يهودي من اخوان الصفا هو من اختار الاسم لانه كان اسم لسفح لجأ إليه النبيُّ داوود ورفيقه صموئيل هرباً من الملك شاؤول . . لقد مات رفيقه الوفي صموئيل هناك ودفنه فوقه، فبقي السفح واسمه مقدسا في الوفاء .

قيل أيضا أن مسيحي من اخوان الصفا اختار الأسم لأنّ يوسف الرامي الذي اخذ جسد يسوع ودفنه في قبره الجديد المنحوت في الصخر كان من قرى سفح رامة. ألامر محيّر ياجيندار، فالكل لديه رامة، حتى أنّ البلدة المعروفة بإسم رام الله اصل اسمها هو رامة الله، مرتفعة الله. بل قيل أنّ قيس وليلى أراميان من لغة رامة. وان قبر عيسى المجهول عند المسيحين كان على احد تلك السفوح من اسم رامة، يعرفه قساوسه الصفا قديما .

رفع رأسه إلى كحلها؛

يا رامة . . كلنا بلا أصل فكيف ستعرفنا القبور .

6

في احد لياليهما السبع، جلس جيندار عند النافذة قبالة الجبل، وجلست رامة قبالة قلبه. سفحٌ واحد يتحدث داخلهما . . يُردّد في داخله؛

محظوظ هو الذي يجد قلبا كاملا، محظوظ هو الذي يجد شفاها كاملة، محظوظ هو الذي يجد اسما كاملا.

عيونٌ جديرة بالعشق، فيلسوفٌ جدير بالحقيقة، جبلٌ جدير بالنبوة، حدثٌ جدير بتاريخ، كلمات جديرة بكتاب، قانون جدير بمسلة . . إنه الاستحقاق الوجودي للولادة.

سألته؛ ماذا فعل شمس تبريز، ماهي قصته؟ . . أجاب؛ قلبَ الرومي من عمامته الى رقصته.

يا رامة، هنالك ردد الرومي؛ (من لم يعرف الرقص لم يعرف الله) . ولكن أيضا؛ من لم يعرف الرومي لم يعرف الرقص. دعكِ من رقص الغجر.

دارت عيونه الى الشُبّاك، وكأن مصراعيه شفاهٌ تفتحان قُبلَة للجبل. . يا رامة؛

صحيح أن الشفاه هي زحمة الجلد، ولكن القُبلة هي زحمة التيه.

يا حافية الشفاه. . دائماً هنالك مسافات، الحكمةُ في لويها، القُبْلَة في طويها .

أتعرفين ما سر القُبْلَة، إنّها طويُ المسافات فحسب. أنْ لا تبقى الشفاه بعيدة، ان لا يبقى الوجود بعيدا .

يا رامة، هذا دعاء العاشق؛ إلهي، متى تختفي مسافات الشفاه. . متى تختفي مسافات القلب؟ .

هذا دعاء الفيلسوف؛ إلهي، متى تختفي مسافات الحقيقة؟ . متى تختفي مسافات العقل؟ .

نسي الفيلسوف ان الحقيقة في الشفاه، وان مسافات العقل في القلب.

هذا دعاء الثائر؛ إلهي، متى تنتهي مسافات الوطن.

هذا دعاء السجين؛ ألهي متى تختفي مسافات الشمس.

هذا دعاء القافلة؛ إلهي متى تنتهي مسافات الرمال.

يا رامة، كبيرٌ هو من تعبره الصحراء . كبير هو من تعبره الشفاه.

قالت رامة عن لحظتها تلك معه بعد سنين؛ مشيتُ وانا أُخفي دمي، أخشى ان يفضحني كأسي.

و حكى هو عن لحظتهم تلك للحافي؛ أضواء قليلة كانت تاخذ القمر لكتفها، ولكنها كثيرة تلك التي تأخذ شعرها لليل. . أشمُّ حزنها، كما أشمُّ عطرها، يبللني القدر كما المطر.

صعدتُ بعينيها . . أمرر عيوني عليها لتغدوا عيونا، لأن عيونها أصل العيون.

شعرت بروحها تقول لي؛ أضف عيونك لعيوني.

مشى بنا الليل، ومشينا نحن بالقمر. . لا يمكن ان تقيس حينها الوقت الا بالجمال، الوقت حركة شغاف لا حركة أميال، تكذب اجراس غرينتش كثيرا. . سلْ الثوار والعشاق، واسأل ليلتنا تلك.

. . حدّقتُ في عيونها، أُردّد في داخلي؛

آه، لفّي احلامي بضفائرك، لانها مسكينة بلا ليل.

إنكِ تعيدين الليل والنهار، تعيدين الشمس، تعيدين موتى السيخ من جديد.

غيّرت سفحي كي أرى شقّك، وغيّرت حبري كي أكْتب عشقك.

ثيّلت شمعي كي يقمرُ رسمك، وحفرت حرفي كي ينهرُ إسمك.

أحرقتُ كتبي كي أقرأ قلبَك، وكسرتُ قوسي كي اقبلَ صلبك.

ياحافي القلب، لم اعرف الله بكرامات الانبياء في انشقاق القمر، عرفته بانشقاق قلبي في الوتر.

. . لم اصدّق الله بالنبي الذي يُصْلَب، صدّقتُه بالجمال الذي يَصلِبُني.

7

بعد أن شُفيَ في لياليه السبع، وهو لا يخرجِ أبعد من باحة منزلها المنزوي على كتف الجبل. . قالت له؛ ابقَ هنا. دعنا نبقى في مسافة واحدة، نشجُرُ هنا في هذا السفح.

أجابها؛ يا رامة، تنتظرني مدن أخرى، تنتظرني مسافات أخرى، لي فيهاحروف. . الحروف لاتأتي في مدينة واحدة، فالابجدية مدن، لن تقول الكلمات حتى تمشي ضواحيها.

يا رامة، إننا نكتب على الصحراء بِنُوقِنا.

حكى للحافي وهو لا يلوم نفسه على ترك سفحها؛

دائما كنت اتورط بالهجرة الى طريق لطالما قلت فيه، لابد اني دست على قبر ولي أو طاغية. . الغريب اني دائما اعبر الحدود دون اوراق، وكأن القدر اراد لي انا الذي لا أَملكُ إلا الأوراق انْ افقدها عند اسوار الحكومات. . ينفع الامر في نحت قاعدة تُجدي كثيرا مع حفاة الأرصفة والأرغفة، وهي؛ آمن بنفسك حين تمنح الناس ما يسلبك السلاطين.

لقد نسيت يوما قرب نهر البصرة عيوني تتعذب ببريق كحل عربي ترسم به شطأنه قافية سمراء، عزّ علي ان اتركها فتركتُ عيوني هناك، علّ مياه الشَطّ تقذف بها لصياد تعب مجذافه فيه، فالأنهار مثلي هي الوحيدة التي تعبر الحدود دون اوراق.

يا حافي القلب، لدى الله؛ الكاهن المخمور بالسلطة تَحْرُم عليه الصلاة، ولكن الكاتب المخمور بالمال تَحرُم عليه الكتّابة.

سأله الحافي؛ عرّف لي القلم. . أجابه؛ أفضل ما أنتجته البشرية، ولكنه أيضا أفضل من خدعها . .هذا هو سرُّ (و ما يَسطرون) بعد قسم (نون والقلم) .

. . يا حافي القلب، قرأت في دفاتر الكحل أن والي البصرة حين أراد أن يُغري الكحّال قبل سجنه بأعوام بكتابة تاريخ آخر ينفع أجداده ولم يقبل، أوحَت الكتّابةُ له يومها بضعَ آيات ؛

اذبحوا النخيل، ولو في الظلّ حيارى

واشتهوا المحصّنات، وعطّلوا العذارى

وبِيعوا ألأنهار خمرا، وفي الشاطِئينَ دينٌ يُوارى

وتعالوا مع الفاتحين، دِكّوا أقمار طنجة أو أحلام بغداد أو ليالي بخارى.

ولكن، لا تقربوا الأقلام وأنتم سكارى.

يا حافي القلب تركت سفحها كي أُبقي لقلمي سفوحا . القلم لا يقبل من الجبل سفحا واحدا .

. . قبل ان تحل مسافات الفجر، مشت رامة معي الى اطراف الاودية قريبا من كوّة الغانديّ. . حين الوداع، أردت أن ابقي نجمة نلتقي بها ، فقلت لعيونها؛

الليل نهر، النجوم تعرف مائه، فاشربي الليل بالنجوم، واشربي القلب بالشغاف.

وقفت تُعيد أناملُها ما غيّرته الريح من مكان شَعرِها، مثلما تعيد الاشجار اغصانها . ثم ووقفت وفي شفاهُها كل المسافات، تُردّد لعيوني كلمات شاعر بعيد لا تعرف إسمه ولكنها تعرف حلمه؛

(. . امسك نجمةً بجيبك، ولا تدعها تنطفئ

.. امسكها ليوم ممطر.)

بقيت في مكاني ومشت هي راجعة.. كانت تمشي وتصادفها الريح، ولكن ليس صدفة، بل الريح تريدها.

ثم اختفت هي في الافق، وأختفيت انا في نفسي.

شعرَ جيندار بعد غياب أقدامها وبعد دهور من أنفاسه ان يدا تحرك كتفه، رفع رأسه، وجد صاحبه الغانديّفوق رأسه، وهو يلاحظ أن عيونا اخرى في جيندار غير التي رأها فيه حين التقاه قبل سبع ليال.

سأل جيندار؛ مابك؟... اجابه جيندارفقط؛ يا صاح، أمسيت عربيا وأصبحت كرديا.

مسافات البيازين..

(يتعلّق بثوبي ولا يتعلّق بي..)

.. النفري

1

عندما يحين موت الفارس يُسرّح حِصانه، لانه جزء من فروسيته، لا يقبل لأحد أنْ يركبه.
وعندما يحين موت الكاتب يكسر قلمه، لانه جزء من كلماته، لا يقبل لأحد أن يكتب به.
عندما يحين موت الكاهن تفضحه صلاتُه لأنها جزء من كذبته. وعندما يحين موت العاشق يُقتّله العشق، لانه جزء من موته.
هذا ماقاله جيندار للحافي كي يبعده عنه حين ألح على رفقته غداة لقائهما، فما زال جيندار لا يرغب بالبشرية ولا يريد وصالها.. قال له قبل ذلك؛
أُريد هدوءا فحسب.. دائما نجمةُ القمرِ وحدها، لا تقبلُ بغيرها جنبه.
ليس القصة أنّه حين يأتي الناسُ تَتَعبُ الحقيقة، القصة هي أنّ حقيقة الناس تُتْعِبُني.
بعد ديار رامة بمدن، كان جيندار قد وقف على أطراف مدينة تبني على هَدْمِها. لم يشعر فيها انّ الليل هو الليل ولا القمر هو القمر.. كان يقول دائما؛ المدينة علّمت الطبيعة أن تكذب.
لكم كان يحنُّ الى طريق المراعي. كان يقول؛ دروب المراعي دائما صحيحة، ومن يمشي بالناي تَصدُقْ دروبُه.

مرّ به رجلٌ تشكو المدينةُ عيونَهَ، لقد رأى فيها ما رأى، وجد جيندار يعطي وجهه للمدى. . كان هذا الرجل هو الحافي، وكان هذا لقائهما الأول.

سأله الحافي من على صهوة معبده، لان المدينة لم تُبقِ للقلب صهوة. . قال لجيندار:

– ماذا تفعل في اقصى المدينة؟ . . أجابه جيندار: أُصلي.

– أوَ تُصلي واقفا؟ ! . . أجابه: لا، ولكني أركع بقلبي.

– غريب !، من أي دين انت؟ ! . . أجابه: لي دين، ولكن ليس لي قوم.

– اذن تدّعي أنك نبيُّ دينك ! . . أجابه: لا، انا كحّاله.

– وما هو دين كحلك؟ . . أجابه: . . ليس الله، إنه الإنسان.

– هذا كفر. . أجابه جيندار: كفر يحبه الله، خير من ايمان يكرهه.

– هل ترعى الخراف؟ . . أجابه: لا، هي من ترعى بي. بقية الله حيوانه لا إنسانه، ماعاد الإنسان إنسانا.

لا إنسان في الصحراء ولا إنسانية في المدينة. . أنتبه، الارض تغور لا تدور.

– وكيف نعود لله؟ . . أجابه: اطردوا كهنتكم.

–انت تكفر كثيرا. . أجابه: وانتم لم تؤمنوا بعد.

–لكننا نصلي كثيرا. . أجابه: أجل، وتقتلون كثيرا.

هنا تساقط لسان الحافي كله، لأنّ قلبه شرب كل الكلام. وحين يتحدث القلب يتوقف اللسان. هكذا كان بوذا يجعل قلوب تلامذته تتحدث بصمت لسانهم أعواماً.

عاد جيندار لقلب الحافي:

إنْ رأيتِ قوما قَتْلُهم بعدد صلاتهم، فاعلم ان الشيطان من يصلّي بهم وليس الله.

يا صاح. . إذا رأيت نبيّا دون صحراء فاعلم ان مدينته كافرة.

رجع الحافي يلحُّ: اكتب لي صحراءك. . أجابه: نسيت رمالها.

الحافي: اكتب لي قلبك. . أجابه: وكيف أكتب من كتبني؟ !.

الحافي: عما يبحثُ تيُهك. . اجابه: التيه عينه.

الحافي: خذني معك لتيهك. . اجابه: بل خذ انت صحرائي معك.

يا صاح، عسير أن تعبر القلب.. هذا ما اراده زرادشت لا أن تعبر النار..
يا صاح، عسير أنْ تعبرَ السكر لا أن تعبر الصحراء.
ليس المهم أن تعبر الصحراء، ما يهمُّ أن تعبرك هي.
يا صاح.. شاعر هو من يعبر السكر دون كأس، فيلسوفٌ هو من يعبر الحقيقة دون كتاب، قديّس هو من يعبر النبوة دون وحي.
آه، كلنا بلا صحراء فكيف ستعرفنا ليلى؟.

2

لم ينفكّ الحافي يصرُّ على رفقته لمدة من الزمن يعبر به بعض ليلى كي يعرف بعض الصحراء فلقد ملّ المدينة.. وقتذاك شَرَطَ عليه جيندار شرطاً غريبا كي يرافقه أو يفارقه. وهو ان يجد مومساً تستحق اسمها، فيخدمها ليوم واحد جهاراً.. تفاجأ الحافي من طلبه، ولكن لا مناص فروحُه تصيح أنْ اتّبعْ هذا الكافر الغريب.

لاحظ جيندار حيرة الحافي ساعة ذاك. فقال له وكان يريد أن يهدم ركام الكهنة فيه؛

إسمك وقلبك، كلاهما في التُربة.. ذاتُك ويدك، كلاهما في اللعبة.. صنمك وكاهنك، كلاهما في الكعبة.

تاريخك وأجدادك، كلاهما في الكذبة.. الله ذهب بعيدا.

المشكلة ليس في القافلة، المشكلة في الطريق.. لدى الصحراء؛ ان يتيه طريقك غيره ان تتيه قافلتك.

كلنا تهنا ولكننا لم نكن نرى من تيهنا الا القافلة، ونسينا الطريق!. وان يكون طريقك بلا قافلة غيره ان تكون قافلتك بلا طريق.

قالت العرب؛ القافلة تمشي والكلاب تعوي، ولم يقولوا؛ القافلة تمشي والطريق يغوي.. لا تريد منهم الكلاب شيئًا، هي فقط تقول لهم احذروا إغواء الدروب.. هل من احد يجادل في انّ الكلاب هي الاعلم بالطرق من الإنسان على طول التاريخ؟.

أغمضَ جيندار عينيه للشمعة مثل أعمى يريد أن يشرب بعض الضوء في داخله، لأنه لم يأخذ الا الظلام من الناس. وقال للحافي؛

مما لا تعرفه الفلاسفة هو أنّ ديوجين الأعمى كان يكره قنديله، ليس لانّ الناس كانت تراه به وهو لم يكن به يراهم، وإنما لان الحقيقة لم تكن ترى بالقنديل شيئًا.

أه كان يشعله في النهار لا في الليل. هكذا يغدو الفيلسوف فيلسوفا، وهكذا تغدو الحقيقة جنونا.

المشكلة ليس في ديوجين وقنديله، المشكلة في البشرية وإنسانها.

يا صاح، لابد ان تَطْفُو الحقيقةُ على العيون، والا لكان الله يخدعنا.

المشكلة ليس في العيون، المشكلة في القلب.

يا صاح، الحقيقة ليست غبية، مشكلتها انها نقية. لا تحب الذكاء ولا تقول نفسها به، القلب وحده يُميّز عيونها. المشكلة في الإنسان انه أراد رؤيتها بعقله، فكان غبيا.

يا صاح، الغباء ليس كفرا، قبوله من يجعله كفرا.

يا صاح، لا أعلم كيف يقبل الإنسان كهنوتا يقول بأن الله يفرح بقتل إنسان نبيل لا ينتمي لمعبدك!، هنا الغباء كفر.

لا أعلم كيف يُصدّق الإنسان كهنوتا يُسمي سبي النساء شرع!، هنا الشرع كفر.

لا اعلم كيف يقبل الإنسان كهنوتا يسمي قتل اطفال الكفار جهاد!، هنا الجهاد كفر.

يا صاح.. لا تقل ما أدهى الكاهن، قل ما أحمق الناس.

لم تخطأ البشرية في الشراب فقط، أخطأت حتى في الكأس!!!.

البشرية الى سقوط، لا أشك في ذلك. ما أغبى دارون، فلم يكن اجدادنا قروداً تطورت الى بشرية، وأنما كانوا بشرية تدنّت الى قرود.

أتَعْلَم لما بدأنا نربي الحيوان؟، لانه غدا أكثر إنسانيةً من الإنسان.

الانسان خارج الإنسان.

هنا بدأ جيندار يحكي للحافي اشياءا من صحراء روحه، فلقد عرفت روحه كثيرا من الرمال التي لم يدسها احد.

يا حافي القلب؛

ركب نيتشه حمارا في السماء، متوجّها الى جنّة غاندي، وكان دائما يُزعجه هناك، فابعده

الله الى جنّة السماء الثالثة. . وصل له هو وحماره. لم يتفاجأ غاندي من مجيئه كل هذي المسافات ولكنه تفاجأ من ركوبه الحمار. . تمنى غاندي ان نيتشه قد تغيّر مزاجه الغَضِب ضد الإنسان، إذ لا يركب الحمار الا الهادئون، امثاله وامثال عيسى.

قال له نيتشه؛ يا غاندي، لما تنزعج مني كلما حدثتك عن الإنسان وحماقته؟ !. إيهٍ غاندي، كل شأني هو أني اعترض كالملائكة على الإنسان. فهل تلوم الملائكة أيضا ؟ !.

فرح غاندي في داخله ان نيتشه اصبح منطقيا في اعتراضاته، لعل ركوب الحمار أثّر عليه. . لكن لم يدم ذلك، لانه أضاف وهو يمسح على رأس حماره؛

يا غاندي، الإنسان كائن تكرهه الملائكة، الله عاندهم في خلقه. . من حق الحمير أن تعترض على خلقه، وليس الملائكة فقط !، فلم أجد يوما حميرا تتخاصم.

عفوا ياصديقي، نسيت، إني أيضا اعترض كالحمير عليه، فالحمير لا تقتل بعضها . . ما رأيك يا غاندي، لما لا اكون انا إبليسها ؟.

هنا ارتفعا حاجبا غاندي عن عينيه، لأنّ كلمة القتل توجع غاندي كثيرا، فعادت له مواجعه القديمة. . تذكّر حروب الهندوس والمسلمين.

حينها فكّ غاندي حبل ماعزه التي طلب من السماء ان تلتحق به من الارض، وقال لها اذهبي لحمار نيتشه، إنه يُعلّمكِ كثيراً.

3

بعد زمن من أقمار الجمر، وبعد كؤوس من سنوات الخمر، حكى الحافي عن جينداره لتلامذته الثلاثة وكان لا يقبل لهم رابعا، لان جيندار أخبره أنّ للرقم وجها كونيا، إنْ غيّر به القمر رقمه بين الشموس، تغيّرت قمريته. ولن ينظر له بعدها أحد من الشعراء. . كما كان تلامذة الكوفة في اربعينهم رقما كونيّا يعرف سرّه معلّم الكوفة.

حكى لهم أنّ جيندار عرف من دفاتر الكحل عند رامة أن "مصحف الكحل" للكحّال انتقل عبر العصور بسرية لم تعهدها الرسائل الاثنين والخمسين التي بيننا لإخوان الصفا . .

قال الكحّال لتلامذته عن مصحف الكحل؛ أنه رسالة في كحل الوجود، وُلِدتْ هذه الرسالة

في السجن فعليها أن تبقى سجينه. . لا تظهر للعلن، الا بعد الف سجن من سجني، وألف كحل من كحلها. حتى تعود وحتى اعود.

لم يكن تلامذته يفهمون كلماته تلك، كانوا يعرفون فقط أنه لم يكن يؤمن بالبشرية في أن تقرأ مادوّنه الكحل، كما كان اصحاب رسائل أخوان الصفا الذين احتاروا؛ إما أن يحرقوا اوراقهم أو أن يحرقوا اسمائهم. . لذا خرجت رسائلهم دون اسم مَنْ كَتَبَها.

لم يقبل يوما أن تتكثر وتُنسخ الا ثلاثة. دُفِنت الاصلية في البصرة عند قبر جلنار بعد زمن، لانها النسخة التي تحوي كحلها. قيل أن قبرها كان غرفة ذات قبة رمادية صغيرة على الشاطئ الشرقي لنهر البصرة الكبير. بناه الكحّال وعاونه بعض الزنج عليه، لانه قال لهم: إن سواد العين أحلى من بياضها.

يقال أن النسخة الثانية انتقلت لمصر واختفت نهاية ايام المستنصر بالله بعد صراع ابنيه نزار والمستعلي على العرش، وقيل أنّها احترقت في المكتبة الفاطمية التي حرقها صلاح الدين الايوبي حين دخوله مصر، بعد ان نَزَعَ جلد الكتب وجعلها احذية لجنوده. ويقال انها أُخفيت لدى اليهود القرائين الذي إنظم بعضهم لإخوان الصفا، بعد مقتل أبي حنيفة.

النسخة الثالثة توارثها جماعته المسمّون بكحالة اخوان الصفا، حين أنشقوا عن خلان الوفا بعد عدة دورات من الشمس من سنين القمر العربية التي ما زالت تتأخر عن سنوات الشمس وتخدعنا بأشهر تجلب لنا ربيع الاول في منتصف الشتاء.

يا صاح. .من لا يوحّد القمر بالشمس تضيع لياليه، ومن لا يوحد الكحل بالعيون تذوي اغانيه.

ما زال الحافي يحكي لتلامذته الثلاثة، فقال؛

أوقف جيندارُ يوماً صوتَ آذانه لاجل هندوسي هاجع، سرق جيندار يوما دكان غنيّ لاجل يتيم جائع، قطع جيندار يوما صلاته لأجل طفلٍ ضائع. أيام ذاك اعتبره الكهنة خارجا على اسم الاسلام.

حينها قال لهم حكمة اضفتها لأنجيله؛ كلنا بلا إسم، النعال فقط من يملك إسمه!.

. . خرجنا ونحن نشعر ان عيونهم تكفرنا. آه، كم كان الكفر جميلا حينها.

. . كنت حزينا عليه فحسب، فقال لي؛

أنْ يُسمّوك كافرا وترضع الحقيقة، خير لك من أنْ يُسمّوك مؤمنا وترضع كفرهم.

ما أسهل عليهم ان يصفوك كافرا، ولكن ما أصعب عليهم ان يكونوا مؤمنين.

ما أسهل عليهم ان يصفوك نجسا، ولكن ما أصعب عليهم ان يكونوا طاهرين.

. . يريدون ان يُخلّصوا العالم من الكفر، والله يريد ان يُخلّص الايمان منهم! .

عاد الحافي يروي للثلاثة؛

جمع جيندار يوما رفاتَ يهوديٍ عراقي في منفاه وعاد به لتراب صباه. وضع عليه زهرة كي تشمه الارض وتلمُّه من جديد في احضانها بلا أديان ولا أطيان. صلى عليه عراقيّا ودفنه عراقيا . . اخو الارض غير أخ المعبد، معبد الكاهن لا يمنح اخوّةً، إنه يقتلها .

التقى حينها في مقبرة اليهود شرق بغداد بيهودي اخفت عائلته ديانتها، كما عوائل قليلة أُخرى، حبّا بالوطن، لم يهتموا لحُبّ الدين.

قال لعيون هذا اليهودي والحسرة تهدُّه؛

. . الأُمة العربية كالأمة العبرية، لا ينفعها نبي ولا يغلبها شيطان.

و لكنه تذكّر بألم بقايا مسلمي الاندلس الموريسكيين كيف اخفوا دينهم وأسماءهم قرونا في غربتهم بين مسيحي الاندلس خوفا من الكنيسة. . لقد قال كهلٌ مسيحي في غرناطة بعد خمسة قرون من الموريسكيين وبعد أن رأى مسلما سائحا يتوضأ؛

قبل موت أمي في الطفولة كنت أراها هكذا تغسل أياديها سرا . آه هكذا كانت أيادي أمي تضيء طفولتي. إذن كانوا أهلي مسلمين يتخفون.

لقد عاد يقرأ تاريخ أجداد أُمّهِ الموريسكين وماذا فعلت الكنسية بهم، بما لا يكفي لاسبانيا أن تتوضأ منه يوما .

ترك الكنيسة لانها هي من عذبت أجداده، وهي التي جعلت امه تخاف ان يرى احد وضوءها .

كانت مسافات موريسكي حي البيازيين هي مسافات الاديان. مسيحيون في الشارع، مسلمون في البيت. . مسافات تغدوا الوثنية أفضل بكثير في مسافاتها .

لقد حاروا ايهما يتركوا؛ إسلام اجدادهم، ام أرض أجدادهم. . كان أجداد الموريسكيين من ربى اسبانيا لا من صحراء العرب. كما كان اجداد يهود العراق من رائحة دجلة لا من البحر الميت.

هنالك أراد ان يتخيل تلك الفتاة المسلمة التي طلب القس خمنيس من خادمه أن يعتّدي عليها . . هل ياترى كانت من جدّاته، كيف مشت ثورة البيازين حينها، كيف ابيدت، كيف أُحرِقَ مليون كتّاب لهم في ساحة الرملة. . الكتب أيضا تُباد ! .

. . لعن كهنة الاديان كلها . . لا يريد دينا، أراد وجه امه فحسب.

يا حافي القلب؛

يسموك مسيحيا وقلبك لقيصر ! . . يسموك مسلما وقلبك للطغاة ! .

يسموك مسيحيا وقدمك في الوحل ! . . يسموك مسلما وقدمك في القتل ! .

قال له، بعد نزاع على إسم ترابه؛

تخلّ عن دمك، فلقد شرب منهم كثيرا، وسموك عربيا ! . . قومك خمارة دماء.

أعد صلاتك، فلقد كانوا يُصلّون بك، وسموك مؤمنا ! . . قومك خمارة معبد .

قتلك اكثر من صلاتك، وقصرك اكبر من كعبتك، ولحيتك أهم من ضميرك. فماذا بقي من دينك ؟ .

اغسل دِمك فليس فيه غير حرابهم، وامحو تاريخك فليس فيه غير السلاطين، واكتبهم عراة فاننا أُمة عارية، لا يغطي فضيحتها نبيٌّ ولا ملاك.

نشّف جِواك، عُد فارغا من عقلك ودينك وإلهِك، هذا هو وضوءك. . إفْرغ تتوضأ، إنها نفس كلمته "افرغ تمتلئ" في عيون لاوتسه.

تعرّ تكن جديدا . . احيانا تتجدّد وانت تنزعَ ثوبَك، فكيف إنْ نزعتَ إسمك.

يا صاح. . قالت للثائر فتاتُه؛ سيقتلك إسمُك. وقالت للكوفيّ عجوزُه؛ سيقتُلك عدلك[1] . . عَرِفَ الصوفيُّ مانساه، وكان يعرف عليٌّ كوفاه.

---

(1) هذي الكلمة قالتها عجوز بعد ان رأت ابن ابي طالب في الكوفة وهو يقف مع ضعيف فقير ضد قوي غني. . وانا رأيت في كلمتها ما تتوقف فيه الفلسفات.

لكم كانت حروف العجوز حكيمة، ولكم كانت حروف الفتاة وسيمة.

ياصاح. . الحروف تحب من يمنحها وسامتها، والاشياء تحب من يمنحها حكمتها.

هكذا تعشق الكتابة حروفها، وهكذا تعشق الحكمة فيلسوفها.

يا صاح. . الفيلسوف هو من تعشقه الحكمة لا من يعشقها. هذا غباء ثلاثة الاف عام من الاسم، ونوم الف فليسلوف في الطين.

يا حافي القلب. . أحببت كثيرا قول الكحّال؛ أن تكون فيلسوفا هو أن تجعل الاشياء بكحل.

قال له بعد نزاع على إسم اقدامه؛ يا حافي القلب. .

لا تقل هذه قِبلَتي، لاتفرح. دُلّني على قدمك فأدُلّك على قِبلتك، دُلّني على قلبك فأدُلّك على اسمك.

يا صاح، رَفعَت فتاة كأسا تُريدُ ان تَسقط، كانت تواري شعرها. . دعك من حجابها، وراء عيونها إسم، لم يزل هو وشمُ قلبِها. . دعك من اسم وجهها. الاسماء ليست لوجوهنا.

يا صاح. . من أخطاء البشرية أنها تضع الاسماء للوجوه!.

النبي سمّى الإنسانَ على يده لا على وجهه، إن سَلِمَ الناس منها كان مسلما. ونحن نسميه على لحيته!.

الاسم يظهر في اليد وليس في الوجه، إنها قصة اليد والحقيقة، قصة اليد والاسماء.

من اياديه وليس من لحيته، منهجٌ سبق به الحكمة واسمها. إنها قصة الفلسفة والبداهة، لا بل قصة التاريخ والحماقة، فما زال العباسي هارون وهو الاقطاعي الأكبر في التاريخ تُلقّبُه أُمتُك العربية بالرشيد.

ياصاح، سألتني رامة؛ الرشيد بانيَ بغداد ام لص بغداد؟. . لم أجبها، قلت لها سَلي غيومَ همدان ستجيبك؛ كنتُ أينما ذهبتُ اخذني، واينما ذهبَ الفقيرُ بكاني.

يا صاح، بغداد لصّةُ مدن. . تسرقك حتى وإنْ بَنيتَها!.

4

في احد أيامهم الحافية، كان جيندار يقرأ كتابا، التقى فيه عاشقان بعد حروف ومدن.

قال لها حبيبها؛ لا تعنيني روما، بغداد لم تعد بغداد.. فقالت لحزنه؛ لا تعنيني الشفاه، القلب لم يعد قلباً.

حينها كَتَبَ جيندار فوق كتابهما؛ لا تعنيني المعابد، اللهُ لم يعد هو الله.

يرفع جيندار عيونه عن الكتاب إلى جهة الحافي؛

يا صاح..

يُريدون الدمَ أبيضاً!، لا يبقى حينها دماً.. يُريدون الدينَ حِراباً!، لا يبقى حينها ديناً. يُريدون الله قاتلا!، لا يبقى حينها هو الله.

أيها الحافي؛.. إنتبه الى الدماء إنّها ماء.

بعد دقائق سمعا شيخاً يَخْطُب في مسجد جوارهما؛ إنّ الله يأمركم أنْ تقتلوا من ليس على دينكم ومذهبكم.. اقتلوا من يُسفّه آلهتكم.

تذكّر جيندار حينها قريشاً، التفتَ للحافي؛

يا صاح.. إنتبه الى الله إنّه أبو سفيان.

ذهب للنافذة واغلقها. لا يطيق سماع الكهنة.

يا صاح.. الله تخلى عن الاديان، تركها للكهنة. جبريل تقاعَدَ عن جبريليته، ملّها كثيرا، لأنها تتزوّر بعد أيامه بقليل.

اللهُ يكتب الاسلام بيد جبريل، والمسلمون يكتبونه بيد الكاهن!.. إذن من حق جبريل ان يزعل.

يا صاح، اسمع هذي الاسطورة، وجمال العقل أنْ يُصدّق الاساطير، فقط عليه أن يقلب أبجديتها؛

(اجتمع الإله الصالح مرة بالإله الشرير على قمة جبل، فقال الصالح عِم صباحاً يا أخي!. فلم يرد عليه. فقال له الاله الصالح؛ يلوح لي أيها الزميل ان مزاجك متعكّر اليوم. فأجاب نعم، انا مستاء جداً لأن القوم في هذه المدة الاخيرة صاروا لا يميزون بيني وبينك، وكثيراً ما أسمعهم ينادوني بإسمك ولا أكره على نفسي منك ومن اسمك.. فقال له الصالح ان هذا هو

ما يحدث لي ايضاً في كل يوم أيها العزيز، فإنّ كثيرا من الناس ينادوني بإسمك ويحسبونني أباك. فمضى الاله الشرير حَنِقا، لاعناً حماقة الإنسان وجهله).

يا صاح؛ شاهد هذا الحدث قديس بشرّي حينما ملّ من الارض، ورواه لانسان ملّ من السماء..

حينها اختصر له السنبلة، فقال له؛ (ان الله الذي تُحِبُّه لن تجده في معبد قط، وأنّ اسمى الفضائل في هذا العالم ربما تكون أدناها في العالم الثاني)[1].

إذن في ختم النبوات؛ الله لم يَمُلّ من الانبياء، وانما ملّ من الناس، يجعلونه غيره.

يا صاح.. الله خارج الله.

يا صاح.. الله يرسل وجه نبيّه لتحرير العبيد، وهُم يرسلون إسمه لتكثير العبيد !.

.. يتعب النبي ويلهو الرشيد، فكيف يكون إلههما واحدا !؟.

المسلمون اليوم نبيُّهم الفقيه المقدّس الاشعري، وليس النبي الحافي البشري، نبيُّهم أبو سفيان وليس ابا ذر، صاحب الولاة وليس صاحب الزنج، ارسطو الاشقر وليس عليّا الاسمر.

يا صاح؛ لقد كان ارسطو قاسياً في خطيئة أوراقه، لانه عقّد الحقيقة بالمنطق، فعقّد ألفَي سنة من البشرية.

في السماء حدّق ارسطو بكتابه "المنطق" نادما، لكم تَزوّر به الناسَ.. وحدّق عليٌّ بالمسلمين متحسرا، لكم زوّروه.

تمنى ارسطو ان يُضيّع كتابه في الكوفة، وتمنّى جيندار ان يكون ضريح عليٍ في أثينا. فلقد ضيعته الكوفة، وهو من لمّ كوفيّة العرب على رؤوسهم.

---

(1) حينما تصل الروح اسمها تليق بها كل الأسماء. اسم الشمس واسم القمر، اسم البحر واسم النهر. ولكن ما يُنبت هذي الروح من الارض يكون أولى بأسمها. وقديس الارز في بشرّي لبنان كان حصة الارز في نبوتها مع الارض. فلكلِّ جزءٍ من الطبيعة نبوته تودعه في ابن لها، والارز أودع نبوته في هذا القديس. ولكلِّ جزءٍ من الطبيعة سره، لكل حيوان فيها سره، لكل شجرة منها سرها،. تمنحه لاحد ينبت جوارها. ينتهي فيه كل تعتيق خمرها على مر الدهور.. والارز تزاوج كثيرا وسكر كثيرا فكانت عصارته هذا القديس جبران.

ولكن جيندار رجع يتحسر؛ وهل ستفهم أثينا عليّاً ؟ . . أشُكُّ في ذلك.

ويعود المعبد لا يعرف مجذافه. . هذه قصته مُذ تَرَفَ المصلي، وهذا تاريخه مذ نَزَفَ الله.

ويعود القلب لا يعرف شغافه. . هذي مشكلته مذ ضحك الجسد، وهذا شأن المدينة مذ نزف العشق.

ماذا يفعل الله أكثر. . علم آدمَ اسمَه، وعلم الطينَ حلمَه.

ماذا يفعل العشق أكثر. . علم القلبَ وَشْمَه، وعلم الشغافَ لحمَه.

فنزف الاسمُ في الحلم، وضحك اللحمُ على الشغاف.

ماذا يفعل الله أكثر، يُرسل محمدا ويتّبعون السلطان. . يرسل عيسى ويتبعون قيصر. .

أيها الحافي.

انْ يُزيّفَ كتابك، غيره انْ يُزيّفَ معلمك.

أنْ يُزيّفَ معبدك، غيره أنْ يُزيّفَ إلهك.

هنا رَفَعَ جيندار قلبه، وردّد دُعاءا يُحبه؛

. . (الحمد لله الذي عرفناه، فلا يخدعنا بإسمه سواه).

5

في يوم جنوبي أَنْشَدَتْ للكحّال سمراءُ بحسرة؛

وتلعبُ الايامً بالمجاذيف. . فلا يدٌّ لجلجامش في الماء تَغْرُف، ولا قصبة ريف[1].

أنشدت له ذلك، حين وجدها حزينة لأنه لم يبقَ فارسٌ يليق بعيونها، كما كان كحله وحده يليق بها. .

---

(1) حينما أراد كلكامش ان يعبر المسطحات المائية في جنوب العراق إلى جزيرة ثمرة الخلود بزورق يشبه جندول مدينة البندقية اليوم، أُشتُرِطَ عليه أنْ لايستخدم مجذافاً للغرف، إلا حزمة من قصب الاهوار، يدفع بالواحدة منها الزورق مرة واحدة ويلقيها في الهور، دون ان يستخدمها مرة ثانية، على أن تكفيه تلك الرزمة للوصول إلى شاطئ الجزيرة.

كانت ممن تشتري كحله بكحل بات في عيونها، لقد أدمنت كحله، وأصبحت تنتظر دائما عودته بعد أن يلّف القرى، وتحفظ له في قنانيها كل الكحل الذي يبيت في عيونها .

كان يحير بعيونها في وسعها وكثافة حواجبها وبطول رموشها واسترخاءها، وأن كحله يشتاق أنْ يركض لعيونها أكثر من الاخريات، ولطالما يشتاق كحل لعين. كان يشعر منذ أنْ باعها أول مرة أنها جينة من الزمن القديم نبتت من جديد في هذه الارض.

. . بعد أن أنشدت له، سألها؛

أأنتِ سومرية؟ . . أجابته؛ ذلك طينٌ قديم، لن نَمْلِكَ حلمه بعد .

سألته، وكانت تحير بنوع كحله وسحره فتتوقعه خيميائيا من دين آخر؛

أأنتَ مسلم؟ . . أجابها؛ ذلك وجه عظيم، لن نملك اسمه بعد .

أصبح مذ ذاك يُسمّيها بالسومرية، وقال لها؛

بين الاسم والحلم، بين المجرّد والمجسّد، ليس مسافة لحم وانما مسافة حقيقة. . بين البطولة والبطل، بين الحزن والحزين، بين الحب والحبيب، بين الجمال والجميل، بين المؤمن والايمان، ليست مسافة وجه وانما مسافة طريق.

بين المسيحي والمسيحية، بين المسلم والاسلام. . بين الله والكاهن مسافة، كل الاقدام فيها مزوّرة.

حين دوّن جيندار ذلك في إنجيله، عاد يُدوّن عن تلك الايام الجبلية لهمدان، وقَولُ رامة في ليلتهما الثالثة؛ أيا جيندار . .

عليك أن تجد اسم الله قبل ان يملّ الله من اسمك. عليك ان تجد الليل قبل ان تمل منك الشمس. عليك ان تجد الشجر قبل أن يمل منك الظل.

سألَتْهُ؛ ما أخبار قلبك، أجابها جيندار؛ ما زال بلا إسم، لا ينفعني إسم وجهي.

ساعة ذاك اعطته اسم جيندار وليس قبلها، بعد أن رأت مسافة من حزن القمر على وجهه، ومسافة من إخوان الصفا على سره، ومسافة من كحل عيونها على كلماته.

حينها، مسك جيندار إسمه. . لكنه قال عن ذلك مرة؛ اسمي من مسكتني.

قالت له؛ خذ اسم جيندار لأنك مسافاته. أن لم تبدأ به بدأتك الشريعة، إن لم تسمع به اصمّتك الحقيقة. . هوايتي أنني ابيع الاسماء، وهواية الكحّال أن يبيع الكحل.

لم يسمع جيندار بتلك المهنة قبلها . . لكنه عرفَ لاحقا أن اخوان الصفا يجيدونها .

قال لها؛ انا عربي لن يفهموه . . قالت؛ فهل فهموا حلمك حتى يفهموا اسمك؟ .

رَكَنَ جيندار لآخِرِ اسم بقي عربيا في كتاب، فانوسه الاندلسي يحمل اسم فتاة لا تغني الا ليله. تردّد قليلا على فراقَه، ولكنه كان يعرف أن الفانوس لم يعد اندلسيا وانّ الليل لم يعد لِلَيلى.

رجعت رامة تقول له؛ سمّيتك بمسافات كحلي، فاعرف معنى اسمك. . سأفرّق آخر حروفي، إن لم تجد حروفه.

احتار جيندار، هل اسمه هو مسافات العيون أم مسافات الطريق أم مسافات الحقيقة . . ما قصة الكحل واسمه؟ .

سألته؛ . . هل عرفتني من كحلي ام من عيوني؟ .

اجابها؛ ولكنهما واحدا، كحلك هي عيونك، وعيونك هي كحلك .

أتعلمين يا رامة، لطالما ظننت في الصبا أنّ عيونَ جارتي خلقها الله كحيلة، لما كنت أراه من شدة توحدهما، وحينما كبرت وعرفت أنه كحل ليس الا، أيقنتُ أنّ لدي في عروقي دمٌ يستطيع أنْ يعرف زورَ العيون من الكحل، كما لدي قلب يعرف زورَ الكاهن من الدماء .

إلتفتَ بعيون أكبر للشمعة النائمة، وأكمل كلماته؛ أيضا يارامة أعرف زورَ الليل من الشموع.

آه، ليس في الطبيعة من يتوحد بالعيون كالكحل، وليس في الحرب من يجرح الله كالطفل.

يا رامة. . أخطأ من قال أنّ الليل بلا قمر، بل القمر ما زال بلا ليل. المدينة زوّرته بمصابيحها . . . الحقيقة تكره المصابيح.

أهل الصحراء وحدهم يعرفون القمر، التائهون وحدهم يعرفون الله.

أطفِئوا المصابيح إنّها تُزّوِر القمر، أطفِئوا الكاهن إنه يُزوّر الله.

6

سأل جيندارُ الحافيَ بعد أيام من لقائهما؛ هل وجدت مومسا تستحق اسمها لتخدمها .

اجابه أجل خدمت البارحة مومسا في الحي وبقيت امام دارها نهارا كاملا أُلبي ما تطلب لها ولأطفالها، والناس متعجّبة مني. ولكنه شرطك الذي لا أُفهم سينه من شينه.

طلب منه جيندار ان يحكي له عنها، فعرف انها ذات يوم كانت قد اخرجت من السجن جارها المسكين بعد ان اعطت جسدها للقاضي.. حينها قال له جيندار؛ انك لم تؤدي الشرط.. انتبه الى القاضي إنه مومس. هو من يستحق اسمها لا هي.

انزعج الحافي حائرا، فهذا الشرط ينهكه، ما هذه اللعبة القاسية، بدأ يعتقد أنه سيخدم الكثيرات حتى يحضى بصاحبة الشرط.. قال في نفسه؛ كأنّي سأتعب كثيرا كي أتعلم من جيندار، كما تعب موسى مع الخضر.

نظر جيندار لعيونه مدركا حيرته؛

يا صاح.. أغمِضْ عينيك أو افتحهُما، سيّان، لانك سترى الحقيقة. ليس المهم أنّ قلبك يرى، كما يلح المتصوفة. بل المهم أنْ ترى أنت قلبك.

يا صاح.. قال حكيم قرب مسجدٍ لرجل طاعن في السن حيّرتُهُ إمرأة تنتظر خروج المصلين كي تسقيهم ماءا في حرّ البصرة، ولكنها لا تصلي.

إنتبه، فالندى يصنعه القمر لا النهر، والدموع يصنعها القلب لا العيون.

عاد يردّد له على سِنين شَيبه، وعلى حِيرة عَيبه؛ لا تحر ياعم، فلدى الله ساقي الماء خير من ساقي الصلاة.

لا تحر، فلقد صلّى الماءُ بيَديها أكثر مما صلّى الركوع بأرجلهم.

ياحافي القلب، في أول الخلق، الله (علّم آدم الاسماء كلها)؟. وفي أول النبوة، جبريل قال للنبي (إقرأ باسم ربك)؟. كان النبي يريد فقط الاشياء بأسمائها، بعيدا عن قاموس قريش، فالقراءة هنا ليس نوع من تفهُّم الحروف، وانما نوع من تفهُّم الحقيقة.

يا صاح.. على الحب ان ينسى اسمه، على الوجود ان ينسى اسمه، على كل شيء ان ينسى اسمه.. مومس، مُصلّي، مجاهد، زوجة، معبد، حرام، شرعي، خير، شر.. الاسماء تحكم الوجود.

لن تعرف المرأة حتى تتخلى عن جسدها، ولن تعرف الدين حتى تتخلى عن كهنته، ولن تعرف الحقيقة حتى تتخلى عن أسماءها.

بالاسماء يتيه الكذب.. بالاسماء تحكمنا الشريعة، بالاسماء تعبرنا الخديعة. فالتاريخ مؤامرة وقحة على الاسماء، كما الكهنوت مؤامرة وقحة على الله.

متى غدت الكلمة اسما أُخِذت رقّا، لدى الحاكم والمثقف والكاهن، ولن تُعتق حتى يُنزعُ عنها الاسم. إنها تصرخُ تريد أصلها، كما الجارية تريد أهلها..

الاسماء تريد اسماءها، كما الموتى يُريدون قبورهم. إنه حزن يسوع في (اتّبعوني، ودعوا الموتى يدفنون موتاهم).

يا صاح.. المعلمون أذلوا أسمهم، كما المسلمون أذلوا إسلامهم.. الاسماء ذُلّت، فامشِ بلا إسم، إمشِ بلا فرقة.

لدى الله، ليس المشكلة في الحجاب ولا في العهر.. المشكلة أنْ يُغطى العهرَ بالحجاب.

ليس المشكلة ان تجد نفسك لصّاً تسجد خلف فقيه. المشكلة ان تجد نفسك فقيها تسجد للص.

وقف جيندار يُريدُ أنْ يقترب من الليل عند النافذة..

الشمعة لها عيون، كما العشق، كما القمر.. يؤمن جيندار بذلك كثيرا. التفتَ وكأن الشمعة تلتفت معه، بل كأن الليل يلتفت معه.

الغرفة ذات الغرفة، ولكن الشمعة غير الشمعة، واليوم غير اليوم.

أيها الحافي؛ في احد الأيام وأنا أفلحُ الحياة التقيتُ بفلّاحٍ ممتعض من الاديان، وقد بقي يسميني جنيدار لا جيندار بدعوى أن النون أقرب الى الجيم من الياء في لسانه. قال لي؛

أقطعُ في قلبي.. أمسى لدى الله بناء الحانات خير من بناء المعابد، فالمعابد تُعلّمنا قتل بعضنا، والحانات تُعلّمنا رقص بعضنا.

.. احمق من يظن ان المعابد تعلمنا الصلاة، إنها تعلمنا القتل فحسب.

رفع عيونه اكثر لي، قال: لابأس نحن سكارى خمر ولكنهم سكارى دم.

لقد تركت ديني داخل المعبد وليس داخل الحانة، مع المصلي وليس مع الساقي، مع المتدين وليس مع الملحد.

رجع الفلاح يقول بألم.

ياجنيدار.. أكره المأذنة، لانها تخدع كثيرا، فمن يهتف الله اكبر هو عينه من أوهنه.

لم يكفر بالدين أحد قدر المتدينين، ولم يكفر بالله احدٌ قدر كهنته.. لم يغتل الدين يوما اعداؤُه مُذ كان، الدين يغتاله ابناؤه إلى أن يكون.

يا للعجب.. الله مزوّر في المعبد وليس في الماخور، الله تشوّهَ بالمتدينين لا بالماجنين.

.. الملحد ينكر الله، ولكن الكاهن يُشوّه الله.

.. الملحد يُمزّق كتاب الله، ولكن الكاهن يُمزّق الله.

رفع محراثه على كتفه مبتعدا مني، يريد ان يفتح ساقيةً لأرضه، يمشي ويغني فوق ترابه..

.. يابائع الطين، بِع لنا جِنّة.

.. يافاتح النار، افتح لنا الجنّة.

آه يا حافي القلب، لكم كانت الارض طَرِبَةً تحت قدميه.

7

بدأ يحكي للحافي طرسا أصفرا من احلام التراث؛

ياحافي القلب، الحكيم المجنون أبو الشمقمق يجلس في منتصف جسر الرصافة ببغداد أيام دالها[1]، يأكل بين المارّة.. يمرُّ عليه فقيهٌ بغدادي ممتعضا، خاطَبه؛ كيف تجرأتَ يا أبا الشمقمق ان تأكل في وسط الشارع والمؤمنون يمرّوُن بك. إخجلْ من نفسك قليلا.

رد عليه أبو الشمقمق؛ لا أرى مؤمنين يا شيخ.. انا لوحدي على الجسر.

الفقيه؛ يُحدّق به أكثر، ويتأفف من عناده وجدله.

ابو الشمقمق؛.. ألا تصدّقني!؟.. انظر إذن.

صعد الى حافة الجسر ونادى بأعلى صوته؛ ايها الناس، هلمّوا، لقد روي عن النبي أنه قال من اخرج لسانه وأوصله الى أرنبة أنفه كان من أهل الجنة.. الكل سارع باخراج لسانه، منظرٌ

(1) للحروف سرها في الاسماء، وللاسماء سرها مع المدن والشخصيات والانهار والجبال التي يعرف الوجود مسبقا أنها سترسمه.. ودالُ بغداد كانت غير كل دال.

تجد فيه الألسن تتصارع كي تصل للأرنبة، ولكن دون جدوى.

التفت أبو الشمقمق الى الفقيه بزهو؛ هل هؤلاء هم المؤمنون؟ !.. تعال لنأكل سوية.

ذهب الفقيه غضِبا، وعاد أبو الشمقمق لجلوسه وسط الجسر، وهو يأكل ويردد؛

تعسا لأمة تأكل أسمائها.. تعسا لفقيه يأكل بإسمه.

تسرّب بعض الجسر في الحافي بعد عبور هذي الحكاية.. رفع جيندار يده للاعلى يلامس حواف الشمعة، وكأنه في قصة مع الشمعة، لطالما حيّرت من رآها قربه.

قال له؛ ردمك حَفْرُ، صحوكَ سُكْرَ، تدينك كُفْرُ.. فماذا بقي من اسمك؟.

ياصاح.. المسيحيُّون يظنون انفسهم مسيحيين حقا!، بينما ليس لهذا الاسم الا من مسحَ على قلبه بانسانيته، لا من مسح على الصليب بإلوهيته.

ياصاح.. المسلمون يظنون مسجدهم مسلما، بينما ليس لهذا الاسم الا معبدا يلمُّ كل المعابد.. يجمع كل الناس، متدينين ووثنين، يجمع كل المخطئين وكل الجياع، كل النواقيس وكل التماثيل. يُصلّي فيه البوذي والمسيحي واليهودي والتائه والسائح.. الصالح والطالح، الغانية والحانية، الثائر والحائر.

ياصاح.. مضحك جدا ان نبحث عن الله لدى المؤمن فنجده لدى الكافر!.

غريب جدا ان نبحث عن الله في يثرب فنجده في الحبشة!.. ان نبحث عن محمد عند المسلمين فنجده عند البوذيين!.

اتكأ على ضوء الشمعة في حائطه، وكأنه يتكأ على قلبه كي تتكئ الكلمات عليه.

ايها الحافي.. عندما نصرَ اللهُ الملحدينِ على الدينيين في التاريخ احتار الكهنة، فانصاعوا برفض لِكلمات؛ "يدوم كفرٌ بعدل ولا يدوم إيمانٌ بظلم" و" أن الله ينصر الامة الكافرة بعدلها، ويهزم الأُمّة المؤمنة بظلمها". ولكن القصة ليست حتى في الظلم والعدل، القصة هي؛

أنّ كفرُ العادلينَ إيمانُ.

لقد ردد سيد الشطح؛ (كُفرُ اهلِ الهِمّه أسلمُ من إيمانِ اهل المِنّة).. أبدا لم يشطح البسطامي بهذا، عقولهم هي من تشطح حين تدخل جبته.

يا صاح.. كفر الأخيار إيمانُ وإيمان الأشرار كفرُ..

هنا يبدأ الأس البعيد للدين، وهنا تنتهي مسافاته، هنا أضع تعريفا ثانيا للوجودية كما للدين؛ هو أنْ تعرف مسافات الوجود لا مسافات الغيب.

الدين لدى الله هو أنْ تَذهب لخير الناس لا أنْ تَذهب لمعبد الكاهن.. الدين ليس أنْ تصوم لله، الدين أنْ لا تقتُلَ الناس.. الدين هو الارض وليس السماء.

يا حافي القلب.. لا يهمُّ اللهُ أنْ توحّدَه، ما يهمُّه هو أن لا تجعله سفاحا.. لقد جعلوه يأمرُ بقتل أهل الحانات والخانات. يأمر بالسبي والقتل!. لو كان الله هكذا لَعَبَدَهُ إبليس من جديد.

يا صاح.. لم يقل النبي (من بدّل دينه فاقتلوه)، بل قال فاقبلوه. ولكنهم قلبوا الباء تاءاً، لان تاءَ تاريخهم لا تقبل باءَ النبوة.

يا صاح.. مشكلة البشرية انها تقيس الله بالكاهن!، والدين بالصلاة!، والخير بالفقه!.

.. الله اكبر من أنْ يُقاس بالكهنة، والنبي أكبر من أن يُقاس بالمصلين.

يا حافي القلب.. الشرك هو ان تجعل الله والفقيه شريكان في الدين.

ليس الشرك هو أن تجعل بينك وبين الله إلها، الشرك هو انْ تجعل بينك وبينه كاهنا.

مشكلتنا اننا نلجأ الى الله برجل الدين، مع انه على رجل الدين ان يلجأ الى الله بنا.

إنها البشرية دائما تخيط ثوبها بالمقلوب.. يا للحسرة؛ كعبة الله الناس، وكعبة الناس اللحى!.

.. يريدوننا ان نحمل اسماء الكهنة، فأين نذهب بأسماء الله!؟.

ماذا يفعل الله اكثر.

علَّم آدمَ إسمه، وعلّم الطينَ حلمه.

فلم يبق، لا الاسم ولا الحلم.

مسافات الناي

(خُذْنِي معك أيُّها البحّار، لا أُريدُ أنْ أمضيَ حياتي في الكذب...)

. . أغنية خلف الناي

1

الخراف مع الناي غيرُها بلا ناي، الشفاه مع العشق غيرُها بدونه.

ولّى زمنُ الناي. . وراعٍ لا تنتظر منه نايا، عليك ان تنتظر منه ذئبا . .

ولّى زمن العشق. . وعشقٌ لا تنتظرُ منه جنونا، عليك ان تنتظر منه مُجونا.

كانت النعاج تشبعُ كثيرا من الناي قبل أنْ تُقْصَب، لذا كان لذيذا لحمُها . . كانت الشفاه تشبع كثيرا من العشق قبل ان تُشْرَب، لذا كان لذيذا لثمُها.

حينما تكون الاغنية بلا ناي فلا تُصدّقها، وحينما يكون المعبد بلا خير فلا تُصلّيه.

ليس الامر انه لم تولد الحضارة الا حين ولِدت الكتابة، الامر هو أنه لم تظهر الكتابة الا حين ظهر القلب.

أراد الإنسان ان يبكي بأكثر من العيون فأنشأ الكتابة، وأراد الإنسان ان يبكي بأكثر من القلب فأنجب الناي.

سمعتُ كلمات لموسيقي مكسور، فأوحت لي كلمات مكسورة؛

في التاريخ، الله ليس هو الاديان، بل الانكسارات بينها. القبلة ليس الشفاه، بل الانفاس بينها. الناي ليس الاغنيات، بل الأنين بينها.

إنها المسافات، بين حرف وحرف تجد كل الكتاب، وبين قدم وقدم تجد كل الصحراء، وبين رمش ورمش تجد كل العشق. . آه، ولكن بين نبي ونبي تجد كل الكهنة.

هذا ماقرأه الحافي على تلامذته الثلاثة من إنجيل جيندار بعد زمن بلا ناي وبلا جيندار. . ثم روى لهم؛

دخلنا يوما أنا وجيندار مدينة شقراء.

المعابدُ فيها تُزاحِمُ الطريقَ كما تُزاحم اللهَ. تمرُّ عليك المآذن والنواقيس قبل ان تمر أنت عليها. . المسلمون يمشون كثيرا، المسيحيون يُحدّقون قليلا. اليهود تسدّلوا، المسيحيون تمهّلوا. . هذا يغتال القمر وذاك يغتال النهر، فتعثّرت الطبيعة بالطبيعة.

يقفُ جيندار يُمسكُ صدرَه بيدين، يَجِدُ فيه قلبا واحدا. . إذن لِمَ الاديان كثيرة؟!!!.

قال لي؛ يا حافي القلب، الله واحد ومحاريبه ألف!.

يموت موسى وعيسى ومحمد في وجه واحد، ورجال دينهم يعيشون بألف وجه!.

كلمة واحدة بين الانبياء والسماء جعلوها ألفاً!. . كيف؟، وليس هنالك غير جبريل واحد!.

إيهٍ، ما تُوحّده الصحراء تُفرّقه المدن، ومايكتبه الانبياء يُزوّرُه الكهنة. . . التيهُ مدنيٌ، أخطأَ من قال انه للرمال. المدينة من تجعلك تتيه لا الصحراء.

المشكلة ان الاجيال لا تحرق كتب الانبياء، هي تزوّرها فحسب. كان أهون بكثير لو حرقتها.

ليس هناك دين حقيقي سالم في الارض، ليس هنالك الله حقيقي سالمٌ في السماء. هنالك كاهن حقيقي فقط سالم في الكذب.

يا صاح. . الكنيسة والمسجد عدوان، غريبٌ!، هل يُعادي عيسى محمدا؟!. . عينُ جبريل نزل عليهما، ولا أظن جبريل يخطأ في أهل الله.

غريب!. هل يقول جبريل لعيسى غير ما يقوله لمحمد!. هذا أهم دليل بَدَهي في خطأ المسلمين والمسيحين اليوم، وأنهما خلاف عيسى ومحمد.

يا صاح. . عليك ان تشك بأحدهما، كاهنك أو نبيّك. . فهل تشكُّ بنبي وتصدّق كاهنك ومذهبك وحزبك!؟.

المؤمن تابع للكاهن وليس للنبي. . هذه هي الحقيقة المفجعة لكل المؤمنين.
لقد اعتدنا أنْ نكتب حواشيَ لكهنتنا فوق أنبيائِنا. وهكذا، فقدنا إلهنا حين تكهّنا أكْثر من الكاهن.
مشكلة البشرية أنها ادمنت السكر بكأس الكاهن، لذا لم تصحو في دينها.
يا صاح. . لن تعود البشرية الى إنسانيتها حتى تتخلى عن كهنتها، لتبقى هي والله في العراء، هي والاشجار في العراء، هي والشراع في الريح. . الله مكروه بالكاهن، أهل الطبيعة لا يكرهون الله.
يا صاح. . فوضى الله، ليس ان تقسم الله إلى عبراني ونصراني ومسلم وصابئي. وانما أنْ تقسّم الإنسان الى ذلك.
بالامس كان للناس إلهٌ واحد بكل الروح، واليوم فيهم ألفُ إله بلا روح!.
عيسى دون كنيسة ومحمد دون مسجد، كلاهما سقط منها منذ ان بُنيا بجوع الناس ودمهم.
ناقوس الكنيسة لا يعرف عيسى كما الماذنة لا تشعر بمحمد.
عيسى لمحمد لا شك في ذلك دائما، بينما المسجد ليس لمحمد دائما، كما الكنيسة ليست لعيسى. كثيرا ما كانا عدويهما!. . فلكثرما المعابدُ تحاربُ الانبياء.
لطالما اوصى محمد بشراب عيسى، بينما اعتبر المسلمون الكأس نجسه!. ولطالما انتظر عيسى صدر محمد، بينما انتظرت الصلبان طعنه!.
رفع عيونه للمعابد أمامه.
عذرا يا يسوع، ليس لك مسجد يُؤذّن أنّ عيسى نبيُّ الله. . عذرا يا محمد، ليس لك كنيسة ترجف نواقيسها لك.
الصليب نُحِتَ للحراب، والغار مُلِئَ بالغراب. .آه، أينَ حمامتك يامحمد؟، من شرّدها؟.
. . عيسى يكسر صليبه، ومحمد يغلق غاره. . تَعِبا من أُمَمِهما.
مشيا مُتضجّرينَ من أُمَمِهم. ما أحلى مشية الانبياء، إنها لا تدوس شيئا. تُنبت القلب أينما حلّت.
. . آه، وحدهم الانبياء يزرعون بأقدامهم.

2

ذهبا لركن من المدينة فيه تاريخها . انتبها لمسجد قديم عليه رموز من حقبة قديمة، تتداخل فيها اسرار ورموز من أديان عدة. فأوقفهم هذا المعبد كثيرا . لانه لا يعرف حقبة من الدول الاسلامية فيها توحد للاديان هكذا . . اذن لابد إنها جماعة دينية سرّية بنت هذا المسجد وتركت له كلماتها رموزا كي لا ينتبه لها احد .

قال له جيندار؛ عرفتُ من مدوّنات الكحّالة أو ماكانت تسمّيهن رامة بدفاتر الكحل أن أخوان الصفا اختاروا اسم الأخ كي يوحدوا جميع الاديان بمبدأ الأخوّة، لمبدأ أن الكل أبناء الله. لقد فهم إخوان الصفا أول يثرب وأول الدين.

الله هو الاب. لقد اولدنا الله من روحه قبل ان يولدنا آباءنا من نطفهم. هذا كان علم كلامهم الاول . .

يا صاح. . أخال أنّ المسيحي الأول الذي قال بإسم الاب والابن وروح القدس. لم يكن يُثلّث المسيح وانما كان يثلث الوجود؛ الله والانسان والروح المنبثّة بينهما . ولكن القساوسه زوّروه.

لم يقبلوا اخوان الصفا اسم إخوان الاسلام، لمبدأ أنه اسم لا يجعل من المسيحي أو اليهودي أخاً . . ارادوا اسما يريد كل الانبياء لا اسما تريده كل الكهنة.

اجتمعوا في الكوفة من كل الاعراق والاديان، قبل أن تلتم عليهم البصرة. . قيل أن جابر بن حيان بعد مقتل معلّم الكوفة وابي حنيفة قال لبعض الاربعين تلميذا من المعتزلة؛ اذهبوا للبصرة، لأن الكوفة لا تقبل كل الطرق كما تقبلها البصرة، مدينة البحر ليس كمدينة الصحراء . كانت الكوفة حوافر خيل وأسنّة، وكانت البصرة زوارق أعراق وأجنّة.

ايا حافي القلب، ألم تتسائل أين ذهب باقي التلامذة الاربعون لمعلّم الكوفة؟ . لماذابقوا سرا في التاريخ لا يعرفهم احد ؟، يعرفون عددهم فحسب. . لقد بقوا سرا لأنهم اصبحوا اخوان الصفا، ولن تكون من رفاق الصفا حتى تكون رفيقا للسر.

يا صاح، بقية المعتزلة الأربعين هم أنفسهم أخوان الصفا . . هنا كل القصة.

صُلب ابن المقفع وهو صغير، ومات جابر في السجن وهو كبير. وحده بن عطاء لم يمت سجينا أو مصلوبا بينما هو وحده من سُجِنَ الاعتزال في اسمه.. غريب أمر التاريخ!.

كاد أنْ يُعمّر جابر قرنا، وما تراه في القرون من خيانات غيره ما تراه منها في سنوات.. إنه بقية الاعتزال وبقية السجن.

في الكوفة كان أولاد المسلم والنصراني والصابئي واليهودي والمجوسي يلتقون في مسجدها يناقشون مع معلّمها فكرة الاخوة سرّاً، وكانت الشام وكهنتها تناقش فكرة الموالي والذمي واستعبادهم علنا.

كان من تبقّى من اخوان الصفا يجتمعون في ناحية النواويس شمال غرب الكوفة وهي قبور قديمة لمسيحين نبذتهم الكنيسة. تقول الاسطورة انهم اختاروا هذه الناحية حينما كانوا يجولون في الارض هربا من الكنيسة، فمرّوا بها، ورأى نجّار منهم في المنام أنْ هاهنا سيخرج مُنقِذ على روح عيسى، فاختاروا المقام فيها وبقوا ينتظرونه شوقا. كانوا يحفرون قبورا في الصخر تحفظ ما يودع فيها من أجساد، تسمى في لغتهم بالنواويس، اعتقادا منهم أنّ سيُبعثون مع المنقذ في هذي الارض.

قيل أن الكثير من أسرار أخوان الصفا ما زالت مخفية ليوم الناس هذا في تلك النواويس.. يقال أن ابن مُعلّم الكوفة أخفى نفسه فيها، بعد أن موّه المعلّم قصة موته وجنازته امام اهل الكوفة، لانّ المنصور العباسي كان يخشى نشاط هذا الفتى كثيرا.. وهنالك بدأتْ جماعاته السرية التي عبرت النيل وصحراء المغرب فيما بعد.. إنهم شرقيون بدأتْ شمسهم من الغرب.

يا حافي القلب، فهمت من دفاتر الكحل لدى رامة أنّ يسار الاديان كان يلتقون في النواويس عند قبر الحر الرياحي، لأجل اسطورة تقول أنّ واحدا منهم وكان ابوه بوذيا، احتار بوجود الفارس الكبير الحرُّ الرياحي مدفونا بين هذي النواويس، رغم انه استشهد في باحة نينوى على مسافة فرسخ. كما احتار ان الحر وحده بين النوواويس القديمة بقبر دون ناووس، وكان قد أخذ هذا البوذي من أبيه ايمانه بعقيدة في وحدة الوجود ترى خلود الجسد أيضا

وليس فقط خلود الروح إذا ما توحّدت بقيمة إنسانية توحّداً إلهيا . ففتح القبر سرّا هو وصاحب له، وهالهما أنْ وجدا جسد الحر الرياحي ما زال سالما لم يتفسخ، رغم انه مدفون في التراب لا في النواويس وصخورها، فاعتبروه سيد تلك القبور ومسيحها .

كان هذا البوذي يرى أن فروسية الحر الرياحي هي التي جعلت الكون يتوحّد به، لذا لم ينطق البوذي حين فتح القبر وشاهد سلامة الجسد الا كلمة واحدة، هي؛ الفروسيّةُ نبوّة.

يا صاح. . اجتمع هذا البوذي بالمسلم واليهودي في النواويس اخوانا ومشوا لخانة واحدة في الصفاء لانهم على حسرة واحدة في الروح والالم والحقيقة. .

يا صاح، أجتمع البوذي والصابئي والنصراني بإسم إخوان الصفا لأنهم على جنوب واحد في نوع القلب وصفائه، وليس على صلاة واحدة في نوع النبي وقومه. . هكذا ختموا أديانهم بفكر الصفاء وحسب.

يا حافي القلب، حين انهيتُ تصفح تلك الاسرار امام كحل رامة، اقتربتْ رامة من النافذة، وقالت لي؛

الشبابيك واحدة في كل الازمان لان القمر كان واحدا عبرها، والاديان واحدة مع كل الانبياء لان الله كان واحدا فيها .

. . دعنا نصعد للغيوم، فحينما يتدحرج قلبي، يأخذه المطر.

قلتُ لها؛

دعينا نختِمُ العشق، كما تُختم النبوة. . اتعرفين معنى الخاتمية؟، ردّدي معي؛

. . إلهي أُريدُ قُبْلَةً، لقد تَعِبَتَ من القُبَل. مرة واحدة لآلاف المرات، قُبلة واحدة لكل القبلات.

3

تولّعت عيون جيندار بتلك النقوش ورموزها العصيّة التي تزيّن قوسا أعلى أحد الابواب. كان ما اطلع عليه في دفاتر الكحل يفتح له الكثير من اسرار تلك الرموز. رغم ذاك ما زالت

تجرُّ نفسه هنا وهناك.. وبينما هو على هذا الحال اعترضه يهوديٌ كان يخرج من داخل هذا الاثر القديم فانتبه لجيندار حين كانت عيونه تلح على تلك الرموز.

بقي يحدق بجيندار قليلا، ثم اقترب منه. قال لجيندار؛

.. اعطني الجمعة فاعطيك السبت.

عَرِفَه جيندار يهوديا فأجابه؛

اعطني بعضَ قلبك فأُعطيكَ كل مسجدي.. لا أريدُ أن أحمل دمك، أريد ان أحمل يدك. لا أريد أن أُبْدِلَ المعابد، اريد أن أُبدِلَ القلوب.

استأنس اليهودي لجوابه، فقال له مطمئنا؛ ليس بيني وبينك دم، بل بيني وبينك أبو حنيفة.

ردّدها جيندار بعده بطراوة؛ بيني وبينك أبو حنيفة.

لم يفهم الحافي كلامه، ولكن جيندار فهمها، فجلس على دكة من احجار متراصفة خارج هذا الاثر التاريخي، وكأنه يشعر أنه سيجلس إلى تلك الازمان. لقد عرف جيندار أن هذا الرجل من طائفة اليهود القرائيين، ولكنه لم يُبيّن له ذلك.. لطالما حلم بأنْ يجد احد منهم منذ دفاتر الكحل، لقد قرأ عنهم هناك. تفاجأ جيندار كيف تجلب الحياة اشياءها..

سأله جيندار؛.. كيف أصبح أبو حنيفة بيننا ؟.. جلس اليهودي قبالته على حجر مُحْمَر قليلا، فقال له؛ وهل ستُصدّق تاريخي؟.. أجابه جيندار؛ قل لي أي تاريخ الا تاريخ امتي فإني لا أصدّقه.

ثم حكى اليهودي وفي عيونه كثيرا من الروح؛

في أيام المنصور العباسي مات حاخام نبيل يرعى أجدادنا في العراق، ممن لم يقبلوا العودة لإورشليم حين سُمِحَ لنا بعد السَبي البابلي. فلقد قال اجدادنا حينها؛ ان اورشليم مكان حجنا لا مكان أرضنا.. أننا تطيّنا في العراق هنا، وما تجمعه الاوطان في القلوب خير مما تُفرّقه الاديان في العقول.

حينما مات هذا الحاخام النبيل داوود انقلب الكهنة اليهود طمعا بسلطة الدين على ابنه الكبير عنّان الذي احبه الناس وبايعوه لانه بروح ابيه ونبالتها، فلم يقبل هذا الابن رئاسة هولاء

الكهنة وكبيرهم اسحاق الاسكافي، فتدخّل المنصور العباسي لإجبار عنان ولكنه أبى. آنذاك سجنه المنصور.

حين دخل عنّان السجن دخل قدرا لن تكفيه الحكايات.. لقد وجد في السجن أبا حنيفة، سجنه الاخير الذي مات فيه مسموما من المنصور العباسي بعد أن عرف أنه الممول والداعم للثورات العلوية في الكوفة، ولانه لم يقبل أن يكون جزءا من السلطة بمنصب قاضي القضاة.. المنصب الذي خانوه تلامذته أبو يوسف والشيباني فتلقفوه بذل.

على غفلة من الدهر، جمع السجن أبو حنيفة الستيني المسلم وعنان بن داوود الاربعيني اليهودي وهما بحسرتي دين. ولكن حين يلتقي النبلاء تذوي الاديان.

قدرٌ كان اكثر من غريب، ولكن في طريق اليهود لا في طريق أبي حنيفة.. لقد علّمه أبو حنيفة علما لم يعه حتى تلامذته المسلمين.. طلب منه أن يقرأ التوراه من جديد بغير عيون الكهنة وتلمودهم. أن يقرأ الله من جديد، أن يقرأ فكرة الخير من جديد فحسب. لذا سُمّينا نحن الذين اتبعناه بالقرائيين. كلمتنا أمام التوراة هي كلمة عنان لاجدادنا؛ "فلتقرأوا الكتاب بعناية ولا تعتمدوا على قرآتي".. ولكن كان عليه أن ينبذ التلمود لأنه قراءة الكهنة للتوراة، لذا نبذنا باقي اليهود لانهم تلموديين.

جميل ان يجعل المسلمُ ديانة اليهود جميلة بعين يهوديتها. هذا ماكان شأن أبي حنيفة منذ الاربعين تلميذا في الكوفة وأديانهم.. لم يكن اليهودي منهم معتزليا مسلما، كان معتزليا يهوديا. وحينما تناثر الاربعين في البلدان، كان المعتزلة اليهود منهم بإسم (افروشيم). ولكن لم يبق لليهود معتزلة كما لم يبق للمسلمون معتزلة.. دائما أشعرية الاديان من تبقى.

لم يطلب منه أبو حنيفة قرأة القرآن، طلب منه قرأة التوراة. كرها بمن يغير دينه ولا يغير قلبه، ولكن عنان احب القرآن لان أبو حنيفه أحبه.. يا صاح، مالدينا من أبي حنيفة في يهوديتنا أكثر مما لديكم منه في اسلامكم.. تعال اقراء كتاب (الصيهور) لدينا، نبداه بحلاجكم، بينما لا تبدأون كتبكم الا بلعننا.

انا من اليهود القرائيين، ليس حبي لأبي حنيفة لأنه اخرج كبيرنا عنّان من سجن المنصور

قبل أن تضع الاقمار حَمْلَها، بل لأنه اخرج أجدادنا من سجن آلاف السنين من زور الحاخامات.

ردّد جيندار في نفسه وهو يسمع هذا الكلام من هذا اليهودي النبيل؛ غريب هو أبو حنيفة يحيي الناس حتى في سجن سيموت فيه.. لقد مات في هذا السجن الذي أحيا فيه عنّان.

رفع هذا اليهودي النبيل عيونه لنقوش القوس، وعاد يقول لجيندار وجواره الحافي؛

يا صاح، لم يهتم أبو حنيفة لسجنه وإنما كان مهموما لسجن تلميذه عنّان فعلّمه طريقة في الجدل تجعل المنصور يُخرجه دون أن يبايع الاسكافي. وحين طلب عنّان بعد ذلك لقاء المنصور، توقّع هذا السلطان أنه يريد أن ينصاع لقراره بمبايعة الاسكافي، ولكن الحديث جرى بفنٍ عبرَ به المنصور وقراره فخرج عنان من السجن دون مبايعة.

يا صاح، قيل أنّ أبا حنيفة أودع عند عنّان بسريّة كتابه المفقود لديكم " الفقه الأكبر". إنه كتاب في علم الكلام وليس في الفقه. فيه كل روح ابوحنيفة في وحدة الاديان ووحدة الله ووحدة الإنسان.

قال جيندار حينها في نفسه؛ وفيه كل ما اعتزل عليه هو ومعلّمُ الكوفة الامةَ. فيه ماكانوا يلتقون عليه سرا كل الاربعين من تلامذته المعتزلة.

سأل جيندار؛ ما أسمك؟، فاخبره به.. فقال له اليهودي؛ اشم في حروف هذا الاسم رائحة سجن. فالتفتا جيندار والحافي لبعضهما.. وعاد يحكي اليهودي واسمه يوسف، ما كان بين أبي حنيفه وبينهم.

ايا جيندار، لم يستأمن أبو حنيفة على كتبه مُسلما، لقد استأمن عليه يهوديا. أودعه لدى عنان اليهودي ولم يودعه لدى أبو يوسف القاضي. لذا ليس لديكم من كتبه ولا رسائله ولا وصاياه شيئا، لانه كان يعرف انكم تمحون الخير وتزوّروه، وتُبقُونَ الكذب وتحيوه... ألم تجعلوه كاهنا لا ثائرا، ألم تجعلوا خائنَه الأول هو تلميذه الاول. إنكم أمة لا تخجل، كما هي امتي الاولى، والامة التي لا تخجل امة عاهرة.

ايا جيندار، عنان بن داوود كان يقول أن معلّمي ابا حنيفة هو من علمني وحدة الانبياء

في الخير، وانتم شوهتوا أبو حنيفة وجعلتموه فقيها تمشون بإسمه للشر.. على هذا ردد عيسى؛"ويلٌ لكم لأنكم تبنون قبور الانبياء وآباؤكم من قتلوهم".

يا جيندار هل تعلم أنّ البعض من المسلمين اليوم هم من نسل يهود إخوان الصفا دون أنْ يعلموا. يهود ساروا إلى مسافات القرامطة، وللمسافات أسرار.. يهود شرب اجدادهم درب الكوفة جيدا، احبوا درس الحب عند جابر بن حيان.. كما أحب الغرب عنده درس الكيمياء.

حينها ختم كلامه بحسرة؛ يا جيندار، لقد كانت تمشي باليهود والمسلمين مسافات السجن، فلما اليوم تمشي بهم مسافات الحرب!.

... لقد ضيعتم أيها المسلمون درب الكوفة أكثر مما ضيّع يهودنا درب اورشليم.

ثم قبّله على جباهه ورحل دون أن يلتفت. ضاع دربه من عيون جيندار، ولكن اسراره اعادت له كثيرا من دروب دفاتر الكحل. فردّد وعيونه على الحافي؛

الا ايها الساقي أدرْ كأسا وجمّرها... الازمان التي تُطيل السكر خمّرها.

4

بقي جيندار على دكته وهو يرى بذرة من طريق الف سنة للسجن في عيون هذا اليهودي يوسف، والحافي يرى عيون جيندار كيف جمعت عنان بن داوود من جديد بعد أن جمعها في دفاتر الكحل، دون ان يعلم.. وهو يفكر بكلمة اليهودي عن اسم جيندار؛ اشم في حروفه رائحة سجن.

قال في نفسه؛ إنها اشارة وجود لعلّها تصيب معي.. أليس جيم السجن هي كل كلمته. ألم يجمع القدر جلنار والكحّال في سجن واحد.

هل هنالك علاقة بين اسم جلنار حبيبة الكحال في السجن وبين جيندار الاسم الذي جاء به الكحال لهمدان. أليس التوحّد في المبنى توحّد في المعنى؟.. لم يفهم ولم يقل لجيندار بحديث نفسه هذا.

قال له جيندار؛ يا حافي القلب.. لقد كنت اعلم تلك القصة من دفاتر الكحل، ولكني اردت كحلا يهوديا أرى به أكثر.

أرأيت كيف تمشي الاقدار بالدروب.. حريّا بالشعراء ان يكتبوا لقاء أبي حنيفة وعنّان، والا ستغدوا ليلى تافهة في قوافيهم.

يا صاح.. في جمهورية الوجود، المكان الذي كتب فيه القرطبي لا يجلب قمرا. المكان الذي كتب فيه الرومي، القمرُ من يَجلبُه.

الاعتزال الذي قام به ابن عطاء لا يجلب سجنا. الاعتزال الذي مات به أبو حنيفة، السجن من يجلبه.

يا حافي القلب.. دوّن بعض قافيتي؛

- حين تزهد بالغيب يتبعك الوجود.

- الرمال تحسب اكثر من قدمك، والقلب يحسب اكثر من عقلك.

- من كانت الأمطار إمامه تغدوا الاشجار صلاته.

ولّى زمن أبي حنيفه، وزمن لا تجد فيه اليهودي والمسلم في سجن واحد، تجدهم في حرب واحدة.

يا صاح.. لم يطلب أبو حنيفة من عنان ان يغير يهوديته، فهذا سخف لا يقبله أبو حنيفة. دخل عنان يهوديا للسجن وبقي يهوديا. بل تعلّم من أبي حنيفة انه لا يهم نوع الدين وانما نوع الخير. أنه لا يهم في أي دين انت، ما يهم هو في أي خير انت.

يا صاح.. رأيت هنديا مرة في كنيسة وهم ينقلون يديه من بخور هندوسية الى شموع كاثوليكيه، يظنون انهم ينقلونه الى الله، وهم ينقلونه من دين لدين، من كاهن لكاهن!. لا القلب تعطّر ولا الشغاف أضاء.

يا صاح.. الموت لا ينزل في مكان، والحقيقة لا تنزل في مكان واحد.

لا تُصدّق الدين الذي يحدد صلاتك بمكان.. فقط صدّق المكان الذي لا يحددك.

لا تصدق الحقيقة التي تحددك بمكان، فقط صدّق الحب في كل الامكنة.

يا صاح.. لا يهم اللهُ نوعَ الاله الذي لك، ما يهمه نوع الإنسان الذي فيك.

.. لا يهمُّ اللهُ نوعَ الدين الذي تَدينَ به، ما يهمه نوع القيم التي تقوم عليها .

لدى الله، ليس الهداية ان يصبح الإنسان مسلما أو مسيحيا . الهداية هي ان يصبح المسلم أو المسيحي إنسانا .

النبي لا يأتي ليغير نوع الاله في السماء، إنه يأتي ليُغيّر نوع الإنسان في الارض.

يا صاح.. لا قبح ولا سخرية أكثر من فكرة الفرقة الناجية. سبعون فرقة للنار وواحدة ناجية!، لَكم جعلوا الله قاسيا . حتى القاضي الدنيء لا يقبل سبعينَ سجينٍ وبريئ واحد !.

لا وجود لفرقة ناجية دون غيرها، لا واحدة ولا سبعون. الناجون هم الطيبون فحسب. لا يُحدّدهم دين ولا معبد، قد ينجوا الملاحدة اكثر!.. لاغرابة، الغريب هو أن لا تجد كافرا في النعيم. الغريب هو ان لا تجد لحية في الجحيم.

أيُّ مسلمين وأي مسيحين وأي يهود!.. إنهم عشائر معبد فحسب. ومن يكسب عشيرة يخسر الله.. فلا عشيرة لله، إنه مشاع كما الوجود...

.. إذن، كن بلا فرقة تكن ناجيا .

يا حافي القلب، ليس الله فقط، بل أيضا؛.. الإنسان ليس مسلما ولا يهوديا ولا مسيحيا، الإنسان هو الإنسان.

الانسان ليس لأحد، هذه هي إنسانويته.

يا حافي القلب، فرقة الدين تُفرّقكَ عن الناس.

ليس فقط من يكتسب معبدا يخسر الله، بل أيضا من يكتسب معبدا يخسر الإنسان.. من هذا كان يئن النبي؛ (كل إنسان يولد على الفطرة، وأبواه يهوّدناه وينصّرانه ويمجّسانه) ويؤسلمانه.

يا صاح، إنها كلمة ضد الكهنة.. بهذي الثلاثة تأويلها وترتيلها؛

- كل إنسان يولد بلا دين، فلا تديّنوه.
- النسبُ الدينيُّ خطيئة.
- اتركوا الإنسان لإنسانيته.

هذي هي مثانيها الرجع، هذي هي معانيها السبع. . ولكنهم لم يبقوا شيئا من معانيه، قتلوا السبع والتسع، والليالي العشر والوتر والشفع.

يا صاح، لم يقل النبي (لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على اسود)، لأجل مشكلة تخص الناس وقبحهم في الطبقية والعرق، وإنما لاجل فكرة تخص الله وأُمميته في الدين والطين.

الله لا ينظر الى المعبد وإنتسابه أكان مسيحيا ام زرادشتيا. الله ينظر الى الفعل وإنتسابه أكان متوحشا ام إنسانيا.

الله لا يحسب نوع البناء، معبدا أم حانة. الله يحسب نوع الايادي وقبضتها، فأسا ام وردة.

الله لا يحسب لون البشرة، سوداء أم بيضاء. الله يحسب لون الشغاف، ابيضا ام اسودا.

5

قبل أن يأتي اليهودي يوسف بقليل كان قد اختفى جيندار قليلا بينما كان الحافي مشغو ل بغرفة حائراً في كنه مكانها الغريب بين البناء التاريخي ومعبده. .

سأله الحافي بعد ذهاب يوسف اليهودي؛ اين كنت حينما اختفيت عني قليلا؟.

أجابه جيندار؛ كنت في المسجد، أضع قُبلتي الاخيرة عليه.

لقد جمعتني اقدامي بباب مسجد مجاور فطردني كاهنه لاني لستُ من دينه، كان لا يقبل لاهل الاديان والمذاهب الاخرى الاخرى ان يشاركوهم في الجنه ولا الله ولا النبوة. . كان لا يقبل نبيا غير نبيه، ولا معبدا غير معبده ولا بشرا الا من دينه.

التفت جيندار للمدينة يُحدّق في معابدها، ثم قال للحافي؛ دعنا نرحل منها، إنها مدينة كاهن لا مدينة الله. .

يا صاح. . المدينة التي تكثر فيها المعابد يقلُّ فيها الله.

عبرا واديا تتناثر على اطرافه القرى والمعابد بشتى أديانها. لاحت لهم اطلال كنيسة

مهزومة من الجبل اعلى مجرى الوادي فاتجها اليها . حين وصلاها أحبا اطلالها فرغبا بصلاتها لأنها دون كاهن ودون متديّنين.

شعرا أنهما يشمّان رائحة البحر . . قال جيندار؛

لا تحلو رائحة البحر الا بالملح، ولا يحلو بريق العيون الا بالكحل. كما ولا تحلوا قصة القلب الا بالعشق. ولكن لا يحلو المعبد الا بغياب الكاهن.

بقي فيها حتى المساء عند حجرة الناقوس، حجرةً أهملتها الروح منذ ان كانت الوديان تتوحد بجرسها، كانت تتناثر فيها أحجار أوقعها حزن الدهر من اطراف الجدار . . لاح له من بعيد بين فتحات غرفة الناقوس مأذنة ذلك الكاهن الذي طرده قبل ساعات، فعادت له حسرة منه.

على حين غرة نهض جيندار وطلب من الحافي أن يرفع حجارة ويطرق الناقوس بكل قلبه، وهو لا يعرف ما يريد جيندار من ذلك. حين أنتهى من الضربة السابعة، رفع جيندار رأسه في جهة الوادي مؤذّنا؛

. . اشهد ان لا إله الا الله، وأنّ النبلاء انبياء الله . . اشهد انّ محمدا رسول الله، وانّ عيسى كلمة الله، وانّ غاندي ملح الله، وانّ بوذا مشيُ الله، وان الجياع عيال الله . . وأنّ الكهنة لصوص الله.

اشهد أنّ رابندا من اقلام الله، وأنّ جيفارا من ثوار الله . . أشهد أن قاتل الناس عدو الله، أشهد أنّ الكهنة مزوّري الله . . حيّ على الحبّ، حيّ على الصلاه.

نزلا هاربين مبتعدين للجهة الاخرى من الجبل . . سمعتُ الناسُ الآذان مذهولة. القرى اكتضت، المتدينون غضبوا، الكهنة قساوسة وشيوخ وحاخامات. القس لم يقبل للكنيسة أن يُرفع الاذان منها، والشيخ لم يقبل لأذآنه أنْ يُلقى من كنيسة.

القس لم يقبل اسم محمد فوق كنيسته، والشيخ لم يقبل اسم غاندي في آذانه . . كل هذا يهون، ولكن كيف يُذكر الملحد جيفارا من فوق معابدهم . . هذا ما جعل الكلُّ اجتمع على حدى مع متدينيه لقتل المؤذّن. ولكن لا يعرفون من هو، فحين صعدوا للكنيسة لم يجدوا أحدا.

وحده نجّار فقير كان منبوذا بين كهنة تلك المعابد، فَرِحَ بذلك ولم يكفّ عن الضحك كل الحين، وهو ينظر الى تحشداتهم وغضبهم سعيدا . . هدأ من ضحكه وجلس الى الارض، وهو يقول لعامل صغير في دكانه كان يتيما؛ الان عرفت الله يا بني، حينما عرفتُ من أصحابه، فآمن به. يا بني إن الكهنة اعداء الله هذا يكفيني.

انتظر هذا النجار عدة ايام ولم يسمع الاذان من جديد . . تألم، شعرَ أن روحه تريد ذلك الآذان، وكأن عين الاذان اصبح صلاته. بل أصبح متدينا به أكثر من متديني المعابد في ذلك الوادي واطرافه.

صعد هو خلسة لذلك الناقوس ليلا وجمع الانبياء كلهم في آذانه ونزل هاربا . . بقي يصعد بين الحين والاخر، لم ينسَ نبيا ولا نبيلا الا وذكره. حتى جاره الفلاح الطيب خليل النجّال، شهد له مرة حين اطال آذانه وقال؛ أشهد أن الفلّاح خليل زارع الله.

كَثُرَ اللغط بين العوام في اسفل الجبل وأحياءه . . قال حاج مسلم لصاحبه؛ أتعلم لقد اصبح الناقوس مسلما . . قال مسيحي لجارته؛ اتعلمين، لقد اصبح الاذان مسيحيا . . قال بعض الشيوعين؛ لقد اصبحت الاديان شيوعية لان جيفارا أصبح يُرفع من المآذن.

وحده الفلّاح الطيب خليل النجّال، قال؛ لقد اصبح المعبدُ فلاحا . . ليس لان الأذآن ذكر اسمه، وإنما لان المعبد زرع في آذانه كل النبلاء، كما تزرع الارض كل الاشجار . . والارض لا تخطأ في الاشجار، تخطأ في القبور فحسب.

6

حين إتجه الحافي وجيندار بعيدا عن أطلال تلك الكنيسة، صعدا تلالا تطلُّ على المدينة في شرقها، ويطل غربها على البحر. وان يكون البحر شرق المدينة غيره أن يكون غربها . . التفتا للمدينة ومعابدها، كانت منارات المعابد تتيه في شكلها من بعيد، فلا يمكن ان يتميز دينها.

قال جيندار للحافي؛ جميل أنْ تتيهَ المعابدُ بين الناس، بِلا لك أو لي، لا نبيٌّ لك ولا نبيٌّ لي . . فقط حينما يتيه إسمهم يتوحّد تيههُم.

الاديان كما الاطيان، وَحُلُها يسبقُ ترابها . . فكيف يُوحّد الله في المعابد وقد تفرّق خَلْقُهُ بها !؟.

يا صاح. . تعدّد الله في اديانه وتوحّد في إنسانه.

. . عليك ان تتخلى عن كل الاسماء لإسم الإنسان فحسب.

أخطأ الإنسان حينما استبدل اسمه بإسم دينه، فكان مسلما ومسيحيا . حينها ترك اخاه بلا إسم، وترك الله بلا خلق.

مشاعية الاسم لا تشبه مشاعية مزدك في القمح والنساء، لانها مشاعية الخلق الاول، مشاعية وجود.

الله جمعَ الاطيانَ لروحٍ واحدة نفخها ليُسميها إنسانا، لم يمنحه الا اسم إنسان فحسب.

يا حافي القلب، هاكَ بعض ثوبي، بعض إنجيلي؛

- خلقتنا الطبيعة عرايا، مشكلتنا إننا بثياب.
- لكل شيء مسافة، وحده الله بلا مسافات.
- لا تأخذالحقيقة الا من قلبك.
- ستحلم الارض كثيرا حين تنبذ الكهنة.
- من يلمس القلب يلمس المسافات.

وصلا رمل البحر وزَبَدَه. .

داس جيندار الشاطئَ بقدمين، وجده رملا واحدا . . ردّد؛ إذن لم الاشرعة كثيرة! ! !.

يا صاح، ردّد بوذا؛ (لاجهات في السماء، الناس من جعلها في الارض) . . آه، بوذا بلا جهات كما القلب.

القِبلة ليست جهة أرض، والقُبلة ليس جهة شفاه، إنهما أنفاس روح.

الله ليس جهة شعب، الله جهة قلب.

الله وجود مُشاع ليس لأحد(أينما تولوا فثمّ وجهُ الله) . آه، لكم أُحِبُ اللهَ حينما يعاند الكهنة هكذا.

مشاعيته هي أنه كُلّي المكان، كُلّي الإنسان، حتى بين فرعون وموسى، لذا أرسله إليه بجِنيّة. لا يحتكره حتى نبي، فكيف بالكاهن وهو عدوه!.

الكاهن لا يفصل الإنسان عن الله، الكاهن يفصل الإنسان عن الإنسان.

حينما أصر الكهنة أنّ الله لا يتصل بالناس الا عنهم جعلوا من الله طبقيا، وحينما أصروا أن الله لدين قومهم فقط، جعلوا منه عرقيا.. وهو ما لا يليق بالعدل والنبل فيه.

يا صاح، الإنسان ليس عربيا ولا هنديا. الإنسان هو الإنسان.

الوجود لامنتم، هذه هي وجوديته.

لم يكن غاندي هنديا ولا هندوسيا، تساوت امامه الدروب والقلوب.

لم يكن الرومي افغانيا ولا إسلاميا، تساوت لديه المعابد والمرابد.

لم يكن النبي عربيا، كان عربي الدم فقط، ولكنه لم يكن عربي العيون، فعيونه لكل النجوم.

كان عربي القوم فقط، ولكنه لم يكن عربي الطريق، فأقدامه لكل الرمال.. كان عربي الارض فقط، ولكنه لم يكن عربي السماء، فقِبْلَتَهُ لكل الجهات. لذا تساوى امام عيونه القوقازي والمكي، الوثني والمسلم.

ياحافي القلب، الحانة تقبل كل الاديان، والمعبد لا يقبل الا دينا واحدا!.. الحانة تقبل كل الاغاني، والمحراب لا يقبل الا صلاة واحدة.

اهلُ الصلاة من يقتلون بعضهم وليس اهل الخمر.. نوع صلاتك تقتلك لا نوع خمركَ.

يا صاح.. ردد كاهن شاب لبنجابية بلا ليل؛

قنديلُكِ غير قنديلي.. وليلُكِ غير ليلي.

إذن إجمعي نجومك وارحلي.

هِندُكِ غير كِشميري.. ونبيُّك غير نبيي

إذن إجمعي صلاتكِ وارحلي.

7

سكت جيندار قليلا، أخذته عيونه لسفن بلا أشرعه امامهما، كانت سفن بخارية..

تحسّر جيندار للحافي؛

آه، ولي زمن الشراع. .لا تعرف السفن وحدة الوجود دونه، لأنها لن تشعر بالكون دون رياحه.

اعطى عيونه للبحر أكثر.. وقال للحافي؛

اثنان يعرفهما الليل، اللص والعاشق.. اثنان يعرفهما الملح، دموعنا والبحر.. كم تمنى أن يغدو اللص عاشقا، حينها لن يضاهيه عاشق قط.

يا حافي القلب دوّن بعض ملحي؛

- الطريق الصحيحه ليس في القدم الصحيحة، بل في العيون الصحيحة.
- السفن الصحيحة ليس في البحار الصحيحة، بل في الاشرعة الصحيحة.
- أغنية عربية خيرٌ من صلاة عربية.
- الله لا يكتب عن نفسه، الحياة تكتبه.

يا حافي القلب.. الناي يتزوّر في الشفاه، كما الله يتزوّر في المعبد.

مسافات الناي تجدها في العازف وليس في القَصَبَة. مسافات الله تجدها في الفلّاح وليس في الكَتَبَه.

إنّي أبحثُ عن الناي كي اسمعُ الخراف. إني أكتب الكلمات كي أسمعُ الوجود، لا كي أُسمِعَ الناس.

إني ابحث عن الكحل كي أرى جلنار لا كي تراني رامة.

عادت عيونه للبحر، وللزوارق.. ردّد؛

آه، كلنا بلا شراع فكيف ستجلبنا الريح؟.

يا حافي القلب، قلت لرامة؛

في عيونك اشرعتي، وفي كحلك كل الريح.. فأين مدن الاحلام.

. . انكِ موجودة هنا فلتبدأ النبواتُ بالحلم.

الفقيه يحلم بعين واحدة. . الشاعر يحلم بقلبين. الكاهن يحلم بريح واحدة، السفينة تحلم بشراعين.

الفيلسوف يحلم من فوق عقله. . الكاهن يحلم من فوق عمامته.

اما حين يصل امر الحلم الى مثل قيس، فانه يحلم من فوق الصحراء كلها .

الرمال تَعِبَتْ من قيس، تُريدُ ليلى. ولكن قيس يريد الرمال فحسب! .

يا حافي القلب. . حين خرج الكحّال من السجن، أعاد أمام قبر جلنار بكاء آياته. وحوله البصرة وزنجها بين الحراب والخراب. . وحين خرج شاعر البنجاب من الروح، أعاد أسى أبياته؛ (لقد سَئِم الهوى في البيد قيسٌ، وملّ من الشكاية والعذاب) .

لا يقبل جيندار سطرا فيه قيس دون ليلى، إنه أمر معيب في كنه الوجود. . لذا غيّر كلمات البنجاب، فقال؛

لقد سئِمَتْ البيدُ في الهوى قيسا ، وملّت الرمالُ من السراب. . . لا هضابُ قيسٍ تلمُّ ليلى، ولا أقدارُ ليلى تلمُّ الهضاب.

مسافات الرمال..

(طهّر قلبك وصلّ حيثما شئت..)

.. البسطامي

1

اذا توحّد عقلك بقلبك فاعرف أنك صرتَ فيلسوفا، واذا توحّد ليلك بقمرك فاعرف أنك صرتَ عاشقا، واذا توحّد قلمك بكلماتك فاعرف انك صرتَ كاتبا.

.. قال الحافي لتلامذته الثلاثة، لكم أُحِبُ كلمة جيندار هذي.. ثم حكى لهم؛

جرّنا الدرب الى حي قديم، انتبَهَ جيندار فيه أنّه على مدخلِ سوقٍ للكتب، رائحة الزقاق عقيمة، رائحة الكتب لئيمة.. وقف على باب دكان منها، يعرضُ كتبه وكأنه يعرض سمكا، بينما رأى يوما صيادا يعرض أسماكه وكأنه يعرض كتبا..

قال؛ العالم مليء بالكتب، العالم مليء بالنساء. كلاهما وجّساه، توّهاه..

رصيد كبير من الكتب، إذن رصيد كثير من الكذب.

ولى زمن الكِتّاب. وكِتاب لا تنتضر منه دربا، عليك ان تنتضر منه كذبا.. فقه لا تنتظر من حروفه حلالا، عليك ان تنتظر منه أغلالا.

بدأ يتصفح ويُرجع الكتاب سريعا، كان يكتفي أحيانا بسطرين منه كي يعرف كذبه.. تعجّب الحافي من ذلك، كيف؟.. فقال له جيندار؛

لا يكون الفيلسوف فيلسوفا حتى يشم الحسن والقبح، يشم الصدق والكذب، يشم الوجود والعدم.

لا يكون النبيل نبيلا حتى يشم الفضيلة والرذيلة، يشم النبالة والدناءة..

لا يكون العالم عالما حتى يعرف الحقيقة من بين الف كتاب، ولا يكون العاشق عاشقا حتى يعرف حبيبته من بين الف نقاب.

لا يكون الحالم حالما حتى يشم العشق من بين الف فتاة، ولا يكون المتدين متدينا حتى يشم الشيطان من بين الف صلاة.. هذي من وحدة الوجود، دعك من وحدة الصوفية.

اصغى جيندار للحماقة كثيرا في باب الدكان، فترك الحماقة لأجل الوضوح في نعال الحافي.

كان يقول؛ الحقيقة في النعال.. كما كان يونانيٌّ قديم يقول؛ الحقيقة في الخمر.

قال لحافي القلب؛

كانت صوفية متصوف بغداد بِشر الحافي في نعاله وليس في صوفه.. سألوا عن فلسفة حياته كلها ولم يسألوا عن فلسفة نعاله، رغم انها كل حياته!.

يا حافي القلب، لم يكن المتصوف بِشر الحافي حافيا، لان الكثير من الكتب كانت تغطيه.

شاهدا من بعيد مقهى يعجُّ بالكَتَبَة، اكتظت روحه وأقدامه.. تمتّم؛

يقولون لي، إنه مكان جميل لا فلس فيه، وأقول لهم، أنه مكان جميل لا فيلسوف فيه.

يا صاح، لقد تنهّد فارسٌ سرّح فرسه منزويا عن الحروب؛ (انا المحارب الذي لاتروق لي الطرق الجديدة في الحروب)، لانه لانبالة فيها.. وأنا الكاتب الذي لا تروق لي الطرق الجديدة في الكتابة، لانه لاشرف فيها.

المصلون وهّنوا الصلاة، والكُتّاب اهانوا الكتابة.

دعك منهم، يلهون على الساحل ويكتبون عن البحر!. كتابة في لهو، حتما هي لهو كتابة.

لم أعد أؤمن بالقلم. وحين نيأس من الاوراق فعلينا أن نيأس من النبوّات. لانها كلمات فحسب.

. . حين نيأس من القلب فعلينا أن نيأس من الطريق. لانه أقدام وحسب.

أنا لا اكتب لكي املأ الكتب، بل لأملئَ روحي. . أنا لا أكتب كي أُغيّر العالم، وانما لأُغير شرابي.

يا حافي القلب، حرق التوحيديُّ كُتُبه ليس لان جيله لم يحترمها، وإنما لانها هي لم تجعل وجوده محترما. . كان غضبا من كتبه وليس من الناس. تماما كالمؤمن في زمن الطاغية يزعل من إلهه دون طاغيته.

بدأ يحرقها الواحد تلو الاخر ويقول لها تعسا لك. . قيل أن كتابه (الهوامل والشوامل) رد عليه مسبّته. . لا أعرف لِما؟.

يا حافي القب. . آه لم يفهمني احد. إنهم يُزوِّروني.

الحمقى لا يقرؤني جيدا. ليس المسألة انّ الكتّاب لا يعرفون كيف يَكتُبون، المسألة انهم لا يعرفون كيف يَقْرَأون.

. . المثقفون أهانوا الثقافة، المتدينون اهانوا الدين. . آه، والعشاق أهانوا العشق.

على المثقف ان يلبس ثوب الكاهن، فلقد لبس قبله ثوب العاهر. . يلبس ثوب الليل ولا ينام الا في النهار.

. . . ذهب الكاهن وجاء المثقف. . كُلُّهم اخوة يوسف.

2

زمن الرجولة خير من زمن الفلسفة، الفرسان يُجددون اكثر من الفلاسفة.

ردّد جيندار ذلك بعد أن قرأ في دفاتر الكحل حكاية العيّار ترّاب حين ترك فتاته "ساوه" لأجل الجياع وثورته.

قال للحافي وما زال لا يعرف من خبر ساوه شيئا؛

هذه الاجيال لا تفتقد الى قيم دينها وإنما تفتقد الى قيم رجولتها. . الرجولة بذاتها كانت تكفي أنْ تُلْزِمْكَ بقيم اخرى، اما الرجولة اليوم فتكفي ان تَفرش بإمراة أُخرى.

الفلسفة حينما تكون بباب ابن كيركجارد صدّقْ اسمها، وحينما تكون بباب ابن سينا صدّق أبا لهب.

يا حافي القلب. . الفلسفة حينما يكون القلبُ وَجِعاً، غيره حينما تكون الكُتب مَرجِعاً. فالحكمة لا تدفأ في عيون نائمة، الحكمة تَترقرق في عيون متألمة.

ياحافي القلب؛ الفيلسوف المطمئن مزوّر مهما بلغت افكاره، والعُودُ الراقص خامدٌ مهما بلغت أوتاره.

الذات الدنيئة لا تصل الى فكرة نبيلة مهما بلغت معارفها، والذات المزورة لا تصل الى فكرة صحيحة مهما كثرت مغارفها.

يا صاح. . كما لا تثق بليل دون قمر، فلا تثق بفيلسوف دون قلب.

العقل بكل ما كان منه في التاريخ لم يجده الإنسان شيئا إلا إذا سالَ كما القلب. ولكن العقل لا يسيل ابداً، لأنه بلا شغاف.

هو ذا الفارق بين قلم ابن سينا وعصا أبي ذر.

ياحافي القلب؛ لطالما تقول الغانيةُ حكمةً عن ليلها لا يقولها إفلاطون عن نهاره، ولطالما تعرف الغانية بساقها ما لا يعرفه ارسطو بعقله.

هنا تربض أيضا المسافات وخريفها، هنا تربض أيضا الوجودية وتعريفها. انها تَشرب كثيرا من التعاريف، انها لا تقبل تعريفا واحدا، كما لا تقبل مسافة واحدة، لأنها فن المسافات. وهذا تعريف فنّها. . آه لم يصله احد قبلي قط.

دعك من الجامعات، إنها دائما بليدة. دعك من المعابد، إنها دائما عنيدة.

يا صاح. . لكم افسدت الجامعات الفلسفة، كما افسد الكهنة المعابد.

لا تثق بفيلسوف أنجبته الجامعات، ولا بفقيه انجبه الكهنوت.

ثم قال له بكل الشفاه؛

نحتاج الى قُبلتين في القلب لا في الجلد.

نحتاج الى سنتين في التيه لا في الجامعة.

ألم تَرني أهتم برأي البسطاء في معارفي، لان المجسات الصوفية تفقد إلهها مع المتعلّمين.

يا صاح. . الوجودية هي غريزة وجود لا غريزة معرفة.

فراق الرجولة وليس فراق الفلسفة من أنجب الوحل. فراق الطبيعة وليس فراق المعرفة من انجب الجهل.

أبو ذر حينما أحلّ أخذ مال الغني بالقوة لاجل الفقير كان قد عاد للطبيعة وليس للفقه.. فلم تَحر عصا أبي ذر، فقط الفقه ما زال حائرا، لأنه عكس الطبيعة.

يا صاح.. هل يجوز للقمر سرقة النجم في ضوئه؟، انه يسرقها اصلا مذ ان بدأ. السرقة عينها هي من تجعل القمر قمرا والنجم نجما، والاهم هو انها تجعل اليل ليلا.

لقد أراد العيّارون اللصوص ان يبقى الليل ليلا فحسب. لقد أرادوا أن يبقى العرب عربا فحسب..

ياصاح اراد "ترّاب" ان يبقى النبي نبيا فحسب.

سأله الحافي؛ لما الكحّال كان يسميه نبي أبي ذر.. أجابه جيندار؛ لانه ليس نبي الكل، إنه يليق بأبي ذر وليس بابن مروان، إنه يليق بالفلاح الطيب وكوخه، وليس بالسلطان ومعبده.

كان الكحّال يعرف فن يليق ولا يليق. علّمه الكحل ذلك.

يا صاح.. الحقيقة لون، فلما ثوب الكعبة اسود؟، هذا اللون لا يليق بالله.

.. تديّنوا بالاسود، فالابيض لا يريدكم.

الكوخ أهم لدى الله من الكعبة، ولكن لا أجنحة هناك، ولا رداء أبيض. هنالك ثياب ممزقة فحسب.. آه، ردد عليٌّ في الكوفة وبيده ربع الارض؛ (و لقد رقعت مِدْرَعَتي حتى استحييتُ من راقعها).. آه كيف أُرقّع قلبي بعد هذا الكلام.

.. قالت لي مسيحية عربية؛ ألأمّة التي لا تعرف بياض إبن أبي طالب أُمّة سوداء.

3

التقى ترّاب برفيقٍ قديم من العيارين بعد انكسارات صاحب الزنج في واسط، في زمن انتهى فيه الكحل، كما يصفون الكحالة عادة في دفاترهم كلّ زمن تنكسر فيه القيم..

كان العيّار حزينا كثيرا لانه شاهد بام عينه صلب اسرى الزنوج في وسط المدن، والناس تنظر بعبودية أكثر، وكان حزنه أكثر من خيانة "شيلمة" احد رفاق صاحب الزنج.. قال له ترّاب؛

لا تموت الفروسية فقط بموت الفارس، يموت الفرس أيضا بموت الفروسية.

لم أتخلَ عن حصاني لأن الفروسية لم تعد تنفع، وإنما لان الخيل لم تعد تؤمن بها.

لم اتخل عن الدين لان المتدينين لم تعد تنفع صلاتهم، وانما لان الصلاة لم تعد تريد المتدينين.

يا حافي القلب كان قد رحل ترّاب قبل ذاك لمعتزلة بغداد والتحق بجميل الحدثي والخير بن خابط، ولكنه وجد الكثير من المعتزلة غادروا اعتزالهم.

قبل تركه بغداد ألتقى بابن الراوندي، وكان قد انتهى توّاً من كتابه فضائح المعتزلة بعد أن كان معتزليا شرسا.

قال له ابن الراوندي؛ كان أبي يهوديا كما أنا. كل يوم كنت اذهب لدين ومذهب فأخرُجُ منه غضبا، أهدمُه وأقضمُه.. لقد قال اليهود للمسلمين عني؛ (خذوه لكم، سيُخرّب عليكم دينكم كما خرّب أبوه ديننا).. ولكن اديانهم من كانت خرِبة، يهودا ومسلمين.

يا ترّاب.. جئت ليسار المعتزلة فوجدتهم يمنيا. فلقد خان اواخر المعتزلة أُولهم.

كان ابن الرواندي يعرف أصل ترّاب واسمه الحقيقي. فقال له؛ يا ترّاب لا أُؤمن إلا بأبيك البعيد. لقد كان حقا أبا للتراب. لم أفهم التراب الا به.

.. آه، ومن لا يفهم التراب لا يفهم الله.

يا حافي القلب، قيل أن ترّاب وقتها ترك بغداد وقام برحلات محيّرة بحثا عن عصا أبي ذر مستقصيا كل رائحة عنها، شاهده بعضهم مرّةً غرب بادية السماوة. كان يقول حينها وهو يبحث عن العصا؛

اننا إن اردنا شيئًا، سيجدنا هو قبل أن نجده..

قيل أيضا أنه حجّ لقبر أبي ذر دون الكعبة، وعاد فغيّر اسمه وارجع فرسه. لا يعرف ماذا حصل له حين الحج.. وقيل أنه عاد لاطراف بادية السماوة والتف حوله بعض من العيارين القدامى على عقيدة أبعد من نعالهم القديم..

ولكن ما قيل من غرابة هو أن ترّاب نفسه هو حمدان بن قرمط، بل قيل أن ترّاب هو نفسه ألاب المجهول للمتنبي.. غريب أمر التاريخ، لقد اخفى كثيرا.

تاه الحافي. . وتاهت الصحراء معه والعقائد والانساب.

اقترب جيندار من حقيبته، وأخذ ديوان الشاعر المتنبي منها . لقد كان يرافقه وحده في سفره، لا يعرف لماذا . رفع الديوان بيده، وكان يضن ان أكثر الصحراء فيه، وقال للحافي:

في هذي الصحراء العربية تجد الانبياء وتجد الاغبياء. . غريب امر هذا الدم، غريب امر هذا الوجود.

الصحراء العربية تنجب افضل الخيل، أليس غريبا ؟، رغم انها رمل وحسب!.

الخيلُ لم تحبُ المدينة يوما لأنها لا تحبُ الطرق، لذا تراها تحب الصحراء.

يا صاح، كان ترّاب عربيا فوق العرب وفوق صحرائهم، ولكن قرمطيته من جعلته اعجميا . .

قال عيّارٌ أصبح قرمطيا مع ترّاب في بادية السماوة: ما أجمل عمر بن عبد العزيز دائما ودائما .لقد أمر بنثر القمح على رؤؤس الجبال، كي لا تجوع الطير عنده. . يا ترى ماذا كانت تسميه هذي الطيور، لا أضنُّها تسميه خليفة.

كان القمح فرِح كثيرا، كان الجبل فرِح كثيرا، كان الطير يصلي كثيرا . . كان هذا العيار القرمطي فرِح كثيرا . . قال: اننا نفعل مثله لا نريد لاحد أن يجوع.

. . لقد اراد النبي من العرب اخلاقا عربية لا صلاة عربية.

طلب الحافي من جيندار أن يصف له العيارين أكثر، فقال عنهم:

تعلّموا من الناعور في طوسه ان ينثروا الماء على الريح. . ان ينثروا القلب على العقل، ان ينثروا الجمال على الفقه، ان ينثروا الغني على الفقير.

يا حافي القلب: من استحقاقات الشجرة نهرها، لا يجوز لك اخذه منها . إنه لها، سواء كان في بلدك أو في ضِيَعَك. . النهر لكل الاشجار، والشمس لكل الثمار.

يا حافي القلب، الجياع إنْ تُركِوا بلا فلاسفة الخبز فسيجوعون اكثر.

هنا تأخذ الوجودية المُتدانية قُطوفها، هنا تأخذ مدارس القانون الطبيعي صفوفها . إنهما يتجاوران في الريح، لأنهما بشراع واحد.

تنفعني كلمة القرآن (دانيةٌ قطوفها)، فالفلسفةُ ان لم تجعل الحقيقة قريبةً فلن تكون لها قرابة

مع اسمها . والوجودية المتدانية مسلّتها هي آية (دنا فتدلّى) لانها تطوي المسافات. فحينما يدنو القلب تتدلى الحقيقة.

فما يسُنّه عثمان الخياط كبير العيارين واللصوص يفوق ما يَقرُّه كبير الفلاسفة والفقهاء العباسيين. . كَتَبَ الخيّاط على تابعيه؛ (أنْ لا تسرقوا فقيرا ولا إمراة ولا جارا ولا كريما، وأن لا تردوا على الغدر بالغدر، وان تكتفوا اذا سطوتم على منزل بسرقة نصف ما فيه وتتركوا الاخر ليعيشوا به، مهما كانوا أنذالا) . . هذه شيم الرجولة لا شيم الفقه، لم أجد يوما في الفقه شِيَماً .

أمام هذه العيار يفلس الفيلسوف في اسمه . .

لم يكن الخيّاط عالما ، كان لصّا فحسب. كان صعلوكا في المدينة وحدودها ، ولكنه كان عربيا في القيم وجدودها .

يا حافي القلب، لا يمشي ابا ذر الا مسافة عصاه، ولا يمشي العيّار الا مسافة فقير.

يا صاح، أخال أنّ العيارين شطّارا وشعراءً كانوا يعودون لمبدأ أبي ذر في حق اخذ مال الفقير بالقوة من الغني، لان كلمة أبي ذر؛ "عجبت لمن لا يجد قوت يومه كيف لا يخرج على الناس شاهرا سيفه" . . كانت هي من تصيح في ليلهم مبادئا في السرقة لن يطيقها الفقه، الطبيعة وحدها تطيقها .

كان العيارون يسرقون المعابد لاجل الفقراء. لا بأس، الكاهن يسرق الله، والعيّار يسرق الكاهن، كي تتعادل الحياة، يتعادل التاريخ، يتعادل الطريق، تتعادل السرقة.

تعسا . . الفقير وحده لا يتعادل، دائما يخسر لعبة الحياة.

4

على حين حسرةٍ من الناس قال جيندار لحافي القلب؛

إنك لم تفِ بوعدك . . الا تذكر أنّي شرطت عليك لرفقتي ان تجد مومسا تستحق اسمها لتخدمها يوما واحدا ؟ .

أجابه الحافي؛ أيا جيندار، لم اخلف الوعد، ولكن الوعد أخلفني. لم أجد نساء عاهرات، ولكني وجدت مجتمعات عاهرة.

أنها عيون انجيلك، إنها عيون الله.. بدأت أرى بها.

التفت إليه جيندار سعيدا بروح صاحبه، ونجاح الشرط؛

ياحافي القلب، إنتبه الى الآية إنها رواية.

انتبه الى البيض إنهم سود، انتبه الى المسلمين انهم يهود.

دعك من صلاتهم، إنتبه للحروب. دعك من عمائمهم، انتبه للجيوب.

غادروا الوطن وفي جيوبهم الله، وعادوا اليه وفي معابدهم جيوبا.

قال قسٌّ فرنسيسي بعد أن ساله أحد المسلمين في جزيرة إيرواد في بحر سوريا، عن ازيائهم التي لا تشبه مايرتديه القساوسة؛

.. الجيوب متهمة، لذا لا نخيط جيوبا.

بدأ التاريخ يشك بالكهنة يوم خاطوا جيوبا، أليس الاثواب الأكبر جيوبا بيننا هي ثيابهم؟. وراثة الزي تعني وراثة الخديعة..

يا حافي القلب لكم كنت أحب أزيائهم ولكم شككت أنّ القس فرنسيس تعلّم من قساوسة اخوان الصفا ذلك..

يا صاح.. حتى تعود الى الحقيقة فعليك ان تتنازل حتى عن زيك، لانه شريك في جرحها. فعل ذلك الرومي حينما داس عمامته. لقد رقص فوقها الرومي أيضا.

بدأ التاريخ يشُكّ بالكاهن حينما قال للناس؛ تعالوا ندخلكم الجنة بالاموال. متى غدت الجنة مزادا!؟. وهل يبقى الفقير بلا جنة!؟.

بدا التاريخ يشك بالكاهن، حينما قال للناس؛ تعالوا اطعموا الالهة قرابينا. متى غدت الالهة تاكل؟. وهل يشبع الله بجوعنا؟!.

يا صاح.. من يرى الحقيقة، إما أن يضحك كثيراً أو يبكي كثيراً.

.. وبدأ يروي للحافي حكاياته التي لا يُعرف أصلها.

يا حافي القلب لقد حكى أبو الشمقمق لصوفي روسي في السماء، انه تاهت يوم القيامة ضمن الحشود راقصة غجرية مشهورة هي وبناتها تريد بابَ النار فلم تعرف سبيله.. حينها رأت قطبا دينيا كبيرا هو وحاشيته تعرفه من بلادها وهو يعرفها، فلطالما كانت فتاويه عن

ماخورها . . سألته؛ اين الاتجاه الى طابور النار. قال لها لا اعرف، لأني انا أيضاً ابحث عن الاتجاه لطابور الجنة فلم اجده. . الحشود تضج وتتيه ببعضها، سكارى وما هم بسكارى. . سألوا احد الملائكة وكان قريبا، فأشار لهم على الطريق. . توجهت الراقصة هي وبناتها لطابور النار، وتوجّه القطب الديني لطابور الجنة هو وحاشيته.

على باب النار يقف ملاك. اوقف الراقصة ومنعها من الدخول، قال لها اسمك ليس هنا، قالت له تأكد اكثر، لاني من المؤكد هنا، كل الكهنة في الارض قالوا لي انتِ في النار، بل هذا امر اكيد فانا الراقصة الغجرية فلانة ولي ماخور مشهور. . قال لها انا متأكد ان اسمك ليس هنا فلا تتعبيني، لقد أُرْهِقْنَا بِكُمن ايام. . قالت له انت ملاك غبي، قد لا تعرف القراءة جيدا، اذهب وتأكد من ملاك أعلى منك. قال لها سيدتي أنا متأكد، وليس هنا من هو أعلى مني في هذا المكان، فبدأت تشتمه. . جائها ملك اخر، قال لها سيدتي طالما ان اسمك ليس هنا فاسمك في الجنة حتما، لانقاش في ذلك، نحن نعرف عملنا.

ضحكت كثيرا، وقالت له؛ إما انكم اغبياء، أو هنالك خدعة ما لتعذيبنا. . قال لها الملاك؛ سيدتي نحن ملائكة لا نخدع ولا نرقع، انتِ في الجنة وانتهى الامر. قالت له هل يُعقل انا التي فعلت مافعلت وفي الجنة؟!.

. . قال لها؛ بلى، صحيح انك بعتي جسدك، ولكنكِ لم تسرقي الناس.

في الجهة المقابلة يعلو ضجيج بين القطب الديني وملاك الجنة يمنعه من الدخول لان اسمه غير موجود لديه، قائلا له؛ اذهب لطابور النار، والقطب يقول له؛ ماذا تقول، انا الممثل لله في الارض ولا ادخل جنته، كيف؟.

. . فأجابه الملاك بحرقة؛ . . لأنك سرقت الله.

تركتُ الراقصةُ الملاكَ متوجّهةً لطابور الجنة، ورجع الزعيم الديني عكس سيرها فتلاقيا بعيونهم، يُطبِقُهُ هو الصمت والوجوم والجنون، وهي تُطبقها الدهشة والفرحة وتضحك. . حين عرفت منه خبر ناره انفجرت دهشتها فقالت له؛ غريب هو الوجود يا شيخ، غريب هو الدين، غريب هو الله. . . لقد منعتني انت من الرقص في الحياة، والان الاخرة هي من ترقص لي.

التفت لبناتها وراءها، تعالن نذهب لنرقص.

5

مشى جيندار بعيونه ألتي ارهقتها حكايات السماء وكحلها، فأراد للحافي حكاية من الارض لن تجد بها مدينةُ بُسطام الحقيقةَ حتى تعرف البصرة.

يا حافي القلب؛ لا تَسَل الفيلسوف، ماذا تفعل في أقصى الحقيقة؟.. سَله ماذ تفعل الحقيقةُ في أقصاك؟.

ياحافي القلب، عرفت من دفاتر الكحل عند رامة، أنّ البسطامي حين وصل اطراف البصرة مهاجرا من مدينة بسطام، قبل ثورة الزنج بسنوات، كي يدرس فيها علوم الدين.. رأى من مسافة ديراً بلا كنيسة، منعزل وحده في اطراف المدينة. كان غرفا لليتامى والجياع فقط. فعرج عليه يُريد أن يتزود بالماء ويصلي.

رأى راهبة تقف خارج الدير، وحولها الكثير من اليتامى يساعدوها على حرث الارض وزرعها.. كان على مسافة منها قسٌ يحفر بيده للزرع، عليه ثوبا يشبه به اتباع القديس فرنسيس.. وكلبٌ يلهو كثيرا هنا وهناك بين اليتامى، ولكنه لا يلبث ان يعود لأثواب الراهبة، وكأن للاثواب سحرٌ عليه.. قال في نفسه؛ هذا الكلب لم يُبقِ مكانا هنا الا ونجّسه..

أقبلت عليه الراهبة واخذته للبئر في باحة الدير.. بعد ارتواءه، قال لها بخجل وعيونه على الكلب تحتها؛ أريد مكانا طاهرا أصلّي فيه.

نزلت للارض تمسح على الكلب وكأنها تعتذر منه لان هذا الصوفي يراه نجسا.. ثم صعدت وفي عيونها كل الروح وقالت للبساطمي؛(... طهّر قلبك وصلّ حيثما شئت).

.. اشعلت هذه الكلمة كل صوفيته ومزّقت معها كل علوم بسطام ومُعلّميها، فبقي يُردّدها دائما.

لم يصلّ حينها، نزع جُبّته ليكتب صلاته قبل أن يتيه وضوءه.. دفن آخر ثوب لدين أجداده، فما عادت الجُبّة دينا، وماعادت الفلسفة حكمة.

كان جابر قد مات قبل عقود من مجيء البسطامي للعراق، ولكن تلامذته كانوا منبثين في روح البصرة، فوجد البسطامي روحه.. حين دخل محفل اخوان الصفا مترددا، وجد راهبا يرتل القرآن، وكان قد شاهده هو نفسه خلف تلك الراهبة في ذلك الدير.

سأل البسطاميُّ هذا القس، ما قصة تلك الراهبة.. أجابه بكل هدوء؛ إنها مومس من نينوى التحقتُ بها هناك، حينما عبرت يوما مزرعتها وبئرها ويتامها، وعرفت معها أرضا لله لم أجدها في كنائس أرض أورشليم.. فوراءها قصة يعرفها ذلك الكلب جيدا.

ثم جئنا للبصرة بكل يتامانا بعد أنْ كفّرها بطاركة نينوى، لأنها كانت تقول للناس؛ لا يهم ان تدخل على الكنيسة، ما يهم هو ان تدخل على عيسى.. أبغض شيء للمسيح كنيسته، وأعز شيء عليهم تكنيسه.

يا حافي القلب، وقتذاك ارتفعت حيرة البسطامي، فعاد يردّد؛.. طهّر قلبك وصلّ حيثما شئت.

يا حافي القلب.. في جمهورية الله، الايمان ليس ان تقول بوجوب الحجاب، الايمان ان تقول بوجوب القلب.

أنْ ترى ايمانك هو القيامة والتوحيد، غيره أنْ تراه إنسانوية لا تَحيد.. أن ترى دينك حلالا وحراما، غيره أن تأبى حُرْمَتُك الشر.

أن ترى الدين هو وجوب الصلاة غيره ان تراه هو وجوب القيم.. قل لإبن سينا؛ الله واجب الإنسانية لا واجب الوجود.

الايمان ليس ان تقول بوجوب الله في السماء، الايمان ان تقول بوجوب الخير في الارض...

يا حافي القلب؛.. عبادة الله هو أن تؤمن بالعمل الصالح وخيره وليس بالمسجد الابيض وقبته، ولا بالكنيسة الصفراء وناقوسها، ولا الموبدان الاحمر وتماثيله.

هذا ما التقى عليه اخوان الصفا من مسلمين ومسيحين وزرادشتين ويهود، وعلى هذا كان اسمهم.. ارادوا اسم الصفاء، لانه أصل القلب وطهره، أصل الماء وصفوه.

كان الخيميائيون يحبّون اصول الاشياء في الطبيعة كما في القيم. كان جابر صوفيا حتى في خيميائه، فكانت صوفيته من الصفو قبل أن يجعلوها من الصوف.

يا صاح، قال الكحّال لتلامذته؛ طلب بدوي من النبي أنْ يُعلّمه الاسلام، وكانت قبيلته وراءه، فاجابه؛ لا تكذب.. خرج لقبيلته فلامته القبيلة بكل كحلها، عد إليه اننا نريد الدين لا

الصدق والكذب. . عاد يلح عليه، جئتك من اقصى الصحراء ومن اقصى القبيلة فعلّمني الدين. أجابه؛ لا تكذب. . لامته القبيلة مرة أخرى، عد اليه. . فعاد أيضا بـ: لا تكذب.

لن يعود البدوي اكثر من ثلاثة. القبيلة لامته أيضا، ولكن روحه لم تلمه، كانت تعلم ان العربي حين يقول الشي ثلاثا فانه يقول الحقيقة كلها. . اما المسلمين اليوم فحين يحلفون على الشيء ثلاثا فهم يقولون الكذب كله.

يا حافي القلب؛ لقد اختصر النبي للبدوي كل الطريق، كما اختصرت الراهبة للبسطامي كل ترابه.

هنا تضع كلمة ابن أبي طالب نقطتها؛ (العلمُ نقطةٌ كثّرها الجاهلون). . مشكلة الدين، هو أن الله قد بسّط الحقيقة ولكن الكهنة عقّدوها.

يا صاح. . إنْ رأيتَ دينا كهنته كُثُر فاشكُكْ فيه، وإنْ رأيتَ الحقيقة كُتُبها كُثُر فاشكك بها.

يا صاح. . إذا أراد التاريخ ان يذل دينا كثّر كهنته.

. . نبي أبي ذر واحد، ولكن الكهنة كثيرون!.

. . النبي لم يكن كاهنا، فلِمَا المتدينون كهنة!؟.

يا صاح. . الكتب شأنها شأن الكهنة، كلما كُثُرت الكتب ضاعت الحقيقة، وكلما كُثُر الكهنة ضاع الله.

ما أكثر الكتب في التاريخ وما أقل الحقيقة فيه، ما اكثر المعابد في المدينة وما اقل الله.

ما اكثر النساء في الطريق وما اقل الحب في الاقدام، ما أكثر الجمال في الشفاه وما اقل الروح في العيون.

النبي يختم جبريلُ معه كتابا واحدا. . للكهنة كتب كثيرة!.

يا صاح. . خرج الانبياء في الصحراء كي يبقوا عراة كرمالها، يخشون ركام المدينة. القرآن كذلك، كان يخشى ركام الكتب. . وهكذا فقدنا كتابنا منذ ان كتبنا أكثر من الله.

6

بقيت كلمة الملاك للراقصة؛ (لأنكِ لم تسرقي الناس) تشغل الحافي كثيرا، كما بقيت كلمة الراهبة؛ (طهّر قلبك وصلّ اينما شئت)، تشغل البسطامي كثيرا . . فردّد الحافي؛ طهّر قلبك وارقص اينما شئت.

أحب جيندار ذلك منه، فقال له؛

يا حافي القلب رِدّد شاعر هندي؛ (أُريدُ أن أُصلّي، ولكن أخشى ان لا يُصدّقُني الله).

وردّد معه عاشق؛ أُريد ان أعشق ولكن اخشى ان لا يُصدّقني قلبي.

ياحافي القلب، قال الكحّال في رسالة الكحل؛

بغياب الخير يكون الله بلا معنى. بغياب الكحل تكون العين بلا مغنى.

بغياب الصدق يكون الايمان بلا معنى. بغياب الحب يكون القلب بلا مهنى.

يا صاح. . أكبر كذبة في القومية الدينية هو اننا مؤمنون، فإيمان الناس ولعٌ جماعي فحسب.

الا ترى أن أمة الكاهن هي دائما أمة الطاغية.

في جمهورية الله؛ يبدأ الدينُ كهره حين يغدو بيت معبده اكبر من بيوت فقراءه. يبدأ المعبد كهره حين يغدوا كاهنه أغنى من الناس.

يا حافي القلب، سمعت فقيرا جائعا ترك ارتياد المعابد يقول؛

المسجد ليس بيت الله، هل يملك الله بيوتا أكبر من الفقراء ؟ !.

عاد الدعاة وبقي الرعاة. .

غفى المعبد وسَهدَ المصلين. .

بقي للصوفي صوفه وذهب صفوه. .

يا صاح. . لدى الله تدفئة إنسان اهم من تدفئة مسجد، ودفء إنسان اهم من صلاة دافئة.

يا صاح. . في الزمن الحزين، لدى الله؛ عيونٌ مُغنيّة أهم من كعبة مُصلّية. .

يا صاح. . صلاةُ المعبدِ الفخمِ حرامٌ.

الصلاة في مساجد الكهنة خطيئة، وفي اكواخ المعدمين عروج.

أحرّمُ على نفسي دخول المسجد الفخم، ليس لان الله لا يدخل عليه وانما لانه يُدخل الفقر على الناس.

يا صاح. . من مخازي الاديان في التاريخ انها انفقت على معابدها أكثر مما انفقت على فقراءها.

. . ألا يكفي كفرا للمعابد انها بنيت بجوع الفقراء.

الغريب أنّ الطغاة هم من بنوا أكبر المعابد في التاريخ وليس الانبياء !.

ترنّم حينها بكلمة رابندا؛ (ان المخلوق الشرير يريد ان يبني معبدي !).

يا حافي القلب، لهذي الكلمة حكاية، فالهنود لا يعرفون الا الحكايات؛

. . يحكى أن الملك الهندي طلب أن يأتوا له بالقديس البوذي (تورا) لانه لم يقبل أن يدخل المعبد الكبير، الذي بناه هذا الملك.

قال له الملك؛ لما تتخلى عن معبدي ذي القبة الذهبية وتصلّي في القرى فوق التراب.

تورا؛ لان الله لا يوجد في معبدك.

الملك متجهّما؛ كيف وقد كلفني المعبد عشرين مليون قطعة ذهبية.

تورا؛ اجل اعرف، واعرف انه كلّفَ البلاد هذه السنة جوعَ مليون فقير.

الملك؛ اتركْ بلدي

تورا؛ (أجل شرّدني انا كما شرّدت الهي).

يا صاح. . العقل الهندي عقل شعري، أوّله وآخره قلب. . القلب العربي قلب فقد كل شفتيه.

. . تلك امة وراء قلبها الا العرب أمّة وراء حربها.

لقد قال أبو النواس لأبي العتاهية؛ لا تلم ابا الشمقمق حين يضحك كثيرا، أعذره، لأنه أُمته مُضحكة.

ردد النفري؛ العرب لا تكتب ولا تحسب، وردّد جيندار؛ العرب لا دين ولا دم.

يا حافي القلب؛ أكبر كذبة في القومية العربية هو إننا مسلمون، فإسلام العرب ولع قوميٌّ فحسب.

القومية العربية للدين كانت افضل من القومية الدينية للعرب. أقرأ مروءة الفارس العربي في ذي قار، وأقرأ مذبحة الجسر العربي في بغداد.

لم تكن مشكلة العرب انهم خسروا قيامتهم في دين اللحى، المشكلة هي انهم خسروا قيمهم العربية بها. فضيعوا المشيتين.. فلم يعودوا مسلمين ولا عربا.

7

من على ازقة طينية تتوحل، في ليل شتوي كوفيٍّ، تفاجأ جيندار وحافي القلب من مسافة برؤية صبي يخلع بابا خلفيّا لمعبد، متجها به لرزمة من الأكواخ تصفُّ بعضها صفّا.

تابعاه في مسلك طيني، اختفى الصبي داخل تلك الأكواخ. يلوح ضوء خافت، تقف عنده عجوز يقف عند عيونها الالم. لقد فهمتْ أنهما وراء ابنها وبابه، لكنها فهمتْ أكثر من مشيتهما أنهما من ابناء الله.

إقترب منها جيندار: أماه، ما قصة وقوفك امام الليل، وما قصة عيونك وراء الحزن.

العجوز: بُني، عيوني من تاهت باقدامي هنا، وليست اقدامي من تاهت هنا بعيوني.. اننا الفقراء تائهون، سيان معنا النهار والليل، لا تنفعنا القناديل.

بني؛ الحياة التي لا تعطي لكوخنا باباً، كيف تريدها ان تعطي لطيورنا غاباً!.

كانت تتلوى من جوعها أم من وجعها؟، لا يهم، فالحروف هي الحروف.. تلتمُّ على جسدها أكثر، وتعود تُحدّث جيندار.

بني؛ القلب هو الله، وانا التمُّ الان على قلبي.. لم يبق للناس ناس، ولم يبق لله الله.

بني؛ كوخي بلا باب، ولكن معبدهم بلا إله.

تفاجأ جيندار بكل تلك الكلمات التي لم يمر عليها مع قدماء الحكمة.. فيجيبها؛

أمّاه.. الوجود يصل بكم انتم المتألمين في الطريق، بما لا نصله نحن المتأملون في الكتب.

أُماه.. الله يَصِل بكم انتم الفقراء. الله يُصلّي بكم.

انتبها الى الاعلى، كان الصبي يعلو كوخه، يصلحه بلا قمر ولا قميص.. قال جيندار للحافي؛ حان وقت الصلاة، دعنا نُصلّيها بإصلاح الكوخ. فغطّياه بباب المعبد مع الصبي.

اعطيا بعض ما لديهم للعجوز، وغفلا راجعين في الازقة. . الطين يمشي بالطين.

جلسا في إيوان قديم يعود لأيام الكوفة الاولى في جيلها الثالث، وعيون العجوز ما زالت فوق عيونه. . قال للحافي؛

لدى الله ركعة واحدة بحمل اثقال الناس، خيرٌ من الف ركعة بحمل ثقل ظهرك.

يا صاح. . اترك الصلاة ولا تترك جائعا. ذلك شرع الله، والا تكون قد جعلت الله قاسيا .فالصلاة هي ان تملأ جائعا لا أن تملأ محرابا.

لدى الله، الفقير أولى ان تحج لجوعه من الكعبة ان تحجّ للحاها. . لقد ردّد إمامٌ حقيقي وسط الطائفين بحسرة؛ "ما أكثر الضجيج وما أقل الحجيج". وردّد الصوفي بن سبعين؛ الطائفين حول الكعبة حمر المدار.

لقد سُميَ هذا الامام الصوفي بزَين العابدينَ ليس لأن محرابه كثير العبادة، وانما لانه للجياع كثير العيادة. . كان يحج لابواب الجياع ليلا بالطعام وليس لأبواب المعابد صباحا بالصلاة.

يا صاح، لن ترى الله في قلب كعبتك، الله من يُرى في إنسانية قلبك.

يُرى الله في يدٍ قادت أعمى تهدّمت عيونه، في يد مسحت رأسا تيتّمت عيونه، في يد اطعمت جائعا تلوعّت عيونه، في يدٍ قبّلت كل العيون.

هنا كل البسطامي بين الحقيقة والشريعة، وهنا طاف البسطامي بالله حين طاف بعجوز فقيرة سبعا وأعطاها مال حجه. . ترك كل الكعبة ورجع بكل الله.

تفوّه عمر بن عبد العزيز فُقْهَاً لم يصله ايُّ فقيه قط، فقال؛ (الافواه الجائعة اولى بالمال من بيت الله). لكم أُحِبُّ هذا الرجل.

حين يجوع الناس يكون الخبز عند الله اهم من الله نفسه.

يا صاح، ان كانت كرامة الإنسان تبدأ بالخبز، اذن الخبز اهم من الكعبة وحجّها. فالنبي من قال؛ (كرامة الإنسان اهم لدى الله من كرامة الكعبة) وليس ما ركس.

لم تمش قبل أبي ذر المسافة بين الفقر والكفر كلمة كما مشتها كلمته؛ (اينما ذهب الفقر قال له الكفر خذني معك).

لم يكن أبو ذر غَضِبَاً بسبب نساء الليل في القصر، كان غضبا بسبب اطفال الجوع في الكوخ.

لم يكن غَضِباً من القصور الفخمة فحسب، كان غضبا من المعابد الفخمة أكثر.

يا صاح.. من ورّث كنزا فلقد ورّث فقرا، ومن ورّث كاهنا فلقد ورّث كفرا.

أيها الحافي لم يورّث أبو حنيفة كاهنا بعده، فلا تصدق الكاهن أبو يوسف عنده.

أيها الحافي.. لا إرث للانسان من ابيه في غناه، أخطأ الفقه. هذا من الزوايا الحمر لفقه الصحراء، هذي من قرمطية ترّاب بين الدهماء.

يا صاح.. الانبياء لا ينجبون شرائعا، الانبياء ينجبون شوارعا.

أيها الحافي.. قال ترّاب للصٍ شريف أراد الالتحاق بقرامطته؛ الخيل أيضا تتعلم من الفارس.

سأله اللص علمني دينك.. أجابه؛ بسيط هو عِلْمُه.. أن تسرق مال الغني في النهار، ولكن إياك أن تعطيه للفقير الا في الليل.

مسافات الضريح

(لقد كنت تحمل نارك، فهل أنت الان تحمل رمادك؟..)

. . . صاحب زارا

1

بعد يوم الناقوس والاذان، مرّ الف مرة بآذان قلبه، ومر ألف مرة بألوان خطيئته. لم يغضب يوما من القبح والخطيئة، كان يغضب من الحياة التي تمنعه من الجمال والفضيلة.

دائما كان يعيد بوذية أنجيله متحسرا؛ يا سورين، حيّرتني الحياة، تريد أن تشبع بالصدق فيشبع بك الكذب، تريد ان تشبع بالفضيلة فتشبع بك الرذيلة.

كان الحافي يشاهد ذلك على عيون صاحبه منذ أن التقاه قبل أربعين يوما . . لم تعد الاشياء تهدأ معه، ولم يهدأ يوما مع شارع في المدن. دائما كان منطقه؛ إمش لمدينة اخرى، توسخت كل المدن، مدن القلب مازالت بعيدة.

دخلا يوما بليلٍ مدينةٍ مغمورة، على مسافة سيف ونصف من جنوب بغداد، مدينة كانت تنفع ثوراتها كثيرا . . تماما كما بين ربوة رامة وليلى العامرية مسافة ناي ونصف، ربوة كانت تنفع عشاقها كثيرا .

قال قيس في نهاية رامته؛ (و لما تلاقينا على سفح رامة. . . وجدتُ بنان العامرية أحْمَرا) . . وقال صاحب الزنج في بداية ثورته؛ ولما تلاقينا على جرف دجلة. . وجدتُ بَنَانَ الغاضرية أنْهرا .

هذا البيت، كان يحكي عن لقاءه بريحان وهو الزنجي الأول لثورته، والذي بقي ريحانها في وفاءه. . حيث كان آيسا من الناس قبله، فلقد تعذب الزنج من سادتهم المسلمين عذابا لايقبله دوابهم، ولكن المسلمين قبلوه عليهم. . كيف فعلوا ذلك بهم وقد كان بلال جدهم.

ثم مشيا بكل بلال وبكل الثورة وبكل الزنج.

لقد بدأ صاحب الزنج ثورته بزنجي واحد !. إنه ريحان. زنجي كان قد سمع حكاية ثائر نينوى وبنانه. . الحكايات تكفي للثورة أحيانا .

تفاجأ صاحب الزنج في مدينة واسط ان أرض نينوى لم يتوقف لهيبها، وتفاجأ قيس الملوح في ربوة رامة أن ليلى العامرية لم تنس حبيبها .

مشى الاصبع المقطوع لذبيح نينوى في دجلة وجرفها، ثورات وثورات، ومشى الاصبع المخضب لليلى في رامة وسفحها، حكايات وحكايات.

رأى جيندار من بعيد اضواءاً تحيط بقُبّةِ ضريح من نسل نبوي تتبرك به العامّة. ولكنه فاجئ الحافي بأن هذا الضريح لصاحب الزنج علي بن محمد عينه، وتنهّد؛

ياصاح، هذا شأن الشعوب. . يعرفون قصر كسرى قاتل مزدك، ولا يعرفون ضريح مزدك الثائر على كسرى.

ياصاح. . أمامَ هذا الضريح يمكنك أنْ تَفْهَم كيف أنّ المسلمين يُضيعون من كان شرفا، ويعظمون من كان عارا .

ياحافي القلب. . الليلُ يحب رجل هذا الضريح اكثر من النهار، لان الزنجي الاسمر يحبه كثيرا .

ياصاح. . هنا ينزل الله كثيرا، حينما تَمِلُّ الايامُ من التاريخ. إذن دعنا ننزل عنده، فلقد مللنا الايام والتاريخ سوية.

تمتَم زنجي وهو خلف هزيمته، جائه يزور قبره خلسه بعد اعوام من مقتله وبعد تشرد الزنج في جنوب العراق؛

يسرُقُني الوجدُ أنّكَ صاحبي، وانّك النخل والنحلُ.

. . . وانك القبرُ إذا ما شفّ جسمُه، هنا أيُّها القبرُ توقّف الرحلُ.

يا صاحِ. . كان العيّار ترّاب يسمي كل من كان من عصبة ثورته وعقيدته بالرفيق، هذا الاسم تعلّمه عن الكحّال بعد أن وضعه للعيارين الذين نزل عندهم في أول معرفته بترّاب، وكانت جماعته من اخوان الصفا يفضلون لقب الاخ، فاصبح فيما بعد اسما قرمطيا علّمهم إياه ترّاب. . قال حينها الكحّال؛ تبقى كلمة اخ كلمة دم لا كلمة روح. ولكن كلمة رفيق ترقى بمواثيق تفوق الدم. . إنها مواثيق الطريق.

أمّا صاحب الزنج فكان يسمي ريحان بصاحبي، كما باقي ثوار الزنج. لذا كان يقول ما اغرب القدر جعل اعدائي يسمونني بما أحب. . ولكنه كان يكره الكهنة حين زوّروا هذا الاسم فجعلوه لكل من عرف النبي أو رافق مدينته لنهار واحد، حتى وإنْ خانها في كل الليالي.

لم يدّعِ صاحب الزنج انه صاحب للانبياء ولم يدخل معبدا، ادعى أنه صاحب للسود فحسب. . كانوا اصحابا إينما ثاروا، اينما تاهو. . اينما جاءوا، اينما ماتوا.

. . اخذ جيندار بعض الصمت. . بدأ يُحدّق في الليل أعلى قبة الضريح. ثم ردّد؛

وانزفُ على اوراقك الروح، واشربها سِرّا.

واخزفُ على طينك الكف، فتختمني عطرا.

2

جلس جيندار الى زاوية من الضريح، تنفس عميقا. . ياصاح؛

الرومي يُحدّث قلبه؛ (ياقلبُ اجلسْ قربَ ذاكَ الذي لديه خبر عن القلب). وانا أُحدّثه؛ ياقلبُ اجلس قرب ذاكَ الذي لديه خبر عن الصليب.

يا حافي القلب. . لاتَسَلْهُ، ماذا تفعل في أقصى الضريح. سَلْهُ، ماذا يفعل الضريح في اقصاك.

ولكن الحافي مازال مذهولا، لقد علّموه أنّ صاحب الزنج كافرٌ في التاريخ. . . فقال لصاحبه كيف ذاك؟.

أجابه جيندار؛ لا تعجل. . تريد الليل قبل النهار!، لا بأس، أُحدّثك عنه، ولكن تحمّل بعض نجومه.

يا حافي القلب، عرفت من دفاتر الكحل أنه حين انكسرت ثورة زيد وصلبه في الكوفة، تفرّق كثير من الثوار هاربين من بطش الدولة الاموية، فلقد ارسل السلطان الاموي من يتبعهم في الامصار فقُتِلَ يحيى بن زيد في آخر خراسان، ونجى آخرين. . كان ممن نجى ثائر من نسل الفارس الشهير العباس بن عليٍ صاحب راية كربلاء . .

حين وصل الهند غيّر اسمه واخفى أصله حتى عن الهندية التي تزوجها، وبقي بسره حتى جاءه الموت فأفشى لابنه سر أصله العربي ونسله النبوي في لحضة فراشه، وطلب منه ان يعود الى ديار اجداده. لم يكن يهمه نسل الدم، كان يهمّه نسل القيم. . لكن الطالبيين في بغداد كذّبوا أصله فمات كمدا فيها . . ولطالما تقتل بغدادُ احفادَها .

من هذا الأب المكذوب في أصله وُلِدَ صاحب الزنج. . حين شبّ، لم يكن همّه أنهم كذّبوا أصله، كان همّه أنهم خذلوا ألاصل. . إنه من نسل العباس ابن عليّ، الذي علّم في كربلاء القيم نسلها .

قال صاحب الزنج لصاحبه الزنجي ريحان؛ أردت أنْ أخلط أصلي بأصل السود كي تعود قيمُ محمدٍ بيضاء . فلقد سوّدها المسلمون.

أيها الحافي، لم يقبلوا صلاة صاحب الزنج لان جُبّته لاتنتمي لقوم، ودينه لا ينتمي لصلاة. . يبدأ بالاسود وينتهي بلونه، ولا يعرف من الوان الله الّاه.

آه، كان صاحب الزنج أبيضا لم يقبل غير السود .

صاحب الزنج حتى وإنْ كان منتميا في صلاته. ولكنه كان لا منتميا في ثورته، لذا نصر الوثني على المسلم في ظُلمه، لان الصلاة لا تدخل في قياس الظلم ولا في قياس الله.

لدى الله؛ الكاذب ليس مسلما مهما طاف بالكعبة، أما القاتل الظالم فلا ينفعه حتى لو طاف بالله نفسه.

لدى الله، وثنيٌّ صادق خير من مسلم كاذب. هذه البديهية الالهية يكفرونني عليها ! . وانا أُكفّر التاريخ لانه كفّر بديهية صاحب الزنج، حين وقف مع الوثني العبد وجوعه ضد المسلم السيد وسوطه.

كان يلتهم اسرار المعبد وينام على هدم محرابه. يغوص في جرح الليل ويشرب ما بقي من نزيفه.

لم يلحد يوما الا بلحده للدين، فكان هو المؤمن الوحيد..

أحيانا من الدين أن تخرج على الله.. لا إيمان الا بهذا الكفر، لا قبلة الا بهذي الشفاه.

أحيانا، كي تجد الله عليك أن تخرج عليه.. تماما كما عليك ان تخرج على نفسك كي تجدها.

ردّد جيندار بحسرة؛ آه من يفهمني..

كيف ستفهمني الدروب.. كُلّي حصى، انا من كُلّي حصى وليس الدروب، الدروب من تعثرت بي.

وعاد يروي للحافي عن بياض صاحب الزنج؛

كان يدين بالف دين ودين، ولا يصلي مع أيٍ منهم!.

يكسر جرّة الدين، ويشتاق الحجرُ الاسود انفاسه!.

.. تساله لما ؟ فيجيب؛ ماء النبي لا تحمله الجرار.

فزّ الحافي لهذي الكلمة كثيرا؛ ماء النبي لا تحمله الجرار.

يا حافي القلب، كان صاحب الزنج يُقدّس كثبان الرمال، لانها لم تقبل صلاة الولاة. وحدهم الحفاة كانت تصلي بهم.

كان صاحب الزنج يكره القباب، لانها تعزل صلاته عن السماء.

آه، كرر صاحبُ الزنج لزنجه في البرية وهم بلا معبد؛ لا تحزنوا، فالثوارُ يُصلُّون في العراء.

لا تحزنوا، الكهنة يصلّون تحت القباب، لذا هم لا يعرفون السماء. وانتم تصلّون تحت الشمس لذا هي تعرف لونكم.

يا حافي اللقلب، كان الولاة يعزلون الشمس بالقصور، وكان الزنج وصاحبهم يجمعون الشرف بالقبور.

.. دعك من البيض، وحدهم السود اصدقاء الشمس.

يا حافي القلب.. لكثرما كانت البشرة البيضاء قلبها اسود، والبشرة السوداء قلبها ابيض.. غريب هو لعب الوجود، غريب هو لغز اللون.

لم يكن الزنج يطلبون لونا من التاريخ، فالتاريخ دائما يخون لونهم.

آه، يا حافي القلب، هكذا كان يُردّد الكحّال وهو يبيع الكحل جوالا في القرى؛

لا تعرف البشرية ان احلى الايام لياليها، وأن احلى العيون سودُها..

تذكّر ذلك وهو يقرأه في دفاتر الكحل على عيون رامة، فلقد أحب انشودة الكحّال هذي التي كان يُردّدها بين القرى.. حينها قالت له رامة؛

أيا جيندار، لم يعد يقبل القمرُ كحلي اسودا.. أجابها؛ لأنك تركتيه بلا ليل.

قالت له؛ نغمك ابيض.. قال لها؛ غرابك أبيض.

لمس وجهها؛ آه.. كلنا بلا لون فكيف سيعرفنا الله.

3

يا حافي اللون، لو كان لي حقٌ في حريةِ الاذان، لكنت قد أضفتُ أحيانا؛

أشهدُ أن يسوع سِعةُ الله، وأنّ غاندي أغنيةُ الله، وأنّ صاحبَ الزنج صاحبُ الله، وأنّ ابا ذر ابن الله، وأنّ فاتح السند لصُّ الله.

آه، إني أحب لعبة الآذان هذي، كما أحب لعبة الكحل تلك.

يا حافي القلب..

الآذان ليس صوتا في إعلام الصلاة، الاذان صوت في إعلام الحقيقة.

صعود بلال الاسود فوق الكعبة هو صعود الحقيقة وليس صعود كلمات الله الاوحد فوق هُبل.

بكل بداهة؛ دليل نبوة محمد هو صعود بلاله لا نزول قرآنه.. لكم كان علم الكلام غبيّا.

اضطج ارستقراطيوا قريش حينما رأوا بلالا يؤذّن على ظهر الكعبة يوم فَتْح مكة. ردد عتّاب ابن أسيد موجوعا؛ (الحمد لله الذي قبض أبي حتى لم ير هذا اليوم). تحسّر الحارث بن هشام؛ (اما وجد محمدا غير هذا الغراب الاسود مؤذنا).لقد سُمّيّ أيضا صاحب الزنج بالغراب.

ياصاح، أصبح الله هو الله ومحمد هو محمد، حينما جعلا هذا الاسود العبد الجائع يصعد ليمثل السماء، دون أيٍ من سادته في قريش.

هنا الله الحقيقي، في صعود الاسود على الابيض، العبد على السيد . وهنا انين قريش من النبي. هنا أنين المتنورين من صاحب الزنج، حين جعل للعبيد علوا وللسادة دنوا . أي تنوير هذا، وهل لصاحب الزنج بياضا غير ذلك!؟.

عودٌ أبديٌّ في القطيع، لقد إنتهى المثقف عبدا . . دائما يعود زمن العبيد، دائما هي احلامنا مقلوبة. فلطالما شاقني زمن ألف ليلة وليلة ولكن لم يعد منها الا العبيد فقط.

كيف يُلام صاحب الزنج بذلك وهو شغلُ الله الأول مع بلال، والبديهية الاولى في الحلال.

هكذا ردد متنوري السلطة؛ صاحبُ الزنج زنجيٌّ.

صاحب الزنج لم يتعلم العقل في روما، الَزنج من علّموه القلب بكلّ الليل. فأي فيلسوف تعلّم البياض من زنجه.

ليَنَمْ افلاطون في أكاديميته، وليَمُتْ صاحب الزنج في زنجه. هذا يكفي لفضيحة الفلاسفة.

يا صاح، تأخّرَ صاحب الزنج عن رقاب الولاة مرةً، فظنّوا ان اموالهم وقصورهم وجواريهم أخذن لبه، ونسوا ان لُبّه خرج عليهم بسبب تلك القصور.

لم يعد في جوفه لُبٌّ، كما لم يعد في غمده سيف. كلاهما يهرولان في الثورة.

يا صاح. . لو جائني جبريل لطردته، لاني لا اقوى على النبوة. . لو جاءني العشق لطردته، لاني لا أقوى على العيون. . ولكن لو جائتني ثورة لعانقتها، لأني لا اقوى على الخنوع.

يا صاح، لم يكن خروج صاحب الزنج دفاعا عن السماء الزرقاء وإلهها، وانما دفاعا عن البشرة السوداء وانسانها.

لم يخرج صاحب الزنج لا جل دين. هو خرج على المسلمين من اجل الوثنيين. . لم يكن الزنجُ مسلمين أصلا.

ما أعظم ان تخرج على الدين من اجل الإنسان، ما أعظم أن تخرج على المعبد من أجل العبد. . لقد جعل من عبيد الولاة سادتهم. امر لم يجرؤ على لونه احد.

ياصاح؛ كان صاحب الزنج راهبا يُحرّم العبودية في زمن يحللها . كان ابيضا يُعظّم اللون الذي يجعلك اسودا .

يا حافي القلب، لا يدخل الطبقيُّ اسم الفضيلةَ حتى يَلِج القمرُ جِحرَ الافعى، لا يدخلها حتى يدخل الكاهن اسم الصلاة.

. . فإن دخلها فلاتبقى الصلاة صلاة ولا الفضيلة فضيلة.

يا حافي القلب، مذ صنعنا سيدا وعبدا في الفقه كنا قد دخلنا المسير الكاذب لأسم الله.

النبي يحرر زنجيا واحدا اسمه بلال، والمسلمون من بعده يستعبدون الافا منهم! . ما أسرع الانهيار .

لقد جلبوا الزنج من سواد افريقيا، بلا حرب ولا سبي ولا عذر، جمعوهم كما الدواب لاجل سباخ الارض، ولكن لم يعلفوهم كما تُعلف! . أي تاريخ للمسلمين هذا ؟ .

يا صاح، قال هندي لآخر؛ انت تؤمن بالله خلف الكاهن، وأنا اؤمن بالله خلف الجياع.

جبريل دائما يعبر الارض من عتبة المأساة، وليس من عتبة الخطيئة. . أبو ذر كان مهتما بمأساة الفقراء لا بخطيئة الغانيات، بالعبيد وليس بالزناة، بشاربي الذل وليس بشاربي الخمر. لان الحقيقة الأكبر هي؛

. . . أنْ لاخطيئة إزاء الله، الخطيئة إزاء الإنسان فحسب.

قال له الحافي وبيده اوراق الشوارد؛

أيا جيندار، عرّف لي الزنجي لوثر كنغ. . أجابه؛ لوثر كنغ. . أسودٌ علّم القلبَ بياضه.

4

ما زال الضريح امامهما، وما زال الليل بكل سواده، وما زالت حكاية الزنج بكل بياضها .

جيندار للحافي؛

وحده الجرح من يجعلنا نتحسس الحقيقة. . ظهري وجرحي وحدهما من يحملاني.

جرح صاحب الزنج في حسرات زنجه هو من جعله صاحبا لسواد افريقيا، وعدوا لبياض بغداد. جرح أبي ذر هو من أرخ له.

الكبار كانوا بجراحهم لا بعقولهم، والا لفاق بعض الفلاسفةُ كل الثوارَ والانبياءَ.

شأن الحقيقة تماما كالعنقاء، بعد اقصى الرماد يظهر البعث، بعد اقصى الجرح يظهر العزف.

وحده صاحب الزنج عَزَفَ بزنجه، لذا لم يجد الزنج نايهم الا فيه. كان سواد الزنج معباً بالانين، وكان ليلهم معباً بالسواد.. أقطع أنه، مع مثل هؤلاء ولد الناي في يد الإنسان. لقد ولد ألالم قبل ان يولد الناي، لانه ولد بهم.

الناي يعزف بانفاس المتألمين لا بقصبات الطين. قصبُ البردي كان لا يعرف اسمه ناياً قبلهم. سمع المتألمون صفيره في مساء الريح، في مساء الالم، فعرفوا ان القصب يحكي للوجود عذاباتهم. هنا اتحد الإنسان بالطبيعة، وهنا ولد الناي.

يا حافي القلب، حينما اتّحد الإنسان بالألم اكتشف الناي، وحين اتّحد بالحقيقة أكتشف القلم. لم يظهر القلم والناي عبثا.. لم يظهر اسمي عبثا.

كم جميل ان تُعطيك الحياة اسمك، كم عظيم ان يُسمُوك في لحدك لا في مهدك..

يا حافي القلب.. كان صاحب الزنج يحتقر ان يكون ابنا للاسماء، ترك حتى اسمه لاعدائه. هم من أسموه بصاحب الزنج كي يجعلوه من العبيد ولونهم. كانوا يظنون بأنّ تسميته على زنجه تُعيبه، ولكنه عيبٌ فَرِحَ به اكثر من الزنج أنفسهم!. وفي هذا اكرمه التاريخ اسما من لسان اعداءه.

تخلى عن كل الاسماء، وبقي بإسم زنجه.

من كانوا مع صاحب الزنج كان هو صاحبهم، وليسوا هُم اصحابه.. هو من صَاحَبَ الزنجَ وليس هم من صاحبوه.

يا حافي القلب.. أن تكون صاحبا للزنج غيره ان يكون الزنج هم اصحابك.. أنْ تكون صاحبا للنبي، غيره أن يكون النبي هو صاحبك..

كان النبي صاحب أبي ذر.. لقد تأخر عنه مرّةً، نظر في مدى الصحراء فرأى خيالا يختلط بالسراب من بعيد. قال يخاطب ذاك الخيال في الصحراء؛ "كن أبا ذر".. آه، لم يقل كن جبريل.. إنه يريد صاحب نبوته أكثر مما يُريد وحي نبوته. إنه يريد صاحبا من البشر، لا يريد ملاكا من الله.

يا صاح.. لم يختر صاحبُ الزنج اصحابا من الوجهاء والعرب ولا من المسلمين. الزنج وحدهم كانوا اصحابه.

خرج صاحب الزنج على القومية، وعلى البشرة، وعلى الحسب والنسب.

كأنه شَرطَ على من يريد القتال معه شرطَ النِفّري؛ (آليت الا اقبلك وانت ذو حسب ونسب).

الكل اتهموه في نسبه النبوي. كان يسخر كثيرا من ذلك، لانه لم يكن يهتم ان يكون من سلالات الانبياء، كان همُّه ان يحرقَ السلالات.

يا حافي القلب دوّن بيضة انجيلي؛.. كان دم صاحب الزنج أسمرا.

فكما اختار عيسى غانية لغربته، كذا اختار صاحب الزنج زنوجا لصحبته. هنا عظمة الانبياء والنبلاء. لقد غدا الزنج بياضا للتاريخ، فتاريخنا اسود.

لقد رفض الابيض يوما ان يكون الزنجي قسّا لدينه، بينما صاحب الزنج لم يقبل لدين ثورته الا زنجيا.

لكم كان هرقل حكيما حين سأل عن اصحاب النبي؛ هل هم من علية القوم ام من ادناهم؟.. فأيقن ان محمدا نبيٌّ، وقت أن عَرِفَ انهم من جياع مكة لا من ساداتها.

لا يمكن ان يكون الغني نبيلا، إلا من بقي يمشي بِحَليب إمه لا بِحَلب الناس. لم ار كاهنا فقيرا يوما ما الا من بقي يشرب نفسه.

في جمهورية الله، المُتخَمُ كافر.. أكفر بأي دين لا يقول بذلك.

كان صاحب الزنج يستمتع كثيرا بأن عيسى منع المتخم من الجنة، حتى يلج الجمل في سمّ الخياط.

مرّتْ ثورتُه على الاهوار كثيرا.

آه... الله الأهوار فقير، والله الحجاز غني.

5

لم تكن الاهوار بعيدة عن درب الضريح، تستطيع أن تشمّ بعض القصب مع الريح. .

يا حافي القلب. . شَرَطَتْ الاهوار على جلجامش ان يستخدم كل قصبة للجذف مرة واحدة، وشَرَطَ الشرفَ على الثوار ان يموتوا الف مرة.

عَبَرَ جلجامش الى جزيرة التفاحة من الاهوار[1]، يريد الخلود. . وعبر الثوار الى جزر الشرف فيها، يريدون الكرامة. . فهم كلكامش بعد أنكيدو أنّ الكرامة خلود، وان وجه عشتار لا ينفع قيثارتها، وان حبّ جدائلها قيود.

لم يبق جلجامش، ولم تبق عشتاره. لم تبق الاهوار، ولم يبق الثوار. بقي الجاموس وحده، بقي القصب وحده، بقي الناي وحده.

آه، ردّد الكحّال بعد قتل جلنار؛ بقي الكحل وحده. وردّدت اخوان الصفا بعد قتل المتنبي إبنهم؛ بقيتْ الصهوة وحدها.

يا حافي القلب. . لا لغة قريبة من اسم رامة وربوتها كما الصهوة، لذا أخذ المتنبي لقبه من رفيق اخوان الصفا لآجل هذه الصهوة وآذانها. لقد كان المتنبي مؤذّنا في صهوته وفي شعره.

ايها الحافي كان إخوانُ الصفا وجوديين. لدى كحالة إخوان الصفا؛

أنْ تحجّ للعشق هو حج، شئت ام أبيت. أنْ تحجّ للمعبد هو كفر، شئت أم أبيت.

أن تحج للفقراء هو حج، شئت ام أبيت. . أن تحج للحرب هو كفر، شئت أم ابيت.

سائله الحافي؛ أيا جيندار، لما كل هذا السر في ربوة رامة؟، ولماذا كل هذا السر في إخوان الصفا. أجابه؛ البشرية سكرى ولا تفهم الكأس.

سرُّهم مع الربوة كبير، سرٌّ فيه كوة التاريخ كله، ولكن العرب حمقى في ترابهم. . خاطب ربوة رامة التي كان يلتقي عليها إخوان الصفا؛

---

(1) تجمعات مائية مسطحة واسعة في جنوب العراق، منعزلة عن المدن ووجودها، نباتها القصب، وحيوانها الجاموس، فقراء اهلها، يعيشون مع الطبيعة. . آوت الزنج كثيراً في ثورتهم، وما زالت ملاذا لكل الثورات في العراق. كانت هي مسار كلكامش في طريقه إلى تفاحة الخلود.

أتعلمين كم مشى عليكِ الليل.. كيف لم يجعلك العرب خضابا ؟!.

يا صاح، اسم رامة ممنوع من القول في فكر اخوان الصفا. كما ممنوع من الصرف في لغة العرب. اسم صاحب الزنج ممنوع في فكر المسلمين، كما ممنوع على الزنج حريتهم في فقه الكهنة.

غفت روح الحافي على هذه الكلمة، ورجع يتكأ على الحائط وبعض سَمْعِه يمشي لعالم اخر من الروح، عادت فيه كل الشمس بلون واحد، لا أبيض ولا اسود. وعاد صاحب الزنج أبيضا لا يريد لونه..

ثم سأله وكأنه سؤال يلح عليه من فترة ولا يريد نسيانه؛ أيا جيندار، من هو الصوفي الذي لا يريد صوفه. فأجابه؛

انه سكير من جزيرة كريت تائه عن صوفه وعن نسبه وعن دينه ومذهبه، وعن اثيناه. وحده أعان الرومي على تلخيص الدين برقصة.. لا يؤمن الا بدين قلبه وبعيون حبيبته.. كان يشرب من ماء الدين بكأس الحانات، وكان يكسر صليب الكنيسة بأضلع عيسى.. يصلي في السماء ويسميها الارض. هو شرايين الله وضفائر فتاة.. كيف جمع ذلك، لا أعرف!.

سأله من هو الصوفي الذي لا يريد اسمه، أجابه؛ إنه صلاة تكره المعابد.

يا حافي القلب، لم يقل هذا الصوفي لحفيدته؛ (بُنيتي اهتمي برفع الحجب، لا بجمع الكتب). الا بعد أن قال له مُعلّمه ميرزا شاه آبادي؛ (من السهل ان تكون عالما ولكن من الصعب ان تكون إنسانا).. ولكن لم يقل الميرزا كلّ شاهيتي؛ من السهل ان تكون متدينا، ولكن من الصعب ان تكون إنسانا.

يا صاح.. من السهل ان تجعل الكحل كل العين، ولكن من الصعب ان تجعل العشق كل القلب.

لقد جائت السومرية يوما للكحّال وهو على اطراف القرى كما اعتاد أن يكون في تجواله بائعا للكحل. تفاجئت السومرية أنْ وجدته عند نخلة مقطوعة يرثي موتها وكأنه يرى نفسا تموت.. ولكن الكحّال تفاجأ أكثر أنْ وجد السومرية قد خضّبت يداها بالكحل وليس بالحنّاء.. سألها لما ذلك؟.

أجابته؛ فعلت ذلك تقديسا لكحلك، لأنه فعل سحره، لقد جعل صاحب الزنج يرى أسمي، كما رأيتُ انا كحلي في زنجه.. إنه يحب الاسود كثيرا.

.. لقد قال لي؛ في سواد كحلك شيء من زنجي.

تفاجأ الكحّال بأنها التقته. قال في نفسه؛ لا غرابة، جمعتهما وحدة الوجود، فالسومرية بقية الكحل وصاحب الزنج بقية الخيل..

ياحافي القلب.. عاد ابن الملوّح يتلمس رامته بعد أيام ليلى مُردّدا؛

... "و لما تلاقينا على سفح رامة... وجدتُ بِنانَ العامرية أحمرا ".

وعاد جيندار يتلمس الضريح، مُردِدا كلمة الكحّال بعد أيام الزنج؛

ولما تلاقينا على قبرِ نخلة... وجدتُ بنان السومرية أسمرا.

6

لم يعد يتحمل الحافي هذي النجوم من جيندار. يحملهم الليل الى اسمه اكثر واكثر، بقيت بعض الحروف منه.. استلقى الحافي للنوم قريبا من حرم الضريح، فلم يُبقِ جيندار نجمة له.

حينما استيقظ لم يجد جيندار قربه، وجد فقط ورقة قريبة منه. بحث عنه هنا وهناك فلم يجده، عاد لتلك الاوراق، فهم منها أن جيندار رحل لتيهه. فلقد أكمله أيامه الاربعين معه.. لطالما تسائل الحافي لما فارق شمسُ تبريز الروميّ، لم يكن راضيا على شمس. هل ينفع الفراق في التيه.

تذّكر إنجيلية لجيندار دوّنها منه مرة وكان لايفهمها؛

.. النار هي ماء زرادشت.

لقد قالت لجيندار يوما اثينية سكرى تُناكِفه؛ حضارتنا المنطق، لدينا ارسطو.. ردّ عليها بلا تصوُّف؛ وحضارتنا التيه، لدينا الرومي.

المنطقُ لا يجد الحقيقة، التيه وحده من يجدها. لا شأن لي بذلك، هذا شأن الارض، هذا شأن التاريخ، هل تَجِدين فيهما منطقا ؟.

وا حسراتاه، لقد جعلتم العشق عِلما ! . سمعتُ إنكم تُعلّمون الناس منطق القُبَل، عجبا، كيف ! وهي مَن تُعلّمنا مسافات التيه؟ ! .

. . يُعلِمون الشفاه القُبَل !، آه، وهل تُعلّم الشفاه؟ ! .

رجع هو لتيه عيونها، فوجد اسما للجمال، ورجعتْ هي لكأسها فلم تجد اسما للمنطق. السكر لا يحب منطقا . . نُفُوقُ البشرية انها اعتادت المنطق في دينها ودكاكينها .

كَذَبَ الدينُ كثيرا في وجه الله وهو يحدد معبده، وكذبتْ الحكمة كثيرا في وجه الإنسان وهي تحدد إسمه.

كَذَبَ التاريخ كثيرا في الفقراء وهو يعظّم القصور، وكذبتْ الفلسفة كثيرا في الجمال وهي تقرأ المنطق. الحقيقة تيه عن المنطق.

سألته مِن على حانتها؛ كيف هو الدين. . قال لها، خَرِبَ.

سألها مِن على عزلته؛ كيف هي الدنيا . . قالت له، خَرِبَت.

لم يرغب الحافي أن يقرأ ماتركه جيندار من ورقتي انجيله، تأخر حينا حتى استطاع ان يرفعهما لعيونه. كتب له جيندار صفحتين حين غفى جواره وعيونه لقبة الضريح؛

يا صاح. . ترامت الورود تتوسل إلى النهر أنْ يأخذها إلى شاطئ آخر.

الازمان التي تمنيت ان أعيشها، زمن بلا مدينة. . لا أُحب المدينة التي تعرفني ولا احب السفينة التي اعرفها . أين تذهب وأين تعود . . أحب التيه.

ليس للصحراء طرق كما للمدينة، فالرمال تمسحها . تريد أن تكون كلها طريقا . البحار وحدها لا تمسح ولا تجرح، ليس لانها بلا اقدام وانما لأنها بلا طرق.

يا صاح. . لا تخطأ . لا تضع الاقدام على الطريق، ضع الطريق على الاقدام.

لكل شيء مسافات مع الحقيقة، تعرفها البحور السبع في العشق لا الحكمة، تعرفها المثاني السبع في القرآن لا الكهان.

تعرفها مسافات الماء كما تعرف مسافات الطين. . الله خلقنا على الجرف، والسفينة تُصنع على الجرف.

قال النجّار للسفينة؛ سيري انتِ واقدارك. وقال الله للانسان سر انت ودفّتك.. فلمن الطريق، للدفة ام للاقدار؟.

النجّار فقط يعرف.. اخبرته الاخشاب كل الماء، اخبرته الصواري كل الريح، أخبرته الدفة كل الايادي.

رفع جيندار عيونه إلى القبة، إنها تائهة في التاريخ.. رجع لاوراقه.. لعَب مع الرومي في كلماته، فكتب فوقها؛ التائهون وحدهم يعرفون الطريق.

7

نظر لعيون الحافي النائمة وفيها كل اسمه. كانت عيونه حافية كالشتاء بعد المطر.. عاد يدوّن مطر رحيله في صفحتي عذره؛

... وأكتمل الصفصاف.

يا حافي القلب.. حين يكتمل الصفصاف يبدأ الشتاء، وحين يكتمل الحب يبدأ الرحيل.

تَعِبتْ مسافاتي.. أحببتُ التَعب.

لعِبَتْ خرافاتي.. كرهتُ اللُعب.

يا حافي القلب تنشد لي روحي؛

قويٌّ هو غرّافك، صغير هو مجذافك.. فماذا بقي من نهرك؟.

اعمى هو عرّافك، تائهة هي خرافك.. فماذا بقي من ذئبك؟.

نبيهٌ هو ندّافك، وارف هو صفصافك.. فماذا بقي من ظلك؟.

عاهرة هي عشتارك، مبتورة هي قيثارك.. فماذا بقي من كلكامش؟.

يا حافي القلب، حينما عرفت رامة أنّ دربي معها سبعة أيام لا سبع سنين قالت لي؛

لن تكون ربانا على الساحل ابدا. ما بين البحر والبحر يتحدد شراعك، لا ليس بين البر والبحر.. مابين الكحل والكحل يتحدد صراعك، لا ليس بين الحاجب والكحل.

صحيحٌ هذي الفتاةِ شراعُها. صحيح هذي الفتاة كحلها.

يا صاح. . كنت تقول لي عنها؛ أظنُّ أنّ شراعها اقدم الاشرعة. وأقول لك، بل عيونها اقدم العيون.

يا حافي القلب. .

العيون التي لا تقبل الكحل كذّب سوقها، والقوافل التي لاتقبل التيه كذب نوقها .

الأيام التي لا تقبل الصبح أطفئ لياليها، والجبال التي لا تقبل الحُفَر ادفن اعاليها .

الافكار التي لا تقبل العبد كذّب نواديها، واليسار التي لا تقبل اليُمن كذّب أياديها .

النايات التي لا تعزف القلب اكسر قصباتها، والشفاه التي لا تقبل الكأس اسكب قُبلاتها .

الكلمات التي لا تقبل العشق كذّب معانيها، والالحان التي لا تقبل الحزن كذّب اغانيها .

يا حافي القلب، هنالك وشم دمشقي لا تعرفه. . وشمٌ لطالما كان مزموره؛

وشمُكِ كالرحم نسي اساميه، وشمكِ كالصبح نسي اماسيه. . . وشمكِ كالطين شرب مافيه.

يا حافي القلب. .

ما بين الحب والطب عداءٌ قديم. . لم يداوي الطبيب عاشقا قط.

. . آه، إلهي لما جعلت القلب صغيرا والعشق كبيرا؟!!!. . كيف ذاك؟!.

مسافات الجسر..

(أسفاً، كيف تطلب العلم من الكتب!)

.. الرومي

1

كان الرومي يُردّد لصاحبه؛ أسفاً، كيف تأخذ العلم من الكتب! .. وها هو جيندار يُردّد بلا صاحب؛ أسفاً، كيف تأخذ الايمان من الكاهن!.

فتح جيندار إنجيله وكتب يخاطب صاحبه الحافي، كان يعرف أنه سيقرأ هذا الإنجيل يوما؛

.. لاتقرأ كتاباً كَتَبهُ الليلُ بلا قمر، ولا تخطو قدراً مَشَتْهُ الاقدام بلا غجر. إنهم لا يحددون وجهتهم.. فالتيهُ غجريٌّ، تعلَمَتْهُ الصوفية منهم. إنهم يغسلون ذاكرتهم بالرحيل.

لا تُصلّ في معبدٍ يكفرُ بأَخيك، ولا تمشْ في شارعٍ لا يجوعُ فيك.

لا تجعلْ قبرَكَ في وطنٍ نسيَ اسمك، ولا تضُمّ نحراً لم يضُمّك.

لا تلحَقْ قافلةً أهملتْ سَيرَك، ولا تَنَمْ على صدرٍ ارتفع لغَيرَكَ.

لا تُصدّق شريعة تكذُب على الاعداء، ولا تحمي شرفا يخشى النساء.

لا تنصر وطنا يهزم الجياع، ولا تُحيي جهادا يُقلّد الضِباع..

لا تعشقَ إلها لا يُقدّس العشق، لا تتعبد بدين يُشرّع للعبيد.

. . هذا هومنطق المؤمن الوجودي. إنه ليس منطق قبحٍ وجمال، ولا حتى منطق وجودٍ وعدم. إنه منطق يليق ولا يليق. به أعبر الفلسفات.

أُحبُّ الجسر كثيرا لاني أعبر به، وأُحِبُّ الكحل كثيرا لأنه يعبُرُني.

لقد تمنّى الحافي يوما على جيندار ان يعرف عشق العيّار "ترّاب" كما عرف صحراءه. وأي كحل عبر على عيونه. فأجابه عن ذلك؛

آه، لم يتزوج ترّاب من أحبّتْ عيونه، لقد تزوج من أحبّتْ خيله. .

يا صاح. . قَطَعَ ترّاب الطريقَ مرةً هو ومن التف حوله بعد دعوته في بادية السماوة على قافلة فيها بنات أحد رجال الوالي فأسّرهن وترك أحد رجال القافلة يعود ليخبر ابيهن بالفدية. كانت الفدية تكفي لمعيشة قرية كاملة من فقر عام كامل.

عزلهن في خيمة بعيدة عن اصحابه، تفاجئت البنات في الخيمة من نبالة العياريين هولاء على غير ما كنّ يسمعنَ في القصر من أبيهن. . أُعجبتْ البنت البِكر بترّاب وكان اسمها "ساوه" على إسم تلك البحيرة الغريبة في البادية، بحيرة لطالما دارت حولها الغرائب.

كانت ساوه، اجنحة بكل الريش، ليل بكل البدر. لقد خَلَبَ ترّاب من ساوه لبّها .

يا صاح. . كان ترّاب يرى ذلك في عيونها خلال الايام التسعة التي بقيت فيهن اسيرة، وكان يرى أيام روحه يزداد وقتها حين يرى عيونها تنتظر له، رغم ذلك لم يقبل أن يتركها دون فدية لأن عيون الفقراء كانت تأسر مبادئه. . كانت لاتعرف سرّ نسبه، ولكنها كانت ترى سرّ قلبها في عيونه.

يا صاح. . بعد الفدية وعودتها للقصر، لم تمض أيام حتى عادت إلى بادية ترّاب سرا دون علم أبيها وحاشيته. . تفاجئ ترّاب من عودتها، وكان يخفي في قلبه شوق عيونها . وقف أمامها وكله الصمت. قالت له بكل قلبها؛ أريد أن اعود لخيمتي التي اسرتني فيها، فلقد أبقيت قلبي عندها .

غريبة هي الحياة يا حافي القلب، يأتي اللص كي يسرق فيُسرق قلبه. . تؤخذ الفتاة اسيرة خائفة فيُؤسَر قلبُها .

يا حافي القلب لم يجبها تراب، رغم أن عيونها كانت تجيب كل وجوده. . كان طلب الخيمة عنده أكبر من طلب البحيرة التي بإسمها .

رجعت تقول لصمته؛

أريد خيمتي القديمة، لقد أحببتها أكثر من قصر أبي، لانني كنت أرى عيونك منها، ولم أرَ من القصر الا فتيان الطغاة بلا عيون ولا قلوب.

تملّى بعيونها أكثر مما يتملى بعيون فرسه، أخذته حسرة الخيل وجوع صهيلها .

كان قلبه لها، ولكن دربه أكبر من قلبه. لم تقبل مبادئ ثورته انْ تعود لخيمتها، لانه خشي أن يترك هو خيمته بها . . كان يخشى أن تتركه عصا أبي ذر.

يا حافي القلب. .

لا تقبلْ خيمةً للقرية تَذْكُر طعامَ القصر، ولا تقبلْ صلاةً للصبح تنسى صلاة العصر.

يا حافي القلب، حدّق ترّاب حوله في بريّةٍ تتناثر حولها قرى فقيرة يُعطوها ما يغنمونه من سرقة الاغنياء. . الاطفال يلعبون في تراب شوارعها العبثية.

قال لها وفي عيونه كل الحزن وكل عشقها؛ انظري الى الجياع حولنا كم سعداء بالطعام عن فديتك، منهم يكون طعام قلبي، إني اخشى من طعامك.

يا حافي القلب، كان ترّاب يقيس الاشياء بسعادة القرية وترابها، كان يقيس صلاته بطعام القرية وجوعها. . لقد أخذت منه عقيدة التُراب كل قلبه وكل فرسه وكل سيفه. .

تزوّج ترّاب من ابنة رفيقه الفقير "عبدان" التي كان يراها في ليالي القرية القمرية تستقبل فرس أبيها بعشق، وهم عائدون بغنائمهم. . ولكنها ماتت بعد ان استقبلت البادية ابنها، فبقي الطفل عند جدته وبعلها عبدان. . آه، لقد ماتت كثيرا من الدروب مع ترّاب، درب زوجته التي ماتت قبل أن ينطق ابنه اسمها، أم درب الكحّال الذي مشى به لبغداد فوجدها انقلبت على الصحراء، ام درب القرامطة جماعته الذين لم يفهم الكثير منهم ترابه فمشوا لغير صحراء، ام درب ساوه حبيبته التي ترك حبها في الصحراء.

آه ياصاح. . لا تليق الخيمة بساوه، ولا تليق الراحة بثائر.

2

كتب جيندار ليلتها في إنجيله مناديا ساوه حبيبة ترّاب؛

لا تزعلي منه لانه ترك عيونك لأجل ثورته.. لا يليق بالقرية قصرك ولا يليق بالثورة خصرك.

لا تزعلي منه، فحين يبدا النهر يبدا الخرير، وحين تبدأ الثورة يبدأ الاذان.

يا ساوه.. لو كنت املك مأذنة لأذّنت في منتصف الليل، وفي منتصف القلب، وفي منتصف الكحل.. في أول العشق، وفي آخر الثورة.

لدى الله، لقاء الثورة من مواقيت الصلاة. الثورة من مواقيت الله، إنْ بدأت الثورة تحين الصلاة، قبل الفجر أو بعد المساء.

هنا فقط يمكن للجُنيد البغدادي أن يقول؛ (و قدّم إماما كنتَ انتَ إمامه.. وصلّ صلاة الفجر في أول العصر).

يا ساوه.. اوقات الصلاة لا تجلبها الشمس، أوقات الصلاة تجلبها المواقف.

تمشّى بفلسفة يليق ولا يليق يُريدُ أن يزيد من كحلها، أو لعله يجد كحلا قديما لها، فوجد صدفةً ساذجة للمصلوب عين القضاة الهمداني يقول فيها؛ (لا يليق ان يكون السواد بلا بياض، ولا يليق للسماء ان تكون بلا ارض، ولا يليق أن يكون النبي بلا إبليس..). فكتب فوق سذاجتها؛

الفكرة التي تمنعك عن الحياة مزوّرة مهما ضمّتها كتبٌ مُقدّسة. المعبد الذي لايمنح روحاً راحَ عنه الله.. إنها بديهيات وجود.

من مآسي البديهة البشرية أن المنتصر يحدد شروط السلام، ومن مآسي البديهة الدينية ان الكاهن يحدد مبادئ الإسلام.. هذه قيم البشرية وتلك بديهيات المؤمنين!.

غدوتُ أخجل أن يُقال لي اني متدين، كيف أُقاس على هكذا وجوه؟!.

لا تقبل الجبهة الحالمة ان تصلي معهم. لا تريد بهم شبها، لا في اللحى ولا في الصلاة ولا في الثوب.

لا اقبل إنسانية بهكذا وجه، لا أقبل دينا بهكذا معبد.. هل هذي سذاجة فلسفة ام وجع احمر لها؟.

قال بدوي لإمراته؛ كيف أعرف الخيل الاصيلة من مشيها ولا اعرف الإنسان الاصيل من وجهه. إذن لا تليق بي البراري. .

. . وقال الكحّال للعيار ترّاب وهو يحكي له عن أبي ذر؛ كان وجها يليق بالصحراء.

رفع رأسه ورفع أوراقه، متذكرا تلك الفتاة من على قطارها في الركن الاحمر، سألته حينها؛ كيف عرفتني عاشقة. . أجابها؛

عَبَرَ غريبٌ على مدينة فعَرَفَه أحدُهم حكيما من أقدامه، فكيف لا اعرفكِ عاشقةً من عيونك.

عبر كاهنٌ من قريةٍ فعرفه احدهم شريرا من صلاته، فكيف لا أعرف غاندي نبيا من ماعزه!.

أنزل رأسه من ذكرى القطار، وأنزل قلمه لأنجيله يكتب؛

من لا يرى ببداهة، أننا نسير بأديان كهنوتية قبيحة، فلا ينفعه غاندي ولا الله نفسه.

يجوز لك ان تنكح الف جارية وتمنعهن عن المحيط في دار الحريم عبيدات لك، ولا يجوز لك ان تعشق إمراة واحدة!. ما أوضعك.

يجوز لك أن تقتل إنسانا لا يقول بدينك ومذهبك، ولا يجوز لك انْ تقبل زواج بوذي نبيل من مسلمة رديئة!. ما أردئك.

حين قلنا ان الكافر هو من لا ينطق الشهادتين، شهد الله علينا بالكفر. وحين قتلنا الكافر لكفره، قتلنا الله بإيماننا. . حينها أكتمل الكفر.

صحيح إنهم يُرتّلون القرآن، ولكنهم يُقتّلون الإنسان.

الجبهة الحالمة لا تقبل كاهنا، لأنّ دين الكهنوت لا حلم فيه ولا معنى، فيه لحى طويلة فحسب.

. . تعسا لأُمّةٍ دينُها طولُ لِحى لا وسعُ قلب.

آه، إنْ وصل طُولُ اللحى الى القلب، فلن يبقى للقلب طولا.

لا ينفعني البسطامي في ترتيله؛ لا أُريد من الله الا الله. . ما ينفعني هو تعديله؛ لا أقبل من

الله الا الله. ولن ينفع علمُ الكلام دون ذلك. لانه لا يظهر من الجمال إلا الجمال و(لايظهر من الله الا الله)، كما ردد قديس بسكنتا[1].

لا تنفع الشفاه دون قلب، كما لا ينفع الدين دون خير. لن تجد حينها لا قُبلة ولا قِبلة. ستجد شهريار بلا ليلة وستجد البسطامي بلا نخلة.. حذفُ الوجودِ للوجود.

ستجد الحجاز بلا رامة، وستجد البسطامي ببسطامه. فلقد أضاعه اربعين عاما ولم يجده.. وجده عند الراهبة المومس وكلبها، حين قالت له؛ طهّر قلبك وصلّ اينما شئت.. إنه مؤمن وجودي.

المؤمن الوجودي ليس ككُلّ مؤمن، لأنه لا يقبل أيمانا قبيحا، كما يقبله الاخرون قتلا وسبيا وتكفيرا. ولكن ليس لانه أمر لا يليق بالله، كما عُبِرَ الجسر الاول، وإنما لانه لا يليق بالانسان.. هنا كل العبور.

ياللأسف، يقبل الإنسان ان يكون شبه حيوان، رغم انه خُلِقَ ليكون شبه إله.

ردّد مَلاك الأرز بعد أن ترك قلبه في براري قريته بشرّي ورحل لساحل بوسطن؛ (و هل يركعُ القلبُ العابد في هيكل رقصتْ فيه الشياطين!!!). حينها ركعت له الارز.

منطق جمهورية الله هو؛ المعبد الذي لا يرفع الإنسان هَدّمه.. دعك ممن يرفعون الصلاة فيه.

المسجد الذي لا يُصلّي فيك لا تُصلّي فيه، والكنيسة التي لا تسمع قلبك لا تسمع ناقوسها.

المسجد الذي لا يترك المسيحي يُصلي فيه لا تترك له صلاتك، والكنيسة التي لا تُقبّل المسلم لا تترك لها قُبلاتك.

للأنبياءَ معبدٌ لم يُبنى بعد.. مبنى يجمع كل الابنية، كل الوجوه، كل الصلوات.. يجعل

(1) لم يظهر من صاحب مرداد الا مرداد.. لقرية بسكنتا في لبنان غارٌ يقولُ صداه؛ دخلني قديسا، إن عرفت احجاره ستجد عطره، وان جهلت امطاره فستجد كفره.. قديس فتح له الجبلُ اقلامه فاعطت الناس للجبل قبره، وكان عليها ان تعطيه اسمه.

الازياء والعمائم والكتب تتهاوى. معبد ينزع فيه كل رجل دين زيه الى ثياب الفقراء انها متساوية.

متى يأتي يوم، يُرى فيه مسلمٌ يُرمّم كنيسة وقسٌّ يؤذن لمسجد.

متى يرى اللهُ يهوديا يُعطي عصا موسى الى عجوز مسلمة، كانت قد تعثرت بمعبدها قبل قليل.. آه، لا يهمه موسى، ما تهمه العجوز..

رفع جيندار رأسه وقلمه، وردّد خمرةً نواسيّةً؛ "لم ألُمْهُ ولم يلُمْنِي.. قبل الضمير من الضمير".

3

عند مسجد قديم مرت عليه كثيرا من الصلاة وكثيرا من الفتوحات، تحوّل يوما كنيسة وأعاده فاتح مسجداً.. طلب فتى من جيندار انْ يقرأ له سيرة أقدامه، فاختصر له جيندار سيرته؛

غريب هو الوجود، جئتُ إلى المسجد بشاعر بوذي، وهربتُ منه بفقيه مسلم!.

رفع عيونه للفتى أكثر؛

عليك أن تبقى في الخطأ احيانا، كيما تبقى في الصحيح دائما.

.. شكرا للكاهن، لأنه علّمني كثيرا في كُره.

في الخطيئة تعرف الفضيلة.. في عمق الظلام ترى حقيقة النور، وفي عمقه ينبت.

أيها الفتى، الله يُعلمهم الحب وهم يعلمون الناس اللحى. هل يصلح حب بدين؟!، لا أظن.

ردّد الرومي؛ (فليبعد اللهُ العقلاءَ من العشاق).. وأُردد؛ فليبعد اللهُ الكهنةَ عن العشق. أخشى منه ان يتديّن، فإنْ تديّن العشق لم يعد عشقا.

أيها الفتى، العشق والعمامة لا يجتمعان.. الله يعلمهم الخير وهم يعلمون البشرية القتل. هل يصح إيمان بقتل؟!، لا يمكن.

.. لكم يكره الله الايمان احيانا. هنا لا غير يقول الله بنسيّته؛ (قل بئسَ ما يأمركم به إيمانكم). هنا لا غير يقول العدلُ قطعيتُه؛.. الرأس الذي يقتل الناس لن يدخل الجنة حتى لو وصلت لحيته لقدميه.

عزف الوجود بعيسى في صليبه أكثر مما عزف البحر بأمواجه، ولكن الكهنة كسروه. .
عزفت الرمال باقدام محمد أكثر مما عزفت النجوم بأضواء القمر، ولكن الكهنة محوها . لم تبق أقدام ولا نجوم، بقيت اللحى فحسب.

ردّد سورين في الشمال هناك؛ " إحذروا القساوسة أولئك الذين يسيرون في أردية طويلة ويضعون زيا رسميا ويقلبون المسيحية الى ما يضاد المسيح ". . وردّد الناس هنا في الجنوب: احذروا الشيوخ اولئك الذين يسيرون بلحى طويلة ويفتون قتلا شرعيا، فيقلبون الاسلام الى مايضاد محمد .

أيها الفتى، الكاهن والنبي لا يجتمعان. . عليك ان تكون مع أحدهما، لا يمكن ان تدّعيهما سوية؛ إما المسيح أو المسيحية، إما بوذا أو البوذية، إما محمد أو الاسلاموية، لانهما نقيضان.

رتّلوا اسلاما كان يئن منه النبي، فهل أجتمع الترتيل بالانين يوما !؟.

يا صاح. . الحراب صنعت بنواقيس القساوسة، والمآذن عُجنت بجوع الفقراء، فكيف سيسمع القلبُ!، وكيف سينبتُ الايمان!.

يا صاح. .كلما ابتعدتَ عن مِئذنة الكاهن كلما سمعتَ الله اكثر. كلما كفرت بهم اكثر كلما آمنت بالله اكثر.

كلما ابتعدت عن وجه الكاهن نَبتَ فيك وجه الله. . أسفا، اللحى وحدها تنبت في هذا الاسلام.

حكى له من أساطيره السرية بكُحل أفغاني؛

سأل شيخُ بلخ في السماء فيلسوفَ خراسان، وكانا قد تجاورا هناك شوقاً لتجاورِ مدينتيهما بلخ وخراسان في الارض، ونسباً لتناسبِ حسرتيهما في الموت.

يا صاح. . انساب السماء غير انساب الارض.كلاهما كانت ميتته مبهمة، أُتُهِمَ شاه فارس الاخير باغتيال الفيلسوف سُمّا في فراشه ولم يقُطع بالامر، وأُتُهِمَ الوالي العثماني الاخير بأغتيال ثائر بلخ سُمّا في فراشه ولم يُقطع بالامر. . ما قُطِع به أمران؛ الأول انهما ماتا من المسلمين لا من المستعمرين، رغم انهما ارادا تخليصهم منهم. . الثاني ان امتهما التي ارادا ارجاعها للايمان كفّرتهما .

سأله شيخ بلخ؛ ما هي حقيقة كتابك النباهة والاستحمار . . أجابه الفيلسوف؛ صحيح أني جعلت فيه نهيقَ الكهنوت واضحاً، ولكن ما لم تنتبه الناس إليه، هو أني اردت التنبيه على أن أمة الكهنوت أُمّة حمير وليس أُمّة أنبياء .

أيها الفتى . . حكى كهنوتيٌّ بأنّ الله ينزل على حمار في المساء ! .

لو أراد الله حمارا حقيقيا يختبر به الامة كما في بقرة موسى، لما اختار غير هذا الكهنوتي.

ردد اليهود؛ تشابه البقر علينا . وردد الحافي يوما؛ تشابه الحمير علينا . . وحده الكحّال لم يُردّد؛ تشابه الكحل علينا . لقد كان يعرف كحل جلنار من بين الف كحل.

سأل الفتى جيندار؛ علمني دينك. . . قال له؛ لا تخطأ، لا تضع الكاهن على الحمار، ضع الحمار على الكاهن.

4

انشد للفتى؛

ألا أيها الساقي أدرْ كأسا وأخّرْهَا . . . الصلاة التي لا تُغيّركَ غيّرها .

الا أيها الساقي أدرْ كأسا وعطّرها . . . الشفاه التي لا تُغيّركَ غيّرها .

أيها الفتى، لدى الله، ان تموت الكنيسة بإسلامك، غيره أنْ تموتَ من اجل كنيسة في اسلامك.

أن تؤذن على ناقوس كنيسة وفأسك فوقها، غيره أن تجعل مأذنتك ناقوسا، وفأسك صوتها .

أن تحارب في دينك، غيره ان تدين في حربك، لتنقذ عدوك وتلمّ جراحه. . تعطيه من طعامك بدل ان تسلب طعامه. تشاركه أرضك، لا أن تأخذ ارضه.

لدى الله؛ متى مامات المؤمن من اجل كافر كان مؤمنا . كيف وهو يقتل المؤمن نفسه ! . متى ما قتل المؤمن كافرا لكفره، أصبح كافرا .

ويلومون عليّاً ! ، أنه لم يقتل في زمنه كافرا قط . ويلومونه، أنه لم يفتح بلاد المسيحين ! . لقد لاموا الشريف على شرفه.

أيها الفتى؛ الاسلام الذي انبته النبي حلقته اللحى.

اقسم بإنسانية محمد لا بعلمية الطبري، وبروح عيسى لا بقلنسوة بطرس، كَذَبَ الكهنةُ على الله اكثر مما كذب البحر على البر في امواجه. إنه عودٌ أبدي مع الكهنة كلهم.. كل الاديان تعاونت على اغتيال الله.

يا صاح.. نيتشه لَم يَقْتُل الله، الكهنةُ من طعنوه. نيتشه بكى عليه فحسب.

حينها اراد الفتى أن يعرف من جيندار سيرة عقله.

قال له جيندار؛ غريبٌ هو العلم، اضاعني بالعقل ولمّني بالقلب.

الله وضع روحه والشيطان بين القلب والعقل، الشيطان كان ذكيا، والله كان نظيفا.. فأيهما تريد؟.

يا صاح.. لا يوجد قلب ذكي وغبي، هنالك قلب نقي أو دني.

العقل يسأل القلب طريقه اذا ما تاه، ولكن ليس للقلب احد حين يتيه!..القلب حيرة العقل وليس العقل حيرة القلب.

رائحة القلب لا يمكن للعقل ان يشمها، فالله خلق العقل من طين، ولكنه أبى الا ان يكون القلب منه..

يا صاح.. الإنسان ليس طينا، والكاهن ليس دينا.

هنا سأله الفتى؛ علّمني دينك.. أجابه جيندار؛ لا تخطأ، ضع القلب على العقل، ولا تضع العقل على القلب.

يا صاح.. الفلاسفة لم يسمعوا الصحراء، لانها بلا عقل ولأنهم بلا قلب. ما يُحذر منه أنّ عقل الفيلسوف يزوّر قلبه.

لقد فعلَ الفلاسفة بالعقل والحقل ما فعله الفقهاء في المرقد والمعبد. العقل أُترِفَ كثيرا، فلطالما قرأ العقلُ الابادات فسماها بطولات ودين. القلب يموت بالعقل.

لاحظا على جدران المسجد كتابة منقوشة بفخر تروي كل انتصارات الفتح الديني لديهم.

فقال له جيندار؛

حينما جاء مجاهد بحسناء مسبيّة، قال لها؛ عيناك حين تركضان يضع الليل نجمته. .
قالت له؛ عمامتك حين تضع صلاتها يركض الشيطان.
لم تكن تعرف الشيطان قبله، كانت تعرف الله في حقلها فحسب.
أيها الفتى؛ الجهاد هو أنْ تحمي شرفك، لا ان تسلب شرف الناس. . كيف وانت تسلب به شرف الله.
لم يبق لله شرف مع هذا المسبية. . إلهي، الكاهن يسلب شرفك.
رفع الفتى عيونه قليلا وفيها كل الحقل وكل الحسناء وبكاها، يريد أن يشرب الحسرة. ورفع جيندار حسرته أكثر. . سالَ في قلب جيندار الكحل، فقال للفتى حكاية يعرفها الكحّالة جيدا؛

استيقظ عجوز سنديٌّ من إغماءة جرحه بعد أنْ نزح الجيش الفاتح بعيدا عن مدينته، فوجد اولاده السبع مقتولين جواره، وبناته الخمس أُخِذنَ سبايا، واطفالهن التسع أُخِذُوا عبيدا، حتى بقراته السبع لم يجدهن. لم يجد جيرانه، لم يجد الخباز والحداد. . لم يبق الا العويل، لم يبق الا شيبه وجرحه. . رفع عيونه المخضبه بالدماء والدموع؛
إلهي لديك سماوات سبع ام أديان سبع؟!.
. . هذه أديانك يا الله.
إلهي لا أُريدُ الصلوات الخمس. . أُريد بناتي الخمس.

5

أيها الفتى. . انني ادين الماضي انني اخاصم الاجداد.
. . . من يقرأ التاريخ عليه ان يغتسل، فلكم كان نجسا.
لم تبق للمسلمين الا كذبة الاسم، أقطع أن جبريل يريد استرجاعه.
من يُكذّب التاريخ يغدو إمامه، وإنْ كان خلفه. ومن يُكذّب قومه يغدوا عاقلا، وإن كان مجنونهم. ومن يَهدِم معبد الكهنة يغدو مؤمنا وإن كان كافرهم. . لقد هدّم يوما النبيُّ معبدا.
مات أبناء مروان الاموي ومات أعمام ياقوت الحموي. غدا هؤلاء ابطال الله وغدا أولئك

كفرة الله ! . اصبح العبد ياقوت مؤرخا لبطولات مروان، ومات عمه مقتولا من بطل ابن أخيه[1] ! .

هنالك مساجد كثيرة باسم قتلةٍ كبار، ولكن ليس هنالك مساجد قليلة باسم مقتولين صغار ! .

ليس هنالك مسجد باسم صاحب الزنج محرر العبيد، بينما هنالك مساجد كثيرة بإسم من استعبدهم ! .

أيها الفتى؛ لقد كذب علينا التاريخ كثيرا وعلينا ان نُكذّبَه. فالتاريخ الحقيقي هو التاريخ الذي لانعرفه. . يكاد يقول التاريخ؛ انا اكتب اذن انا اكذب.

ما زلنا أغبياء، فالكهنة ألّفوا كثيرا من الكذب وليس كثيرا من الكتب.

يا صاح؛ ذهب الحكيم ينتسنغ ورفاقه برحلة من الصين للهند كي يحصلوا على الكتب البوذية المقدّسة، وذهب محمد القاسم وجيشه الغازي من الجزيرة العربية الى الصين كي يُطهروا الاراضي المدنسة[2] ! . . غريب هو التاريخ ! .

يقولون ننشر الايمان وهم لا ينشرون الا الكفر . .

ليس التنزيه أنْ تجعل الله واحدا، التنزيه أنْ لاتجعله سفاحا .

يا صاح. . في فخر الامة عارها، وقِمّة العار هو أن يفتخر المرء بفضيحة أُمّه. لافرق بين أُمّه وامته، كلاهما أرضعه.

الحقيقة لا ترغب بها أُمّةٌ شرفها في الشرفات. لن تأمن عليها، حتى الريح ستُحدّث برائحتها .

ولكن، أي شرف هذا للامة أقامته في ليلها حينما غفا نهارها ؟ ! .

(كنتم خير امة أُخرِجَت للناس) . . هل يمكن لمسلم ان يقولها مرة أخرى؟ ! .

---

(1) من غرائب الذل المعرفي هو أن ياقوت الحموي المؤرخ الاسلامي الذي أرخ لرجال الفتوحات وظلمهم كبطولات وجهاد، كان هو نفسه عبدا، لاحت دياره وشعبه الغزوات واستعبادها .

(2) محمد القاسم هو قائد فتوحات المسلمين للصين.

يا صاح. . لسنا نحن خير أمّةٍ أُخرِجَتْ للناس، نحن خير أُمّةٍ أَخرَجَتْ الناس. . سَل الفتوحات، سل الهند والسند، سل القلاع والجند، سَل الحقل والورد.

ذهب الفتى عنه وذهب هو إلى ركن من البناء يطل على نهر قريب، وأخرج إنجيله يُريد أنْ يخاطب الحافي. فكتب:

يحتاطون في ركع الصلاة، ولا يحتاطون في إركاع الناس!.

يا صاح. . ردّد النفري: الحرف يسري حيث القصد، جيمُ جنة جيمُ جحيم. . وأُردد: الحرف يسري في الحرف، راءُ خير راءُ شر.

لم يقل الله: كنتم خير امة أُخرِجت في الناس ولم يقل بين الناس. قال أُخرِجَت للناس، لأجلهم لا لقتلهم. . يا صاح، كل الله في هذه اللام، أمّةُ الله هي من تحمل هذي اللام لا من تحمل إسم الاسلام.

أمة الاسلام هي أمة الطيبين وليست أمة المسلمين. هي أمّة الزنج الوثنين وليست أمة الحجّاج الذي وثّن الناس باستعبادهم.

أمة الاسلام هي كل من مشى بقلب سليم. ساعة مع بوذا وساعة مع عنان بن داوود. . ساعة مع بقال طيب وساعة مع فلاح شريف. . ولطالما كان الفلاح نبيّا. فالشرف نبوة.

أمّةُ الله هي أمّةُ الضمير وليست أمة الحجاب، أمة العدل وليس أُمّة القِباب.

. . أمّةُ الله جماعةٌ قيمية لا جماعة قومية.

يا صاح. . على هذي الجماعة اتبع عنان بن داوود خزّار الكوفة ومعتزلته، وعلى هذي الجماعة اجتمع يسار المسلمون واليهود والمجوس والصابئة والمسيحين في الكوفة عند معلمها. على هذا نشأ الاعتزال، وعليه كانت تسمية اخوان الصفا.

يا صاح. . المؤمن عند النبي ليس هو المسلم، فقد كان أبو سفيان مسلما، ولم يكن النبي قصير نظر.

كل من مشى وراء غاندي كان مسلما بلا مسجد، لديه قلب غاندي فحسب، ثوب غاندي فحسب، ماعز غاندي فحسب. . اه لكم احب هذي الماعز.

ياصاح. . الله مشى وراء غاندي في مسيرة الملح، وساعده على تطبيب ماعزه. البحر

والملح كانا ينتظران غاندي وماعزه. . ماعزه تلك خير من عجل بني اسرائيل. لو نزل قرآن لرواها.

يا صاح. . الحرف يلفُّ الحرف. خيرُ أمة هي امة الخير، حتى وإن كانت أمة وثنية. فلم يسفك الوثنيون دما بقدر ما سفكه المسلمون والمسيحيون.

يا صاح. . سَألَ الناسُ بوذا حين ظهر؛ هل انت إله؟، اجاب؛ لا. . هل انت ملاك؟، اجاب؛ لا. . هل انت قديس؟، اجاب؛ لا. . . انا المستيقظ.

ويبقى الإنسان ساكرا حد الثمالة في سطح الحياة مابقي على سطح الارض رغم كل الحفر، حتى اذا مالقّه ترابها وعى الاعماق من جديد، فبصره اليوم حديد. . لذا دائما يعيد الانبياء كلمتهم؛ " الناس نيام متى ما ماتوا انتبهوا. . "

إنه الإنسان، لم يلحظ القمرَ فوقه ليَعرف ما دونه. . تعسا، متى ترفع رأسك وتمزقَ ما نمتَ عليه طوال تاريخك؟!.

ايها الفتى، في انقلاب الشاطئ يكمن انقلاب السفن.

خذ معك قلبك واهرب، خذ معك الله واهرب، خذ معك غاندي واهرب، خذ معك ماعزه واهرب.

كيف لا يترك الحبيب حبيبه حينما تخلوا عيونه من كلماته، ويده من نبضاته، ونحره من عطره؟!.

كيف لا يترك الإنسان دينه حينما تخلو معابده من دموعه، وفقهه من جماله، وتاريخه من إنسانيته؟!.

يقولون ننشر إسم الله، وكأن إسمه لديهم فقط!. . جميلة هي حسرتها هذه الكلمة؛ (ٌبلينا بقومٍ يظنون أن الله لمْ يهدِ سواهُم). يقولون ان ابن سينا قالها. لا اظن.

لا اثق في نسب التاريخ لان أُمّه تعمل لدى السلطان، والكل يكتب اولادها.

كلنا بلا تاريخ فكيف سيرانا الاجداد؟.

كلنا بلا قلب فكيف سيَعبرنا العشق؟.

6

نظر جيندار الى محراب كأن قوسه حاجب فتاة نائمة في الزمن، أخذ منها الليل كل كحلها . . تطل ساحته من المسجد التاريخي على النهر، وتطل من قوسه نقوش من حقبة الحشاشين . . شعر جيندار في هذا الطريق وترابه عمر سحيق وأسرار سحيقة. شعر أنّ هذه الاحجار تخفي كثيرا من اقمار التاريخ . . كان يحب الاحجار أكثر من الكتب.

لاح له زورق دون مجذافٍ مركونٌ على حافة النهر. خشبُهُ يقول أن الصياد نسيَهُ من سنوات.

. . جلس في تلك الساحة وكتب في إنجيله يخاطب الحافي؛

لا ترسم وطنا نسيَ رسمك، ولا تدخل معبدا خدع حلمك . . شِمِ الترابَ هل تراه قد شمّك.

. . عادت عيونه لنقوش الحشاشين، وكتب كلمة ابن عربي؛ (اعرف امك واباك).

يا حافي القلب، هنا مرّ الخيام في سرّه وحيدا، هنا مرّ حسن الصبّاح في ليله وحيدا، وهنا مزّق رتابة السلاطين في التاريخ . . لقد تمزّق الإسلام بعد أربعة قرون من الوحي لالف سلطان يحكمون في حكومات الجواري والخدم، لا حكومات الرجال والقيم . .

كتب من وحي تلك النقوش لقاءا سريّا يعرفه بين حسن الصبّاح وعمر الخيّام خارج قلعة عش النسر أو "أولموت" أعلى جبل البرز جنوب قزوين . . التقيا في مدينة رودبار قرب نهر شاه ورد بعد أن طلب منه الالتحاق به في دعوته فلم يقبل . .

قال له الخيام معاتبا؛ . . اتذكر حين تعاهدنا انا وانت ونظام المُلك في الكتاتيب صغارا، أن يرفع من يرقى منا من سقط ونحن كبارا، فلما قتلت ثالثنا وعهدنا .

أجابه الصبّاح؛ ليكن ديني خاطئا، ولكنني امشي وراء ديني لا وراء سلطنتي كما مشى نظام المُلك. وهل من سلاطين مثل السلاجقة. لقد قتل نظام الملك عهدنا حينما أصبح وزيرا للسلطان. فلا تسلني عن العهد.

عاتبه الخيّام على اغتيالات سلاطين المسلمين، وعلى قلعته وفدائييه.

أجابه حسن الصبّاح؛ قلعة "أولموت" معقل ثوار لا قلعة سلطان.. تلومني على اغتيال السلاطين ولا تلومنّهم على اغتيال الناس!. لا يعنيني اغتيال الاسلام.

أيها الخيام.. إنّني اسوق الطريق قبل القافلة، أليس غريبا؟.

لقد اخترت قلعتي اعلى جبل أولموت لأجل الطريق إليه لا لاجل القلعة.. فالقلاع كثيرة. لو كنت ماكرا كما تعتقدون، لما احببتُ عش النسر اكثر من وكر الذئب.

قلعة آلموت هي مرتفعة الله، فيها الكثير من الاديان وكثير من الاعراق، كثير من اخوان الصفا، إنها أعلى رامة من راماتهم. لقد تعلّمت من اخوان الصفا كثيرا من لعبة السر..

قال له؛ أنا قرمطي آخر. لقد لممت الكثير من بقايا احفادهم، كما لممتُ كثيرا من دماء اجدادي من إخوان الصفا. أترى هذا الذي جنبي، نسميه الاغريقي.. لقد بقي يخدمنا لسنتين مقابل ان نتركه يقرأ كل رسائلهم.

قال له الخيام إنّك تقتل مدننا وديننا وحضارتنا. فالاسلام اليوم هو الحظارة.

ردّ عليه حسن الصبّاح؛

المدينة التي لا تحترم الجياع لا تحترمها.. الحضارة التي لا ترفع الناس أسقطها.

الثورة التي لا تُورِثك الكرامة ثِر عليها، والدين الذي تُغنيه السلاطين غنّي عليه..

كتب جيندار ذلك الحوار وخياله ينزف أكثر وأكثر، لأن النقوش كانت توحي له أكثر وأكثر..

لقد صلوا في هذا المحراب من قتلوا بعضهم بإسم المحراب نفسه.

المحاريب تتحارب وكلها تهتف باسم الله!. محاريب للدم!. متى كانت الصلاة دما!.

الله يكتب (و جعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا)، وهم يكتبون؛ وجعلناكم أديانا ومذاهبا لتحاربوا!.. لكم قتلت الاديان بعضها، حتى شكّ التاريخ عينه بالآية، أهي لتعارفوا ام لتحاربوا؟.

لم يحارب مؤمنٌ كافرا قط. بل المؤمنُ من حاربَ المؤمنَ على طول الله.. وكلاهما يعود لصلاته بعد القتل!.

قال صاحبُ مُسيلمة حينما عرف كِذْبَ صاحبه وصِدْقَ النبي؛ (كذّاب نجد خيرٌ من صادق قريش) .

إنها عقدة آباء لا عقيدة أنبياء . مذاهبهم قصّةُ أبي لا قصّةُ نبي .

دائما عليّ ان اقف مع الدين والتاريخ من جديد . لا أريد أن أجدده، أُريد أن أُجدد عيوني، فالكحل لا يقبل التجديد . لم يقبل ملك اورشليم صلب عيسى، الكهنة من طلبوا صلبه.

اقف من جديد مع آية؛(إنّ الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا أعزّة اهلها أذلّة) . آه، الله يتألم على أعزة اهلها، لكم كان الله ذا مرؤة. . من صفات الله المرؤة، دعك من صفاته عند الكاهن.

أيها الحافي. . إن الكُهّان إذا دخلوا قريةً زوّروها، وجعلوا أشعّة شمسِها أَهِلّة، وكذلك يفعلون. وآه من ذلة الشمس ان جعلتها قمرا .

جعلوا العشق نجاسة، والحرية رذيلة، والقتل جهادا . . جعلوا الله سفاحا .

آه من ذلة الطهر إن جعلته نقابا، وآه من ذلة الدين ان جعلته قتلا . .

يا صاح. . كلنا بلا قمر فكيف سيعرفنا الليل؟ .

7

كتب جيندار يومَ الجسر لمن يقتلون لاجل المذهب؛

لتكن قبلتي خلفك، لا أريدها، ولكن دعني اصلي صلاة خاطئة.

لا تقتلني، فالله لا يقتل على صلاته، وانتم تقتلون الله عينه في صلاتي.

لابأس، قَبِلتُ ايمانك، فاقبل حقيقتي. هكذا الله يحبك، وهكذا أنا أُحِبُ الله، وهكذا نحب بعضنا .

حَزَنَ جيندار على هدم الجسر ببغداد كثيرا، فما زالت عيون المَهَا تقفز في ذاكرته بين الرصافة والجسر . . كتب ليلتها؛

لدى الله، أن تهدم معبدا خيرٌ من أن تهدم جسرا . فالجسر يعبر عليه الناس، والمسجد يعبر على الناس.

الجسر يحمل الناس، والمسجد يقتل الناس.. الجسر وحده يصلي، فحملُ الناس صلاة.

عبر لطرف بعيد من الجسر، فوجد نفسه علِى بعد مداسٍ من دماء رجلٍ أُهدِرت بإسم الله، لانها دماءٌ لا تؤذّن بآذانهم.. قبالته كانت أمٌّ ترفع دماء ابنها الى دموع قلبها، وتمسك بيدها الثانية خبزا ما زال بيده حين قتله.. كان على بعد حسرات منها طفلٌ للقتيل تغتاله حسراته، يخلط عيونه بعيون ابيه.

كان في يدي المقتول خبزة ابنه، وفي وجهه كل حياته.. في صوته كل أُمه، وفي عيونه كل طفله، وفي قلبه كل الله.. ومن يطعن قلبا يسكنه الله يطعن الله نفسه.

ذنبه أنه بغير مذهب فحسب!.. آه غانيات هي الذنوب.

أراد جيندار أنْ يقول الفجيعة بأعلى صوته ولكن ليس لديه الا مدى الناس..

هنا أصبحت كلمة جيندار دائما هي كلمة السندي في بناته؛.. هذي أديانُك يا الله.

إلهي، ليس الكهنة هم الطهر الأكبر، في عقيدتي هم العهر الأكبر.

إلهي.. في التاريخ، وحده مبنى التوبة لا يتوب.

لا ينفع الكاهن دين، فحين نصحهم النبي بكل اجنحة قلبه؛ (ما من عصفور يقتل عبثاً إلا جاء يوم القيامة وله صراخ يقول يا رب، سل هذا فيم قتلني؟)، قاموا بقطع اجنحة الله... وحين قال لهم؛ (الإنسان بنيان الله ملعون من هدمه)، قاموا بهدم الله نفسه.

رحل الجميع، وبقيت الدماء. ما زالت تسيل وكأنها تكتب إعتراضها في لون السماء. فلا تُغيّر السماء زُرقَتَها الا بالدماء، كما لا يُغيّر التاريخ مجراه الا بمجراها.

قال جيندار لنفسه؛ وحدها الدماء من تكتب الحقيقة بوضوح، ليس لان لونها أحمر، وإنما لان وجعها أكبر.

ليلة ذاك، أخذه طيفٌ خارج روحه في المنام.. رأى فيه أنه خرج من عيونه كي يسأل الدماء، وجده سؤالا مُلحّا في الخروج على العيون.

وحدها الدماء من مشت التاريخ، إذن هي وحدها من مشت لحقيقته.

سألها؛ من خلقكِ؟، قالت؛ ليس انتَ.

- ومن سفكك؟، قالت؛ ليس غيرُك. . . أراد الله من الارض ان تغطّيني فجلعتموني أُغطّيها، وأسميتموني دَمَاً كي تدوموا بي.

سألها؛لم انتِ حمراء؟. . . أجابته؛ جعلني الله حمراء كي ترى الشعوب ضميرها، فالدماء خير بلال سَمَعَتُهُ الارض.

- و من جعلكِ سمراء؟. . . أجابته؛ أديانكم.

قال لها معترضا؛ الاديان لا تفرش الدماء، هي ترفعها للقلب في المحراب فحسب.

قالت؛ هذا ماكَذَبَ به أجدادك، وهذا ما تجدّد به كذبُهم، فللكذب أيضا مجددون.

الاديان لا ترفعني للقلب في المحراب، السلام من يرفع المحراب للقلب، كي يغدو القلب محرابا. . . القلبُ وحده من يصلي، دعك من ركوعهم.

توضّأ تاريخكُم بي، وتوّضاتُم انتم بتاريخكم. .

. . . كاذب من صلى بقتل اخيه، هل يتوضأ الله بدم عباده!!!.

. . جُرِحَ ذاك، هَدَرَتْ أقدامُ جيندار. . مشى هو وسط روحه، ومشت روحُهُ وسط عيونه. . تمهّل قليلا، بقلبه أم بقدمه، لا يعرف.

استيقظ، حينها نزع قميصه ولبسه مقلوبا، كي يبقى يُذكّره ان الحقيقةَ كما البشريةَ مقلوبة.

مسافات الوجود..

(لا أعرف شيئاً عن سر الإله، ولكنّي أعرف اشياءاً عن بؤس الإنسان)

.. بوذا

1

للدين أقدارٌ تُشبهُ أقدارَ العشق!. أقدارٌ وحدها تَبقى لغزاً في النهايات!. لا نعرف، لِما تَجعل الحياةُ فيها الفجيعة؟!.

.. آه يا للحسرة، ليلى تذهب لزوجها والله يذهب للكهنة.. أمّا قيسٌ والانبياء فيموتون في الصحراء!.

هذا أول ما بدأه يخاطب به الحافي في إنجيله عن لغز الاقدار وحيرة الوجود، ومشى لهذا اللغز في كحله؛

.. الحقيقة باكية، ولكن من يراها يضحك كثيراً.

أيها الحافي.. الحقيقة كما العشيقة تجرُّك إلى ديارها لتؤسس وطنك، كما تؤسّس قلبك. فكيف إنْ أسستْ معبدكَ؟.

الحقيقة تشربُنا لا نشربُها حين رَشْفِ كأسها، تماما كالجارية الحسناء حين شرائها، يظنُّ شاريها أنّها مُلكه، فاذا ما رَشَفَها ملَكَتْهُ.

يا صاح.. الحقيقة التي تكتبك ليس مثل الحقيقة التي تكتبها.

أردتُ ان أصيدَ قدرا من القمر فصادني الليل في قدره.. أردت ان اصيد شفاها من القناة فجلعتْ الكِتابَ يصيدني.

صاد القدرُ الفيلسوفَ سورينَ بعُيون الصبيّة ريجينا، فَضحكتْ كلمتُه؛ (انك لاتستطيع ان تصل الى الحقيقة بتلك الطريقة التي تصطادها بها، بل فقط بتلك الطريقة التي تصطادك هي بها)..

قال له الحافي؛ أياجيندار، لقد ضحكتْ هذي الكلمة نفسها كثيرا غداة التقيتك. أردتُ أنْ أصيدك لمعبدي فصادني هدمه..

حينها نزل جيندار لنفسه قليلا، وبدأ يروي للحافي حكاية من السماء.. كان جيندار يرى أنّ من يتعرّف على حكايات السماء تنفك له حكايات الارض.

يا حافي القلب.. مشيٍ بوذا الى سورين في زاوية من السماء تُسمى ساقية البؤساء. لم يرتاحا في الجنة ولم يطلبا أُنسها، أرادا هدوءا فحسب.

عادةُ المشي لبوذا في الارض بَقِيتْ هي عينها عادته في السماء.

وصل الى سورين، وجده حزينا على ريجينا لأنّ سمائه لم تقبل انْ تحلّ فيها. ما زالت ريجينا لم تعبر قنطرة الوفاء، فلم يقبل مَلاك العشق وصولها لسورين.

عادةُ العشق لسورين في الارض بقيتْ هي عينها عادته في السماء.

تمشّيا قليلا، قال بوذا له؛ يا سورين، الحقيقة التي صادتني في الغابات هي غيرها الحقيقة التي صادتك مع ريجينا. ولكنهما أخذتانا لساقية واحدة!.

يا سورين.. حيّرتني شِباكُ القدر. تُريد أنْ تصيد الحقيقة فيصيدك الزور فيها، تُريد اصطياد الفرح فيصطادك البؤس فيه.

هنا ضِحكةُ الفلسفة.. لذا لم أتعلم الفلسفة يا سورين، تعلمتُ المشي فحسب. لم اتعلم الدين، تعلمت الصمت فحسب.

يا سورين.. حيّرتني أشرعة الحياة. تريد أن تشبع بالصدق فيشبع بك الكذب، تُريد ان تشبع بالفضيلة فتشبع بك الرذيلة.

تريد ان تجوع بالروح فيجوع بك الجسد، تريد ان تجوع بالشرف فيجوع لك العار.

آه يا سورين؛ الغابات نسيتُ مشيي، كما نسيتَك ريجينا.

تحسّر سورين كثيرا لهذه الكلمة. أعطى عيونه لجهة قنطرة الوفاء، ينتظر منها عيون ريجينا، وتكلم بكل حسرته الأرضية؛

يا بوذا.. لا أُريدُ الحقيقة ولا هي تريدني، لاننا تَعَذّبْنا حين اجتمعنا.

يا بوذا.. حين يجتمع النبي بالنبوة يتعبان، وحين يجتمع العشق بالعاشق يموتان.

يا بوذا.. ليست الخيانة من تقتُلني، الوفاء من يقتلني.

.. لم تُتعبني الخطيئة، الفضيلة من أتعبتني.

لم يُعذبني الجهل يابوذا، عذّبتني الحقيقة.. لم يُحيّرني العدم يابوذا، حيّرني الوجود.

لم يَصل بي منطق العقل، جنون القلب من أوصلني.

لم ترشدني القافلة يا بوذا، التيه وحده من أرشدني.

ليس الكاهن من حيّرني في كذبه. آه، الناس من حيّروني في تصديقه.

آه يا بوذا.. لم يؤلمني تركي لريجينا، آلمني مشيي لها[1].

سأله بوذا؛ هل طردتك حين مشيت لها بعد زمن.. أجابه سورين؛ لا بل قلبي من طردني.

ثم مشى سورين بعيدا عن قنطرة الوفاء وبوذا يتبع مشيه.. كانت اول مرة لبوذا يتبع مشيا.

تحسّر الحافي على قلب سورين، يا ترى كيف كان حين أهملت ريجينا أقدامه حين أتتها. فقال لجيندار؛

قرأت للحلاج أن (التصوف هو الإناخة بباب الحبيب حتى وان طردك). فورّطني هذا المصلوب، لأني أنخت على باب الحبيب رغم طرده لي، فطردني العشق.. ولكن ليس لأكون صوفيا وإنما لأكون عاشقا.

ردّ عليه جيندار؛ ياصاح، أخطأتَ في حلّاجك وفي سِراجك، في أحبابك وفي

(1) صحيح ان الفلاسفة حاروا بسورين لما ترك ريجينا دون سبب وهي ليلاه، ولكن ما لايعلموه هو أنَّ سورين حار بنفسه لما بعد سنين تركه، مشى لها.

بابك.. ألإناخة ليس على باب الحبيب ياصاح.. أنخ على باب الحب وإنْ طردك، ولكن لا تنخ على باب الحبيب الا حين تطرده.

2

ويسألون..

هل ستبقى على زعلك القديم؟، ولماذا الله وحده دون غيره!!؟. أجل، لانه المسؤول عن هذا القلب، حتى وإن لم يكن مسؤولا عن هذه الحياة.. لا أعلم، يُحيّرني الامر، ولكني أعلم ان زعلي بقدر ايماني.

كيف قَبِلَ الله لهذي الحياة ان تجري هكذا؟!. حيرتي حيرة بوذا في بؤس الوجود، لا أهوى حيرة ارسطو في أصل الوجود.

كان قد قال له الحافي مرةً؛ عَرّفْ لي بوذا.. فأجابه؛ سيطول وقوفُ اللهِ أمامه. يعدُّ عليه بؤسَ البشرية، يُريدُ تبريرا لها.

إله الجمال، لِمَا كل هذا القبح؟!. إله الخير لما كل هذا الشر؟!. إله الحياة لما كل هذا الموت؟!.

الهي ليس المسالة لما نموت؟، المسألة لما هكذا نموت؟!.. لما عبثا نموت؟!.

إلهي، ليس المسألة انه كم مات من الرجال في المعركة. آه، المسألة هي كم تيتّم من الاطفال في البيوت، كم بكت من الامهات في المدينة.

ولكن لن تهدأ المخدة مهما نعست، ففي ذل المآسي يكون التعويض صعبا في الحساب.. يبقى الجرح جرحا ولو في القيامة.

.. ويبقى القلب هو القلب ولو في القيامة.

ردّد ليلتها أمام أنجيله كلمة حزقيل في سِفْرِه؛ (تعالي أيتها الروح من الرياح الأربع، وانفخي في المقتولين).. وكتب؛ تعال ايها القمر من المصير الاوجع وامش مع المنكوبين، تعال واعبر قمري معهم.. تعال ايها العشق من الدروب الاوسع وانفخ في التعساء. تعال وأعبر قلبي بهم.

تعال واعبر كلمة عيسى ؛ (ثم رجعتُ ورأيتُ كل المظالم التي تجري تحت الشمس، فغبطت الاموات الذين ماتوا منذ زمن) .

إلهي،الوجود ينجبنا ويدوس علينا !. . ناعور ونخلة يتقاذفان الألم، هذي قصة الإنسان والوجود .

إلهي، لما الحياة مولعة بالحزن؟ !. لا يُوثقُ بالليل لانه لا يُبقي قمرا، ولا يوثق بالحياة لانها إبنة الليل.

لم يكن بوذا يُصدّق غير التراب، لذا كان مولعا بالمشي. ولكن التراب لم يكن يُصدّق الا الموتى.

إلهي، التراب ينبت الموتى أكثر من الاشجار . . لن اسميها حياة، وهي كل الموت.

ليس المسألة ان تجد نفسك بلا معنى، المسألة ان تجد الحياة دون معنى.

ردد فيلسوف يعرف الدنيا؛ هذه الدنيا، وماذا بعد ؟ . . إنها أعمق ترديدة عرفتها .

أتتنا تلك المدن أم أتيناها . . وماذا بعد ؟ .

نزلت عشتار الى مدينتها الورقاء جنوب العراق تريد ان تشرب جلجامش عشيقا . ولكن جلجامش يردد . . إنها الورقاء، وماذا بعد ؟ .

جلجامش لم يطلب الخلود دلالا، وانما اعتراضا على الموت.

كل مشكلة جلجامش هي المسافات، كان يريد ان يعبرها ، ولكن السنين قليلة.

نادى سرّه الدمشقي إلى جوار شباكه، وكان الحافي لا يعلم عن هذا السر وفتاته شيئا؛

لا اسف على الصحراء غاليتي. . الاسف على عيونك، ستدفن في التراب.

التمسي بعض احلامي، وانتظري اقمارها . أوائل الفجر قبل ان يبدأ الليلُ الوداع.

التمسي بعض عيوني، سليها عن دروب الحلم. اواخر الظلم قبل ان يقتل الجوعُ الجياع.

باكٍ هذا الطريق، حزين هو القلب، كيف خلقته إلهي؟ .

أنه يتألم كثيرا، تلوذ به الاغاني. . فكيف تحاسبه؟ .

. . الهي تسربت الروح من جسدي

إلهي، للسفينة شاطئ لم تصله بعد، للعطاشى كوز لم يُشرب بعد .

للناي أغنية لم تُعزف بعد، لليل وحي لم يقمر بعد، للوجود معنى ابعد من بعد .
الهي قلبي زهرة تريد شمسها . . إلهي زليخة تريد قميصها .
إلهي، لم يتدخل يوسف بقدر قميصه يوما، قميص يوسف كان قدره.
آه. . يد القدر في الوجود امرأة، إذن تخيّل قدر صفعاته.
الا أيها الساقي أدر كأسا وقبّلها، الحياة تقتل اغصانك فكيف بالورد يَقْبَلْها .
الا أيها الساقي أدر كأسا وناولها، آخرُها يدفن اجفانك فكيف تعدُّ أوّلها .

3

في زمن بلا شبابيك، كتب جيندار لشُباكها؛
تصفّحي التاريخَ أيّا ما كانت الصفحات، ستقول لك ان الحياة ليست عادلة.
تصفّحي الطرق ايا ما كانت الاقدام، ستقول لك ان الجروح أكثر من الخطى.
التاريخ لم يهزج يوما، حتى خموره باكية.

القصور لا تصلي ولا تبكي في غناءها، هي ترقص فيه فحسب. وحدهم التعساء اغانيهم باكية، انها اغاني الله فيهم.

لا تصِفوا الإنسان بحيوان ناطق، صفوه بحيوان باكٍ. لان بكاءه في التاريخ كان أكثر من فلسفته.

ساعة تعريفه هو حيوان هارب. وساعة تعريفه هو حيوان كاذب. لابأس فكلها تعاريف باكية.

دعكِ من ذاك، يكفي أنه؛ لا يُؤكد وجود الروح في الجسد الا الدموع. غريب لغز الدموع كيف يدرُّها الجسد حينما تبلغ الروح حزنها ؟ ! .

سيّان في جدول الالم ومطحنة الحياة. لا قمح ولا زورق. الناس تحت الشمس في قلب الظلام.

البؤس ضلع الوجود ! .

"كل شي في هذا العالم مكسور . . لم يبق الا الصمت " . هنا اشد قلمي مع لوركا . . احتاج كثيرا للشعراء في ذلك، لان الشعر يعرف الناي أكثر .

حينما تبلُغكِ الحقيقة تُلزمكِ الصمت، لأن الحقيقة بلا كلمات . لذا أعلنت مريم الصمت حينما أتت لهم بالحقيقة؛ (اني نذرت للرحمن صوما، فلن اكلّم اليوم انسيّا . . فأتتْ به قومها تحمله) . رائعٌ، الصمتُ صومٌ لدى مريم، صوم وجودي بإمتياز .

حينها تركت مريمُ الحقيقةَ نفسَها تكلمهم . .كانت تحمل حقيقةً لن يَتَحمّلوها ، كانت تحمل عيسى، إنه الحقيقة بعينها . . هذا شأن الناس، ما لا يتحملوه يصلبوه.

الوجود مذنب . فالاحلام التي ارادها العظماء هي امنية اخرى في الخلق، ليس لأنهم حالمون، وإنما لأن الوجود يُحلل قتل احلامهم.

آه، قصص الحب تموت مجهضة، لأنها مثالية، والمثالية لا تدوم، كما الانبياء لا يدومون والثوار . وحده الطاغية يدوم اربعين عاما . هذا من منطق الوجود .

جاء الله ليلا لمتصوف البنجاب يسأله؛ هل يعجبك الكون؟ .

أجابه البنجابي؛ لا، لا يعجبني . . وأجابته البنجاب؛ لا . . وأجابته كشمير؛ لا، لا، لا يعجبنا .

ليس الإنسان هو معضلة الوجود، وإنما الوجود هو معضلة الإنسان . .

كثير من الاسئلة ينبغي ان ترجأ . مع القائدالى ما وراء الحدود، مع الحبيب الى ما بعد الفراق، مع العقل الى ما وراء القلب، مع الشفاه الى مابعد الناي، مع القافلة الى مابعد الرمال.

ستبقى في جدل لا يفتر مع الله عينه حتى تلتقيه، ولكن حينها تكون الحياة قد ولّت . . آه .

صَدَقَ جيندار كثيرا فكذبت عليه الحياة، تعقّل كثيرا فجعلته مجنونا ، ناضل من اجل الفقراء فغدا فقيرا ، اخلص لدينه فكفّره، اراد ان يركض بالكلمات فأقعدته، حمل ذكرى حبيبته فأسقطته.

لم يبق الا السحاب فوق مَرجٍ محروق برحيق اجسادنا . نحن الذين صرنا في الليل قبل ان نمر بالنهار، وفركنا بالحروف اوجاع الوجود قبل ان ينطق الوجود حروفه.

ردّد قديس بشرّي؛ (لقد مات ربي عندما أمات سلطانه، فكيف أحيا بعد اليوم بلا رب).

الارضُ زعلة على السماء اكثر من زعل السماء عليها . فمعظم الواثقين بالله لهم عتب معه، لان الحياة ليست عادلة. لايشك بذلك بوذا وقيس. . الرشيد وجاريته فقط يشُكّان.

الجوع يجعلك كافراً، والقيم تجعلك جائعاً . . تعسا ، الكفر ورائك دائماً .

الحياة كالغانية حينما تؤمن بها تكفر بك، وحينما تكفر بها تؤمن بك. . فلا تخش من عهرك، اخش من صدقك.

آه، الا أيها الساقي أدر كأسا وقرّبها . . الحياة تصبُّ آلامك فكيف القلبُ يشربها .

تتهمون حزني !، ولكن اي فرح هناك؟ . . تتهمون ديني !، ولكن اي دين هناك؟ .

الله لا يحب الفرحين، هو يقول ذلك. . الله لا يحب المتدينين، الدماء تقول ذلك.

صاحت في داخله روح حافي القلب لذا ناداه قلمه؛

اليك ياحافي العشق فوحدك لاتفرح. . هل عرفت كم نامت ليلى على مخدتها وقيس على الرمال. .

اليك ياحافي الله فوحدك لا تلعب. . هل تعرف كم نامت الصلاة في محرابها والشيخ على ليلى.

الغيمة تتبع القدر، والفقير يتبع المطر. . كلمة القدر هي؛ اذهب انت وغيمتك. فالغيمة لا تعرف العدل، رغم أن المطر هو عدل الوجود.

يقولون لي" إن الله لا يلعب بالنرد" . صحيح ولكن لطالما لعب النرد بالوجود .

لا عدل في الحياة، حتى في ظلمها .

قال لي الحلّاق كلمة حكيم آلمَهُ منطق الوجود؛

آه، لا اريد عدلا من الحياة، أريد ظلما ، ولكن ليتوزع بعدل.

4

ما زال جوار الشُبّاك، ما زال جوار أنجيله بلا مطر. . كتب للدمشقية التي أخفى سرّها؛

شباكك معي دون مطر، ما زال مفتوحا على الشتاء .

. . آه، القمر اكثر قربا للعاشق من الشباك.

لن أختصر قصة الخضر مع موسى، سأختصر قصة موسى مع الخضر . . إنها تقول؛ لِما الاقدار ظالمة؟ ! .

يقولون ان موسى لم يصبر على الخضر ! . كيف يريدونه صابرا ؟ ! . لقد قتل الخضر طفلا . . هل من قلب نبيل يصبر على ذلك ؟ ! .

غريب أمر الكهنة. لم يصبر مع ابنة شعيب فلم يلُمْهُ أحد، ولم يصبر مع فعلة الخضر فلاموه ! .

هنا أصالح موسى بعد ان زعل مني في عصا أبي ذر .

ياترى هل كان القدر هو الخضر ؟ .

لما الله ليس صريحا في قصة الوجود معنا ؟ ! . لما الخضر ليس صريحا مع موسى؟ ! .

الحياة تجبرك دائما ان تخرج على قياسات الكتب . . قال كحّال من اخوان الصفا؛مسافات الوجود كمسافات الحدود، لا يمكن قياسها . . . فالوجود بلا قياس.

القلب حيرة العقل، والقدر حيرة الحياة، لذا، حينما تبلغَ الحقيقةَ تتيه . . معرفة الوجود حيرته.

لطالما تنجب الخطيئة فضيلة، ولطالما ينجب الكفر إيمانا . . حافض الشيرازي في ابياته؛ الا ايها الساقي ادر كاسا وناولها، ناولَ بها كل الروح، رغم انها أبيات يزيد . . ومعاوية الصغير كبرت به كل الروح رغم انه ابن يزيد .

لماذا أُبقيَ على القدر لغزا دون غيره؟ ! . .

اختنقت كثيرا من الحياة انها تثرثر كثيرا، لماذا لا تقول قصتها وتذهب.

. . الاقدار كما الكهنة تُحرجُ الله كثيرا .

انشد قساوسة البورانا؛ أيها القدر، انك تتقلب مثل القمر، احيانا تمنح وتعطي، ودوما تمنع وتُنقص. المصير موحش وفارغ.

لم يكونوا هراطقة كي تعذبهم الكنيسة، كانوا حائرين كبوذا فحسب. لقد احتار ابيقور بذلك أكثر منهم.

ظالمٌ هو الوجود.. ثائر واحد كل مئة عام، وتبقى الاعوام للكذب!.

طلب الحجّاج من سيافه ان يأخذ الصوفي سعيد بن جبير من مجلسه ليقطع رأسه.. التفّ بن جبير ماشيا عنه وهو يضحك، يرافقه السيّاف.. فاستشاط الحجّاج غضبا، وأوقف بن جبير، تعال ارجع، قل لي ما يضحكك، وانت ذاهب للموت؟!!!.

أجابه بن جبير؛ (لم أضحك متعجبا من جرأتك على الله، ضحكت متعجبا من سكوت الله عليك).

آه لكم تمنى أحدهم وهو في آخر دمائه أن تُكتب هذي الكلمة على قبره، بعد أنْ شاهد بعينه كيف كان الطاغية يبيد أصحابه.

كتب يُخاطب الحافي؛

التقى الخيام بالمعرّي في سماء اخرى وقد عاد إليه بصره هناك. سأله اين انت ذاهب، قال ابحث عن مكان اطلّ به على الارض، اريد أن اجرب عيوني عليها من بعيد.. للأن رأيت السماء بها فقط، لم أرَ الارض من قبل.

قال له الخيّام؛ مابك كنت غضبا من الوجود؟!، انا كنت اضحك عليه بالكأس، وانت كنت تكسر الكاس على رأسه. انا غضبت فقط على كأسي انها تخلت عني.. لقد علّمني الديك كل ملامات الصباح، بعد أن فاتتني كل كؤوس الليل.

تركه المعري، باحثا عن زاوية تطل على الارض، تلفّتَ في البلدان من على سماءه... شاهد جيشا يمر على مدينة، تابعه، شاهد كل الفجائع.. بقيت عينه على طفل قُتِل اهله، فبقي وحده في العراء لايام، يأكل بقايا الطريق.. جاع في البرد، نام في البرد، بكى في البرد.. إتكأ على خشبة وسط حيطان في خربة.. اشتاق لاهله، رفع رأسه للسماء لعله يراهم.. قال؛ إلهي أنا لا أرى أهلي، ولكنك ألا تراني؟!.

تمدد على التراب، أسند رأسه على الخشب، البرد يخترق جسده، اغمض عينيه. بقي المعرّي هذي الليلة يراقبه للصباح. مر عابرٌ جوار الخربة فرأه، لفّ الطفل بفروه. مد يده على وجهه يتلمسه، لم يستيقظ الطفل.. ليست أمه من نومته، الموت من توّمه.

.. تندّم المعري على عودة بصره.

ردد بقرآنية أُخرى؛
والقلب وليالٍ نهب، والسلم والحرب، إنه لألمٍ عظيم.

5

أمتلاء أنجيله بالظلام..

.. آه، لقد بدأ الإنسان يغني، كي يجد أكثر من البكاء.

سألته الدمشقيّة يوما؛ لِمَ كلماتك تحمل حروفا كثيرة.

أجابها؛ لانّ أقداري تحمل أحجارا كثيرة.

اقترب من شُباكه، لعلّ مطرها يلتم عليه.. تأوه جيندار لقلمه يخاطب فيه الحافي، وكان قد اشتاق له؛

يا حافي القلب.. أريد أن ابكي ابا ذر فهل تأتي لتبكيه معي؟.

لا تستطيع ان تكتب ابا ذر وانت بين الاغنياء، الفقراء وحدهم يكتبونه. لا تستطيع ان تكتب الله وانت بين الكهنة، الثوّار وحدهم يكتبونه.

رحل أبو ذر من الوجود وهو حائر فيه.

في آلام التاريخ، حين تؤذي الحياة نبيلا تغدوا القيم متّهمة كما الحياة، فيزعل على الوجود، ويزعل على الله، لما لا يتدخل؟!. لانه صاحبه.

ظهر ان برومثيوس هو من يضع الصخرة على ظهر سيزيف، كما العصا كانت تضع الصحراء على ظهر أبي ذر.

توجهت روحه الى جهة الحجاز، حيث الربذة وحدها في الصحراء خالية من الناس، وحيث قبر أبي ذر وحده دون أي من القبور.. جميل أن يكون قبرك وحده وسط الصحراء، وغريب ان تكون كلمة النبي فيك؛ ستمشي وحده وتموت وحده.. ولكن لم تأتي في كلمته؛ قبرك وحده.. يا ترى، هل اسقطوها.

يا حافي القلب، لا يملك أبو ذر الا عصاه، ولا تملك الصحراء الا ابا ذر.

بقيت روحه على جهة الحجاز..

نشّفتُ أمسي كي أشم عطركْ، وغيّرت شمسي كي ازرع تمركْ.
ضمّدتُ قلبي كي أشفي صدرك، وجرحتُ أرضي كي ادفن سرّك.
سكبت حبري كي أملاء حبرك، وهدّمت قصري كي أبني قبركْ.
يا حافي القلب..

لا تسأل البحر عن تاريخ الدموع، ولا تسأل التراب عن تاريخ القبور.. صحيح أن البحر يُدوّن أمواجه على الصخور، والصحراء تدون قوافلها على الرمل، ولكنهما ينسيان.

جاء أبو ذر بعصاه الى قصر معاوية في الشام يحاسبه عليه وعلى الترف الذي أنبَت الارستقراطية الاولى.

معاوية يقول لأبي ذر وهو يتكلم عن بيت المال؛ المال مال الله، وانا خليفته، فهو مُلكي.

ابو ذر يرد على معاوية؛ المال مال الناس وليس مال الله.

ما اعظمه من جواب عَبَرَ به حتى الله لاجل الناس. آه أبو ذر، أي فيلسوف سيمسك عصاك؟، وأي جروح ستُعيد دماك؟.. إنها (حروف عاليات لم تُقرأ)، في عتب بن عربي.. إنها؛ عيون دانيات لم تُلثم، في عتب العصا.

كل الكهنوت اليوم يقف مع مقولة معاوية دون أبي ذر لان فيها اسم الله، ولكنهم يتناسون أنّ فيها اسم خليفة، ويتناسون اكثر أنْ ليس فيها اسم الناس.. كل الملاء في مجلس معاوية كانوا ضد أبي ذر وعصاه، كلهم يكرهونها، معظمهم ممن ترك يثرب ومكة لاجل دمشق وقصورها، فعطايا معاوية غيّرت عطايا الله.

قطع أبو ذر جدل مجلسهم، وعصاه غضبة بيده، رفع يده يؤماً لقصرهم لذي هم فيه؛ يا معاوية(ان كان هذا القصر من مالك فهو إسراف، وإن كان من مال المسلمين فهو سرقة).

ما زال يصر أن المال للناس وليس لله، فلم يقل له؛ وان كان المال مال الله فهو سرقة.. ما زال يصر. فالعصا تبقى عصا، حتى مع السماء. لهذا احب الله ابا ذر، ولهذا قتله المسلمون.

ركّزوا معي، فالمسلمون من قتل ابا ذر.. واللهِ كأني اول مرة أعي أنّ المسلمين من قتلوا ابا ذر!، رغم أني ليس أول مرة اعي أنهم قتلوا الاسلام.

آه، الثورة عاهرة لانها تقتل عشاقها.

لقد قال الناس وقد فاض شاطئ دجلة سنة صلب الحلاج؛ أن النهر يريد ان يتكلم، فسمعه احدهم يقول؛ حين يُصلب النبيل يُصلب الله.

عاد أبو ذر لغرفته في خانٍ عند زوايا الشام، ولحقه عبد لمعاوية ومعه كيس من الذهب ارسله معاوية ضنّا منه ان يسكته به كما اسكت الباقين، فردّه أبو ذر وارتد قلب العبد حزينا.. قال لابي ذر، ان معاوية حين اعطاني هذا المال وعدني بتحريري ان اخذته انت مني.

اجابه أبو ذر؛ صحيح أن في هذي الرشوة عِتقُك، ولكن فيها رقّي.. فيها حريتك ولكن فيها عبوديتي.

آه إنها كلمة أثقل من جبل قاسيون على كتف دمشق وكحلها، فدمشق لا تتحمل الا الكحل.

حينها تيقن معاوية ان ابا ذر لايستطيع أن يرشيه حتى الله بالجنة، فلابد أن يُطرد اذن من جنة الشام قبل ان تتحول نارا عليه.

اخذه الجند الى خليفة يثرب كي يكسر عصاه، ولكن عصاه من كسرت الخليفة.. اخذته الابل حافية السنام لمدينة النبي، فاصبحت النبوة بدونه حافية.

سأله الخليفة قبل النفي؛ أي ارض أحب اليك؟، أجابه؛ مدينة النبي.. اي أرض ابغض اليك؟، أجابه؛ الربذة.. فنفاه لها.. غريب أمر الوجود، أبغضُ أرضٍ لابي ذر تصبح احب ارض لعشاقه، لانه فيها.

نفوا أبا ذر إلى أرض مخيفة وسط الصحراء، لا ماء فيها ولا كلأ، الوحوش وحدها فيها، الغربة وحدها فيها.

عصاه وحدها معه، ابنته وحدها معه، صحراءه وحدها معه.. الربذة وحدها في الصحراء العربية بلا عرب.

6

لا تؤثر الحكايات الكبيرة الا في روح كبيرة، لا تؤثر الحقيقة الا في روح حقيقية.

يا حافي القلب، بعد ليالي النفي هنالك، قالت له ابنته وهو يحتضر بين يديها وسط الربذة؛

أبي أين تتركني وسط هذي البرية والوحوش الضواري حولي. . أبي الليل سينزل قريبا، إني خائفة. . ابتاه، الا يرحمنا المسلمون ويعيدونا لمدينة محمد، اليس انت صاحب نبيهم. ألا يخشون من زعله عليهم. . أبي لِمَا الحياة غير عادلة، أبي أين الله، لما لا يرحمنا!؟. أبي لا اريدك ان تموت، أبي عصاك تبكي معي.

أبي سمعت البارحة الرمال تقول إننا نحب اباك، فلما إذن يكرهك المسلمون؟!.

ابي اني اسمع محمدا يبكي في قلبي، فلما إذن لا يبكينا المسلمون.

أبي إني ارى الصحراء تأتي الى قدمك، فلما إذن لا يأتينا المسلمون.

ابي اني اكره مسلميك، أبي اني زعلة من الحياة جدا. أبي سأسأل الله عن ذلك في يوم بلا حياة وبلا مسلمين.

ابي لقد أخذني الجوع والحر كثيرا، أبي لقد أخذني الخوف كثيرا. . أبي اين الله، اين الله يا أبي. إنّي خائفة.

كانت عيونه هادئة، قال لها؛ لا تخافي بُنيتي، قبل ان اغمض عيني سترى عيناك عشرة فرسان من جهة رمل العراق، فرمله ليس ككل رمل. . عشرة يحبون عصاي كثيرا، سيحملوها معهم ويحملوكِ الى المدينة التي عصتها عصاي.

رجع بذاكرته الى عيون النبي وهو يقول له؛ يا أبا ذر ستعيش وحدك وتمشي وحدك وتموت وحدك. . ما زال يشعر ببعض الهدوء، لايعرف لما، رغم غضبه من الحياة، كان زعلا من الارض كثيرا، ومن الناس أكثر.

ابنته عيونها على عيونه. . شعرت ان هنالك شيء يحرك سكون ربذتهم، رفعتْ عيونها، شاهدت الصحراء يتلألأ فيها سراب خيول من جانب رمل العراق، عادت لعيون ابيها كي تخبره بالامر، فرأت عصاه سقطت من يده. . تفاجئت، فلم يترك ابا ذر يوما عصاه، ولم تتركه هي. . اهتزت روحها قبل إهتزاز العصا على الارض.

فهمتْ ان اباها قد رحل عنها، ورحلت كل الرمال، وكل الارض منها . لان الارض كانت تعني لها اباها .

نزلت عيونها على عيونه تبكيه، تَنْحُبُ الرمال والسماء والعصا معها، تلعن المؤمنين وإيمانهم. . أي إيمان سيلقونه بعد هذا في التاريخ.

وصل مالك الاشتر وفرسانه التسع وهو يرى رجلا أسمرا ميتا للتوّ بين يدي ابنته. ترفع هي دموعها لهم وتحدق في عيونهم معاتبة؛ هذا أبو ذر حبيب محمد، كيف تنفوه هنا، ويتسيد مدينته مروان عدو محمد ؟ ! .

نزل الاشتر وفرسانه حتى وقع بعضهم من الخيل، التموا حوله يندبونه. . وقف الاشتر وعيونه للصحراء يردّد؛ لقد يأستُ من المسلمين حينما قتلوا هذا النبي، لقد يأست من الحياة حينما عذّبت هذا النبي، لقد يئستُ من الصحراء حين قبلت ان يموت هذا الجبل عليها . . كيف لم ترحل الرمال عنها ؟ ! .

كيف تقبل الرمال أن تدفن الاقدام التي طهرتها ؟ ! .

حفروا قبره وانزلوه فيه، واعتذروا من عيونه، ليس لانها تحمل عيون النبي، وانما لانهم تركوها هنا وحدها دون أن تنقذها عيونهم. . شعروا بالخجل امام قبره، وخجلُ الفرسان لا يكون الا بخطيئة.

بقيت ابنته تهيل عليه التراب بيديها، والفرسان حولها ينتظرون ان تشبع من أرض ابيها قبل ان ينطلقوا بها ليثرب. . مازالت تهيل التراب عليه وهي منهكة من البكاء ومن غضبها على الوجود . أخذتها غفوة لهنيهة، أتاها فيها طيف أبي ذر، قائلا؛ " بُنيتي لقيتُ ربي فرَضِيّ عنّي ورضيتُ عنه" .

روت ابنته لهم الحلم وكلمة أبيها . . فسأل احد الفرسان مالكَ الاشتر، وكان مستغربا من الحلم؛ وهل كان أبو ذر غير راضيا .

أجابه الاشتر؛سَلْ الرمال. . رحل قيس وهو زعل من الوجود لا من ليلى.

أرادوا الرحيل، تذكروا عصاه، بحثوا عنها وكانت قبل قليل إلى جنبه فلم يجدوها، حيّرهم

الامر، ارتاح مالك الاشتر لذلك. لم يفهم الفرسان راحته. يا ترى هل دفنها الاشتر سراً جوار قبره، لانها لا تقبل أن تبقى بعده. يا ترى هل أخذها الاشتر واخفاها كي ترافق سيفه، لذا كان بعد ذلك فارسا تائها لا يلمّه مكان الاغمده.. ياترى هل وعد الاشترُ أبا ذر خلسة وهو ينزله القبر بأخذ ثأره، فأراد العصا ان ترى الثأر معه.

لا يعرف أحد بعصا أبي ذر ليومنا هذا أين ذهبت. بقيت العصا سرّا في التاريخ. كم من العيارين قال ان روح أبي ذر فيها.. قال احد العازفين منهم؛ ستشتاق لها الاشجار اكثر من الناي، لانها وحدها ابكت الناي، بعد ان كان الناي هو من يُبكي الناس.

يا حافي القلب، هنالك اسطورة تقول أن عصا أبي ذر انتقلت لمصر مع مالك الاشتر واخفاها بعد مقتله رفيقٌ له هاربا الى صعيد مصر، الذي بدأت معه فكرة النبالة التي آل أمرها الى فتوات اليوم بعد ان نسوا اصلهم النبيل، ولكنهم لم ينسوا العصا.

قيل انها رجعت من صعيد مصر للعراق بعد قرن من مقتل الاشتر، فكان العيارون يخرجونها يوما في كل عام ويمنحوها طقوسا في الصحراء، وهي أن يدفنها احدهم فمن وجدها بقيت معه لعام اخر، لانها تكون هي من اختارته.

قال بعضهم انها كانت لدى بعض فتية اخوان الصفا، وانشقوا عن حزبهم واتخذوها رمزا سريا من رموزهم.

يا حافي القلب، وقفوا كلهم وابنة أبي ذر يودعون القبر، ألقوا عليه نظرات أخيرة، تركوه خلفهم بأقدام تهون.. بقي قبر أبي ذر وحده في الصحراء. شعروا ان الرياح تعصف بغير عادتها، فالرمال تصعد للأعلى وكأنها زعله من الصحراء.

تسائل بينهم فارس بلثامه؛ ما بها الريح؟.. اجابه الاشتر؛ إنه رحيل الرمال. لقد دفنّا الصحراء، فعلى الرمال ان ترحل.

لم يفهمه الفارس، الفرس تحته فهمته.. لانها عبرت الصحراء كثيرا.

7

سقط قلمه، لا يقوى على الوقوف بعد ذاك، ارتاح قليلا، فالحكايات حينما تكون بصحراء وثورة تُتْعبُ كثيرا، والعشق حين يكون بعيون وكحل يُتعب كثيرا .

عاد يكتب؛

تكذب الحقيقة انها كانت تحصد معنا مذ كنا . ابدا، هي لم تحصد إلّانا فحسب.

ليس الخطب مع الحقيقة ان لا نجد معها شيئاً، الخطب ان لا شيء يجدكَ معها . ليس خطبُ الحقيقة انْ لا حياةَ لها، خطبُها أنها لا تتركُ حياةً لنا . خطب الحقيقة، اننا كلما بَسَطْنا الاقدام لها أكثر، كلما تِهنا اكثر.

هذا هو الوجود، من يمنح الحياة شرفا يُؤخذ شرفه.

تكذب الحقيقة انها انصفت الإنسان في وجوده، طالما ان وجعه ما زال فوق فاقته دون وضوح، واحلامه على ظهره دون طريق، ووجوده موقد الجحيم دون قيامه.

الرضيعة حملها وفصالها حولين كاملين، والفجيعة حملها وفصالها قرنين كاملين.

كتب لا يعرف لمن الخطاب، لله أم للوجود؛

اننا ما زلنا على اغانيك. . نذرع اللحنَ بالشغاف.

فإلى ما انت قاسٍ؟ . . كفى، أما كان بؤسك كاف؟ .

يحلمون ولا حلم هنا، حيث الحياة سبعة اقدار، سبعة بحور، سبعة آهات. .آه، وقلب واحد ! .

رفع جيندار عيونه بدل يديه كي يدعو؛

. . إلهي لا أقبل مني بُعْدَكَ، فاقبل مني قُربك.

. . إلهي ارتكبت الخطايا في قدركَ، فلا تجعلني قدرا لها .

. . إلهي توسخت الروح كثيرا، فأين روحك؟ .

. . إلهي لما الحياة تريدنا للقبح، وانت تريدنا للجمال؟ ! .

. . إلهي إني أحبك، رغم أن سوط الحياة يحبني.

. . إلهي الوجود يَحوكُ بنا، فبما أنت تَحوكَ. . إلهي أتعلم من قتل الصغير أخي، إنه المتَدين أخوكَ.

.. إلهي ماتوا الصغار، فأي شيء بقي كبيرا ؟.
.. إلهي إني ابكي فلما الوجود يضحك؟!.
.. إلهي كيف الوجود يعبرنا بظلم، وانت لا تقبلنا الا بعدل؟!!!.
.. إلهي لا يفهمون مسافاتي، فكن أنت بلا مسافة.
.. إلهي إن أنا نسيتُ بعض كلماتي فيك، فلا تُنسني أنت بعض كلماتك فيّ.

نزلت عيونه لأوراقه وكتب مخاطبا الحافي؛

يا حافي القلب.. ليس التُهمة ان تسأل إلهك معنى ما يجري، التهمة ان تجري دون معنى مع إلهك.

يا حافي القلب، لا تخطأ.. لا تضع السؤال على الله، ضع الله على السؤال.

انتبه إلى قطرات من المطر بدأت تنزل. هرولت روحه، ترك مسافات أنجيله. الشُبّاك إنه الشُبّاك، جائته مسافات المطر.. كتب؛

آه، ينزل الان المطر في دمشق.. الحمد لله املك نافذة وحدي.بدأ ينزل، كأنه قديس عليك ان تترك كل شيء لطلّته. فالمطر يجعل كل شيء وراءه قدسيا.

للمطر رائحة تصرعك حد العشق، كأنه طقس بوذي، تنزل قصائد رابندا معه.

المطر في دمشق اسطورة، سيما في أوّلُ بردى قُرب رُباه.. الاشياء تختلف مع المكان. الحب يختلف من مدينة لأخرى، كما الصلاة. فان تعشق في دمشق غيره ان تعشق في بغداد. ان تصلي في غرناطة غيره ان تصلي في الهند..

العشق في الشتاء غيره في الصيف، في الجبال غيره في السهول، الموت في الصين غيره في مصر.. الإنسان لعبة طبيعة، كما الاشجار.

.. لدمشقَ شَيْمَا غير شيماكِ بغدادُ
... أسرفتِ أنتي فكانت هي الزادُ

ينزل المطر الان في دمشق، هو حتما الآن يُبلل خصلتها على بعد اميال قصيّة من نافذتي، واميال قليلة من القدر.. يجعلني المطر استطيع تخيلها من جديد بعيونها المجوسية، فيها رعشة هولاكو وبغداد تتكسر امامه، رعشة نسيتْ هي بها زرادشت ونسيتُ أنا بغدادي.

ينزل المطر الان في دمشق، تنزل دمشق الان في المطر. . أه، ينزل العشق الان في المطر.
بردى زوارقه قليلة، ولكن احلامه كثيرة كأيامه.
ينزل المطر الان على دمشق. . انه يمنحني تهويدة اسطورية، اغزوا بها احلامي من جديد. سابقى معها، رغم معرفتي انّ حياة الحالمين حرجة.
المطر ينهمر في دمشق كما العشق.
عاد لشُبّاكه من جديد. . عاد للصفحة الاولى من إنجيله، واضاف سطرين في أسفله؛
كتّابٌ لن تكرّره الحياة حتى تكرّر ألمي
. . . رمال لن تكررها الصحراء حتى تكرر قدمي.

مسافات الكأس...

(لا تجادل الثملين...)

.. الرومي

1

قال الكحّال يوما لمن اسماها بالسومرية في أوّل مرة اشترت منه الكحل بالكحل الذي بات في عيونها؛

.. وضوء البصرة في نخلها، ووضوء العين في كحلها.

وهمس لنفسه وهو يتذكر جلنار وسجنه؛

.. وضوء البصرة في سجنها، ووضوء العين في حزنها.

أتعرفين متى تصير روحك اعمق من الليل. حينما يَرى الناس سواد عيونك أكثر من كحلك.

حارت به هل هو كحّال أم حكيم. آمنت بحكمته كما آمنت بكحله. قالت له؛ علّمني دينك.

أجابها؛

لا تخطأي.. لا تضعي الكحل على العيون، ضعي العيون على الكحل.

سكرت بكلماته كثيرا.. منذ تلك اللحظة أصبح حكيمها وكحّالها في نفس الحين. لقد غيّرت كلمته تلك قلبها أكثر مما غيّر كحله عيونها، فتغيّر معها العشق.

ومنذ تلك اللحظة التي قرأ جيندار ذلك في دفاتر الكحل، أصبح منطق ضعي ولا تضعي هو منطقه في لغة الحكمة.

قالت له رامة حينها وهي تراه يسكر حين قرأ ذلك؛ اترك دفاتر الكحل قليلا، إنها كأس، اخشى عليك من شرابه.

اجابها لا تخشي علي من خمرته اخشي علي من كأسه.

يا رامة، لطالما تسائلت؛ ياترى كيف كان كحل جلنار، حينما أصبح حبرا.

يا رامة، قال بعد زمن لتلامذته في غار همدان؛ انا لم أكن في السجن امزج كحلها بمائي، بل كنت امزج عيونها بقلمي.

حارت رامة به. سألته ما اعادت دائما عليه بحيرة؛ علّمني دينك.. نظر إلى خمرة عيونها، قال لها؛ لا تخطأي، قدّمي الكأس للشراب ولا تُقدّمي الشراب للكأس.

كان قد روى جيندار ذلك للحافي، ثم طلب منه حينها أن يدوّن بعض إنجيلياته.

- لاتقل فقط الف ليلة وليلة، قل الف ليلى وليلى.
- فقط من يكون كأسا يفهم السكر.
- عذرية الجسد في عذرية الشفاه وحسب.

تنهد صوته؛ آه، كان وجهها ابيض كسواد قلب العرب.

فهم الحافي أنه يتحدث عن رامة. ساعة ذاك طلب من جيندار أن يصِفْ الهمدانية من جديد. كان يحب أن يسمع وصفها أكثر من مرة.

قبل أنْ يجيبه جيندارٍ، ساله؛ يا حافي القلب، الظل للشمس ام للشجر؟، لا نعرف. الروح للقبر ام للسماء؟، لا نعرف.

يا صاح، سأختصر وصف رامة لك، وحدّق مليّاً في الاشياء حوله؛

في عيونها يتعادل الظل، في عيونها تتعادل الروح.. آه، وفي عيونها يتعادل الكحل.

سكر الحافي بوصفها، ولكنه انتبه لتعادل الكحل في عيونها.. وكأنه وجد في هذا التعادل خيطا من سر اسم جيندار، لان لغز هذا الاسم يظهر في إعادة عيونها كما قالت هي يوما.

ما زال لا يعرف اين يتجه. هل بين الإسمين جلنار وجيندار يتعادل الحرف، والجيم حرفهما. الحرف يسري في الحرف. أليس كلاهما يمشيان بجيم الحجر في حرف الكلمة. هل كلاهما من حجر كحل واحد أم ماذا.

تسائل الحافي؛ هل وجد الكحّال حجرا من الكحل في الوادي الذي اسماه بإسم جيندار اسفل كوة رامة التي يقطنها الغاندي.. هل هنالك دفن الكحل الذي خلطه بباقي الكحل الذي كان يبيت في عيون الصبايا؟. هل ذهب هو والغاندي لذلك الوادي بعد وداعه رامة واخذا منه شيئًا؟.

سأله الحافي؛ كيف في عيونها يتعادل الكحل؟.. اجابه؛ إنْ عرفت كحلها تهت بعيونها وان عرفت عيونها تهت بكحلها؟. ولكن هذا بعض التعادل..

لا يهم ذلك أيها الحافي، مايهم هو؛ في عيونها يتعادل الوجود.. في كأسها يتعادل السكر.

حار الحافي كثيرا، فقال لجيندار؛ ألم يكن الكحال يجمع الظلام بالنور كما يجمع الكحل بالعين. اليس هذا تعادل في الوجود. كيف كان يعادل الجسد بالروح؟.

أجابه؛ أيها الحافي.. قدّم روحك للمومس قبل ان تُقدّم هي جسدها لك.

أيها الحافي اتعلم كيف التعادل؟، قل لها؛

مسكتُ قلبي كي أرفعَ حُبّك، وأفلتُّ كأسي كي ارفع نخبك.

2

عاد يُدوّن ما يتذكره من دفاتر الكحل تلك الاخبار التي تقول كيف وجد صاحب الزنج تلك السومرية التي ادمنت كحل الكحّال وهو يعبر قريتها بعد انتصاره في البصرة بزمن.

تفاجأ بوقع كحلها، قال لها؛ هل تقبلين مني لقبا، ففي كحلك كل زنجي، كما هم في كل لقبي.

العرب لا يعرفون لقب هكذا كحل ولكنهم يعرفون لقب هكذا عيون، فاعطاها لقب "وطفاء".. لأن حواجبها كانت كثيفة، ورموشها طويلة، يأخذ بها الكحل كل ليله.

حين عرف الكحال من السومرية، أنّ صاحب الزنج اسماها بوطفاء، قال لها؛ لا تخطأي.. لا تضعي الاسم على الوجه، ضعي الوجه على الاسم.

كتب جيندار تحت ذلك؛

حين يتوحّد الابيض بالزنجي ينزل علينا الله، وحين يتوحّد الكحل بالعين ينزل على الفتاة العشق.

الا أيها الساقي أدر كأسا وكحّلها.. القوافي التي لاتنشد العشق رحّلها.

اشتاق لدفاتر الكحل عند رامة ولكحلها، تعب من كل الدفاتر ومن كل العيون.. ناداها وهو يكتب في إنجيله؛

خذي جمهوريتي كلها واعطيني بعض اساطيرك، أُريد أن ارقد بها، كرهت المرابد.

خذي جمهوريتي كلها واعطيني بعض أغانيك، أريد أن أُصلّي بها، كرهتُ المعابد.

كان قد قال لها بعد حكاية الكحّال وجلنار؛ يا رامة..

.. المرأة خمر، فمن جعلها ماءا فلقد كسر الكأس.

يا رامة.. الإنسان يُخلق بعد الولادة لاحينها. الإنسان يولد اكثر من مرة، ويموت اكثر من مرة. ولكن هناك مرة واحدة حقيقية فقط، هي حتما غير نطفة الاب في الولادة وغير حفرة الجسد في الوفاة.

.. المرأة تلد الرجل برحم العيون لا برحم البطون.

.. ساقول لك جدليتي في الضلع؛

لا بأس أنّ المرأة من ضلع الرجل، ولكن الرجل من رمش المرأة!. فمن أنجب من ؟.

المرأة ليست ضلع الرجل، المرأة ضلع التاريخ. فالتاريخ مشى بليل المرأة أكثر مما مشى بنهار الرجل، والتاريخ قتل بكحلها اكثر مما قتل الرجل بسيفه.

المرأة ضلع الوجود.. توجد في القرآن سورة للنساء دون الرجال.

يقف الوجود على خصر المراة اكثر مما يقف على زند الرجل.

صحيح أن الشيء الوحيد القادر على اسكات التاريخ هو فم الرجل، ولكن الشيء الوحيد القادر على اسكات فم الرجل هي شفاه المرأة.

يا رامة.. ليست القصة أن الله جعل المرأة من ضلع الرجل، القصة هي أن الرجل جعل

المرأة من ضلع الله. لان سحرها لا يليق به الا أصل الاله.. إيه يا نيتشه، هنا أُصحح ضلعك.

لما التعالي، تفنّن الله بالمرأة اكثر مما تفنن بالرجل.. كل الطبيعة اشتركت في خلق المرأة، الافعى كما الزهرة، بينما الرجل طينته واحدة تراب في تراب.. إنها كيان بين الطبيعة والانسان.

ما خُلِقت المراة عن ارداة الاله، ماهية الرجل خلقتها، والا لخلقها الله مع الإنسان سوية، دون أنْ يتأخر لليوم السابع.

سألته؛ لما تأخر الله في خلقها؟.. أجابها؛ بل قولي لما أخّر الله الوجود؟، فاجيب؛ لم يقبل الله أن يبدأ الوجود حتى أنّثه.

اه يا رامة، المرأة هي الشيء الذي بدأ الوجود وهي الشيء الذي نحر الوجود.

يا رامة، لوكرتيموس شاعر الابيقورية قال لشهريار في السماء؛ ضحكت عليك شهرزاد كثيرا. لقد أنستكَ النهايةُ كلّ البداية.. كيف عبرت بك الف ليلة دون أن تتذكر ليلة عروس الصندوق وحكمتها.. الحكمةُ حكمة سواءٌ بليلة أو بالف ليلة.

تذكر شهريارُ قتلَ زوجته.. عاد يعي انه بدأ خاطئا مع شهرزاد، فشعر انه كان مُخْجِلا على أريكته امامها. لقد غلبته، فلقد تحدثت شهرزاد وحدها في الليالي الالف.

قالت له رامة؛ أنا لا املك كلمات مثلك.. أجابها؛ وانا لا املك عيونا مثلك، فلا تزعلي من الوجود.

صحيح ان قلمي يقول بعض السماء، ولكن عيونك تقول كل الارض.. هذي عيونك ام ندى المطر، هذا خصرك ام حزن الشجر، ذاك عطرك ام تيه النهر.

يا رامة أخطأ المتصوفة في ابن الفارض، لقد كان يروي معركة الكحل فحسب، حين قال؛ (ما بين مُعتركِ الاحداقِ والمُهجِ.. انا القتيلُ بلا إثمٍ ولا حرجِ)... آه يا رامة، واذا العيونُ تكحّلت.

يا رامة.. حار سليمان ببلقيس أين يضع ليلة عرسها.. قال لها؛ لا تليق بليلة جسدك الا الجبال، لانها قريبة من القمر، فخرج هنالك نسلٌ لا يعرف الا التحليق. انها مسافات الجبال..

الأكراد يعرفونها كثيرا، الشراكسة يعرفونها كثيرا. انهم لا يخشون السقوط، لأنهم اعتادوا الصعود.. الجبل كرديُّ الوجود، التصوف هنديُّ الحدود. الصهيل عربي الجدود.

كشفت بلقيس عن ساقيها، وكشف الهدهد عن المسافة. فلقد أطال غيابه.

آه.. لم تُؤخّر الهدهد مسافات اليمن، أَخّرتْهُ مسافات بلقيس.

3

في ليلتهما الرابعة هذي، ولطالما يُعَدُّ الزمن بلياليه لا أيامه، يَعرفُ ذلك من عرفته الاقمار. لقد سَموها الف ليلة وليلة لا الف يوم ويوم. ليس لان الحكايات ليلية، وإنما لأن المرأة تُعطي الليل أكثر من النهار، وانّ القمر لا يَعدُّ من اليوم الا ليله.

بعد أن تاها بالكلام وبالعيون وقبل أن يتيه بهما الليل، قالت له؛

حبُّك لا يقبلُهُ ليلٌ، وإيمانك لا يقبلُهُ معبد. ردّعليها؛ إذن عانقي قمرا وآمني بِقُبلتي..

رجعتْ تَقُولَ لقُبلَتِهِ كلمةَ فيلسوف تجهل فلسفته؛ غيّرتُ لوني كي أرى لونك.

ردّ على قُبلَتَها وعلى فيلسوفها بلحن؛

غيّرتُ رملي كي ألمس اقدامك، وبدّلتُ ليلي كي أرى أحلامك.

لففتُ جناحي كي الزم سربك، وتوّهتُ شرقي كي أجد غربك.

وزّعتُ دَربي كي ألَمّ دربَك، وأسقطتُ شيخي كي أحمل ربّك.

كانت مسافات جسدها تمشي على مسافات روحها، يُحيّره الامر.. لا غرابه، فالمرأة من جعلت طين الرجل روحا، ولكن بطينها لا بروحها.

جمعت رامة البحار في عيونها، رغم إن همدان لا تجلب السفن لجبالها.. جمعت رامةُ الصيف في شفاهها، رغم ان همدان لا تجلب تموز لكانونها.. جمعت رامةُ الليلَ في شعرها، فأي شمس ستأتي؟.

شمسها مسافات لا يعبرها احد، فكيف سيعبر مسافات ليلها!؟.

فرشاة الرسام حينما تعبر ظهر فتاة في لوحة، فإنها تعبر قرونا من اللون. والمرود الذي يعبر رموش فتاة في عيون فإنه يعبر جبالا من الكحل..

هكذا عبر صاحب الزنج قرية السومرية حين عبر عيونها، وهكذا عبرت اللغة بلقب وطفاء عيون السومرية.

التفت جيندار لشعرها؛ تعالي لصحرائي.

قالت له؛أنا جبلية. . أجابها؛ اذن تَسَلّقي روحك.

قالت له؛ تسلّق انتَ عيوني. . لا أقوى على روحي.

أيا جيندار، ليست روحي من لا تطيق جسدي وانما جسدي من لا يطيق روحي، أخطأ متصوفة همدان. . جسدي آخر روحي وليس روحي آخر جسدي، أخطأ فلاسفة الروح.

قال لها؛ يا رامة، لا مسافة بين الروح والجسد حين يكون الطريق عشقا، فافهمي مسافة زليخة لا مسافة بلقيس. . الجسد أكثر من يعرف طريق الروح.

يا رامة، كانت زليخة تريد طريقا لروحها، فلم تجده الا في جسد يوسف.

اجمل لغة قالها القرآن هي (و راودته التي هو في بيتها)، وأجمل زليخه في اللغة هي (و قالت هَيت لك).

أجمل ابواب عرفها التاريخ هي تلك التي غلّقتها زليخة، لان الوجود حينها غلّق كل أمصار العشق لها، فلا بد أن تغلقَ ابواب يوسف. . لقد أنغلق كل عشق مصر بزليخة. إذن لا تلوموها فالعشق كان مُغلقا بها.

يا رامة. . لم تُخطئ زليخة في يوسف، ولم يكن حكيما من كان على الباب. . إنْ كان هو شاهد من أهلها فأنا شاهد من أهله.

صحيح أن زليخة قدّت بعضَ قميصه من دُبُر، ولكن يوسف قدّ كُلّ قلبِها من قُبُل.

كان على زليخة هنا عند الباب وليس عند النسوة، أن تقول؛ "ذلكم الذي لمتنني فيه".

يا رامة. . ماذا دها يوسف في قصة قمصانه؟!. دائما قمصان يوسف ممزقة، ساعة مع الذئب وساعة مع زليخة!!!.

دائما قمصان يوسف مزورة، ساعة بدم الذئب وساعة بذئب الحب!!!

يا رامة؛ خذي قمصاني كلها واعطيني بعض عيونك، أريد أن أتدفأ بها، كرهت الشمس.

أبعدي الكأس عن عقلي، وقرّبي شفتيك من كأسي.. لقد بردت مسافاتي، لقد بردت قناديلي.

آه.. لم تُحيّر الكحّال مسافات السجن، حيّرته مسافات الكحل.

4

يدور قلبُه الى جهة عيونها حينما تدور. شعر أن الجليد سيفترق ان إجتمعا.

قال لها وعيونه على كحلها؛ منحتُكِ كل ما لدي من مسافات، فاتركيني بلا مسافة مع كحلك.

يا رامة؛ متى كانت اول قُبلة؟، وكيف بدأتْ الإنسانَ.. متى كانت اول رقصة؟، وكيف رفعت الإنسانَ..

الرقص أهم فلسفة يُعرفُ به الحزن رغم إنه حكاية فرح.. يُعرف به الإنسان كيف بكى، يُعرف به الوجود كيف جفى.

القبلة أهم فلسفة تُفهم بها الروح رغم أنها حكاية جسد.. لا تخطأي، القُبْلة هي مجرى تبادل الروح، لا مجرى تبادل الجسد.

ردّد لها حسرةً لصوفي يهودي في نشيد الاناشيد؛ (القبلة التصاق النفس بالنفس).. ثم ردّد بصوفية من فيدا الهندً؛ (هاً هي قبلتنا دربُ الى التوحيد).

أوَ لسنا نحب الشفاه لاننا فلاسفة؟..

يا رامة، سُئِل وجوديٌّ ثملٌ بالجمال وثَمل بالغضب، عرّف لي الوجودية.. أجاب؛ الشفاه لا يمكنك فهمها، يمكنك لهمها فحسب.

يا رامة، الفلسفة هي القُبُلات البكر لشفاه الحقيقة. أن لا يسبقك لقبلتها احد.. دعكِ من قبلات ارسطو، فهي لا تلثم سم سقراط.. دعكِ من علوم بن عطاء فهي لا تعرف سجن أبي حنيفة.

يا رامة؛ أتعرفين من ينظف الصحراء؟، هي رمالها..

لا ينظف الرمال الا الرمال، ولا تَلُمُّ الشفاه الا الشفاه.. لا يُنظف الليل الا القمر، دعكِ من مصابيح المدينة.

يا رامة قالت الشفاه للعشق؛ لو غزلتَ فمي لعرفتَ دمي.
أوَ لسنا بالقبلة نوحّد الروح..
أوَ لسنا بالقبلة نقول حقيقة الشفاه..
أوَ لسنا بالشفاه نقول حقيقة الدم..
اقتربَ من عَتَبَةِ طولها؛ اكتبيني على جبلك كي اكتبك على رملي.. ما أشرف الانفاس حين تكتّب ببعضها الليلَ، وما أحمق اللغة حين تسميها باسماء النهار.
كرّرَ لها بكل العيون؛
مشطي شعرك مشطيه، فالليل آت.. اتركي إسمك اتركيه، فالحرف فات.
على الليل ان يبلغ اسمه، على القرط ان يبلغ اسمه، على الكحل ان يبلغ اسمه.
قالت له عرّف لي الليل.. اجابها؛ إنه القرط وشعرك حين يلتقيان.
سألته ومعه جلدها؛ هل أخطأتْ البشريةُ حين خطّئت اجسادها؟، أم حين غطّت اجسادها؟.. أجابها؛ بل حين تديّنتْ أجسادها؟.
قال لها جيندار؛ كاذب هو الحجاب لأنه يخفي نحرك.. حرام هو النقاب لأنه يخفي ثغرك.
يا رامة، لا يجعل الذهب جميلا الا قبح النار، ولا يجعل الروح عميقة الا سطح الجسد.. الجسد إسم برّيٌّ بلا دين، دخل إليه اسم الشرف حينما نزل من القلب الى الساق ولم يعد اليه.
أوَ لسنا بالقبلة نقول حقيقة الجلد، لان الجلد حقيقة، ومن رآه شرفا فلقد ضاع شرفه.
لا ينفع الجسد شريعة، تنفعه الطبيعة، لانه جزئها. وحينما يكون الجسد نهرا، حينها نسمع خرير الروح.
يا رامة، المتصوفة حينما حاربوا الجسد لم ينصروا الروح. أحدس ان ابيقور كان يقف على قبر سقراط ويقول له؛ الجسد محنة الشجر.
لما الغباء؛ قلب المراة تحت ضرعها لا تحت ضلعها.
سألته؛ عرّف لي عشق زليخا.

أجابها؛ هو أفضل جبريل مرّ بيوسف.

عاد تشرب عيونه من عيونها . . ردّد؛ الحمد لله الذي كحّل الصحارى بالجِمال، وكحّل العذارى بالجمال.

كانت لاتشرب الكأس، كانت الكؤوس تشربها . .

كانت لا تمشي في القرية، كانت القرية تمشي فيها . .

لديها من الموسيقى في ساعة واحدة ما يكفي قروننا من الالم. .

كما كانت فارسية العيون، كانت أيضا سلافية النقاب.

كرّرَ لها بكل الشفاه؛

مشطي شعركِ مشطيه، فالليل آت. . اتركي إسمك اتركيه، فالقلب فات.

كتب عن تلك الليلة الرابعة وكأسها بعد زمن دون كأس؛

ناديتُ ذنبي كي أجد غابَك، وأحببتُ ذنبي كي أدقّ بابَك.

أرقتُ خَمري كي أعرفَ سُكرَكْ، ولممتُ جَمري كي أُمسكَ خِصركْ.

آه، دائما السكر للشراب، فقط في كحلها السكر للكأس!!!.

5

رجعت تسأله؛ عرّف لي الكأس. . أجابها؛ إنه الكحل وعينك حين يلتقيان.

أعادت رامة جوابه على روحها، وكأنه حل لها بعض لغز كان يسكنها، لأنها كانت لا تعي ما وراء مدوّنات الكحّالة، كانت فتاة رواية لا دراية. . قالت له؛

لطالما حيّرني الكحّال حين قرأت أنّه لم يكن يبيع الكحل ازاء مال وانما يقايض الفتيات بكحل التقى بعيونهن. . كان يجمعه في قوارير يصبه على كحل جلنار الذي بقي لديه من السجن، ذاك الذي لم يكن يقبل أن يبيعه بكنوز الدنيا.

قال لها جيندار؛ ولطالما حيّر هذا الامر الفتيات في بيعه ولطالما حيّرني. . يا رامة، اللهب المقدس في المعابد القديمة لا يكون مقدسا الا حين يكون وقوده عطرا من أغصان العود والصندل والند، ولكن قُدْسُ هذا اللهب ليس للاعواد وانما للايأدي التي جمعتها . .

كانت كل قرية تتبرع بجميلتها كي تجمع للمعبد تلك الاعواد في الصباح وتودعها بيدها في اللهب حين المساء.

يا رامة، بعد موت جلنار كان الكحّال دائما يشم رائحة من كيس الكحل الذي بقي لديه من كحل جلنار حين خروجه من السجن. ولكنه لم يكن رائحة كحل.. بقي هذا العطر يحير الكحّال شهورا، حتى ادرك بعد ذاك ان للعيون عطرا، وحده الكحل يَقدر على امتصاصه منها اذا ما التقيا.. كان يقول حين تجواله بائعا؛ للعيون رائحة لا تظهر الا بالكحل.إني أُريد العيون لا الكحل.

يا رامة.. أعرف أنك قرأتي ذلك في دفاتر الكحل، ولكنك لن تفهميه الا في دفاتر الحياة. لم يكن يعرف احد من تلامذته في همدان ماذا كان يريد بتلك القوارير التي جمعها طوال تجواله بائعا للكحل قبل مجيئه لهمدان بعد سقوط الزنج، وأين يرسلها..

قيل انه كان ينثره في الوادي الذي اسماه بجيندار كما ينثر الفلاح بذوره.. فهل تتحول الاحجار كحلا اذا ما دُفِنَ الكحل فيها؟ ام تتحول شجرا ام تنبت ماذا.. لا نعلم أي مدى تمشيه كيمياء الوجود.

هل اراد من عطر العيون أنْ يُغيّر تراب ذلك الوادي في احجاره واشجاره وازهاره أم ماذا.. هل تأخذ الارض ما لدى الإنسان اذا ما اودعه فيها.. هل جمال المراة يحيل حتى من التراب ترابه؟.

هنا رجفت عيونه كما رجف قلبه قبلها، وكأنه هو من وجد شيئا، لا ينفع معه الان الا الصمت. هذا الشي هو نفسه الذي جعله بعد ذاك يذهب للوادي الذي سمّاه الكحّال بإسمه، والذي حين عبره نازلا من الغانديّ، كان يشمّ فيه عطرا، تقول له نفسه انها رائحة عيون.

التفت لكحلها أكثر.. يا رامة، عطر المرأة يُؤخذُ من عيونها، وعطر الرجل يؤخذُ من يده.

.. رائحة الروح، تتغير مع العشق كثيرا، مع الكفر كثيرا.

رفع يديه لوجهها، والشمعة تسير عليه. مرّ بإسمه اسفل عينيها، لوّنه بكحلها المنثور، كان لا يحب أن يكون الكحل في الرموش فحسب، بل حولها.

غسل إصبعه في قنينة فارغة من قناني كحلها القريبة منه، وأصبح هذا هوسه كل الليالي الباقية. حتى أصبح يقول؛

من غسل انامله بالجمال تكحّلت حروفه.

انتبه لمملكة عيونها السكرى أكثر.. قال لها؛ لن يُعرف السكر بأكثر من العيون. لن يُعرف العشق بأكثر من العيون. لن تُعرف الحقيقة بأكثر من العيون.

بين تيهي وتيهك كل المسافات، فاطوي شعركِ لليل.

اتركي لي وجهك، هو التيه. كلنا بلا جهة، كلنا بلا اسماء.. دعيني بريًا، لا أسماء للالهة ولا للمعابد.

رأى ضوء القمر يمسح جلدها، الطبيعة تتأنث كثيرا.

روى حالته معها في إنجيله؛

أخانتني قدمي، ام عطلت يدي، ام الرياح تكره وجهتي؟.

كسرتُ كأسا للرومي تقول (من قبلِ أنْ يعرفوا الخمر سكروا). فقبلتُ فتواه (ما العالمان؟ انهما انعكاس لخاله).

الوجود طين.. قالت له، ضمّدني بلا جرح.

كانت هي كالرمال تحرق اقدامه، وهو كالتلال يحمل اشجارها.. لم يقبل الكأس ان ينكسر، خشي على يديها منه... يخجل الجسد أكثر من الروح، أنْهدَ قلبها ونَسيَتْ شفاهها.

قال لها نسينا الشمس.. قالت له انت اغلى من الليل، فاصبح النسيان شمسا.

.. حينما بكت، خسرت كثيرا من الكحل ولكنها ربحت كثيرا من العيون.

آه، حينما تختلط الدموع بالكحل يصبح الوجه كحلا.

هل الدموع للروح ام للجسد؟، هل الثدي للجمال ام للعيال؟. هذه اوكار الفلاسفة، هذه أسئلتهم.

الطين يريد الطين، لن يحلم اكثر، انه الطين، الروح تطوف.. ماشربتها، ولكن بللني الوجود. هذا ماارىده.

قال لها؛لاتغفي على قلبي فانه بلاطين.

وصف فيلسوف صغير من اخوان الصفا زرادشتيةً اخذته بعض لياليها؛

كانت تتمنى الانهار ان تمشي بين شفتيها، زهرة الليلك الفارسية اتخذتهما جرفا. آه، الطريق بين الترائب لم يمشه عاشق قط، لانه مكان موته.

عاد هذا الصغير لأركان الطبيعة يقول؛

اللهُ في الطبيعة يُشكر على الخيل كثيرا، وفي المرأة يُشكر على العين كثيرا.. هل يمكن للعين ان تَشكر الخيل، لانها علمتها أن أصلها في البرية، دون المدينة وأديانها.

أحب جيندار هذا الشاعر من اخوان الصفا كثيرا في دفاتر الكحل، لأنه قال ماكان يريد في رامة من ليلتهما تلك.

عادت الزرادشتيةُ تسأل صغيرَ اخوان الصفا؛ عرّف لي النهد.. أجابها؛

.. النهد هو أكثرُ القبابِ أثراً في عبادة الله.

6

أخذتها إغفاءةٌ في كحلها فانسدل شعرها أمامه.. حار بين الليل وشعرها أيهما أخو الكحل، كانت الشمعة تضع رقصتها على وجهها. فتح إنجيله وكتب أمام عيونها؛

أن يضيع من المرأة مَخدَعها، غيره أن تخدع مرآتها بغير وجهها. فكيف ان خدعت اسمها بغير قلبها.

أنّ يسقط من المرأة حجابها، غيره ان يُحجب عنها قلبها.

قد ترفعين الرياح وقد تسمعين الطيور. قد تدخلين المعابد وقد تحرقين البخور. قد تسمعين المساء وقد تلمسين الدهور.. ولكن سيبقى اسمك بقدر اغنيتك.

الخطيئة لأجل الجمال جمال. فخطيئة الحب فضيلة وفضيلة الحرب خطيئة.

حينما يصبح الذنبُ عشقا تقمُرُ كلُّ لياليه.

أحيانا الخطايا تُطهّر بعضها، كما الغيوم تُطهّر بعضها.. أحيانا الحروب تطهّر بعضها، كما الحزن يطهّر بعضه.. يا رامة، القلوب تُطهّر بعضها، الحزن يُطهر بعضه، الصحراء تطهر بعضها.

تكلم الذنب مع الثواب، تكلمت الخطيئة مع الفضيلة، أينا خدع الحقيقة. . تكلمت الشفاه مع الخصر، أيُّنا خدع الرجل. . تكلم آدم مع حواء، كل المصيبة منك. قالت له لم يكن لي ذنب انْ جعلتْ الطبيعة تفاحك في صدري.

لم يكن الذنب لي اني لا ارتاح حتى تقضمها، وليس لك ذنب ان جعلتك الطبيعة تجوع لها . . انه ليس ذنبنا ولا ذنب التفاحة، انه ذنب تحريمها .

هنا تكلمت الطبيعة. . كل السر في كلمة لوط؛ (يا قوم أُولاء بناتي هن اطهر لكم) .

العشق تاه بين القيود والقُدود، أيّهما يَلبَس وأيّهما يَلمَس. . الإنسان تاه بين الدين والكاهن، أيهما يَحلُب وأيهما يَكتُب. . لا القدُّ يقبل قيدا ولا الدين يقبل كاهنا .

دع الدمعَ لقلبه، دع الجِنحَ لسربه. . دع الله لسمائه، دع الجُرح لدمائه. . دع المعبد لكهنته، دع الخجل لوجنته. . تريد الرمال رمالها، خنقتها المدينة.

تريد الشفاه قُبَلَتها، خنقها الحرام. . تريد الدماء شرايينها، سفكها الحلال.

تُريد الصلاة صلاتها، خنقها الكاهن. تريد الحقيقة تيهها، خنقها المنطق. إنّها أشواقُ الوجود للوجود. . هنا تاخذ الوجوديةُ حلمها، هنا تأخذ الوجودية اسمها . لم يُعرّفها هكذا أحد؛ إنّها أشواقُ الوجود للوجود .

تكلّموا عن الحقيقة والشريعة ولم يتكلموا عن الحقيقة والطبيعة. . أخطأت العلوم كثيرا، فالحقيقة لدى البدائيين وليس لدى الأرسطيين. . لدى الدهماء وليس لدى الفقهاء .

كان قد قال مرةً للحافي بعد تركِ قصة كحلها؛

لا يقوى ابن سينا على فلسفته دون خمر، ولا يقوى اوغسطين على بابويته دون انثى، ولايقوى الكحّال على قلمه دون كحل[1] .

أيها الحافي، حين قرأ بن سينا رسائل اخوان الصفا في الثانية عشر من صباه، لم يشكرهم عليها في الثانية والستين من شيبه. لقد سرق الكثير من العيون ولم يقل أنها من كحلهم. هذا

(1) كان ابن سينا مولعا بالخمر أكثر من أبي نؤاس، وكان اوغسطين مولعا بجاريته أكثر من فلسفته.

شأن الرسائل الكل شرب منها مسلمين ومسيحين، مؤمنين وملحدين. ولكنهم لم يذكروا اصل كحلها.

لم يكن أبو القاسم المجريطي أوّل من نقل من بغداد للاندلس تلك الرسائل الاثنين والخمسين، بل كانت قد صعدت قبله مسافات واسرار في الارض. ولم تكن الكأس الكبيرة التي شِربتها تلك البقاع هي من رسالة الفلك والموسيقى، لأنّ كل ما ظهر بعد سبعة قرون هناك أُخِذَ منها واضحاً وضوح كحل جلنار. بل كانت الكأس الكبيرة في مسافات اخرى، غدا فيها جيل من اخوان الصفا لا يعرفون نطق العربية.

قيل الكثير والكثير عن بقاياهم.. لقد فهمت أن شمس تبريز من الذين عرفوا كيف يضعوا كحلهم في قلب الرومي بعد أربعة قرون. وقيل انّ قرّة العين أخذت من كحلها ليلة طريقها الى بدبشت. وأن جمال الدين الافغاني آخر من ملك كحل إخوان الصفا، ولم يبق بعده كحل منهم. قيل أن "ناصر خسرو" نقل القليل منها للمعري حين زاره في المعرة.

قاطعه الحافي؛ عرّف لي المعري.. اجابه؛ اعمى تمنى الكثير عيونه.

وقاطعته هاربة القطار يوما في الركن الاحمر؛ عرّف لي الخيانه.. اجابها؛ تُطالب بها الزوجة والوطن كثيراً لأن البيت والأرض خاطئان.

رجعت تسأله عرّف لي سقراط.. أجابها؛ الحكيم لا يتزوج هكذا.

سألها كاهن بعد زمن حين عرف انها تمردت على زوجها؛ هل هذي اول مرة تخطئين فيها؟.. أجابته؛ بل هذي اول مرة يُصحّحني الله.

وسأل متنور احمق جيندار عن صاحب الزنج؛ هل هذي اول مرة يتمرد رجل أبيض لاجل السود؟، هل هذي أول مرة يخطأ فيها التاريخ؟.. أجابه جيندار؛ بل هذي أول مرة يُصحّح التاريخ لونه.

7

نظر قليلا للوادي الذي بإسمه وعاد جلس قبال عيونها النائمة وكأنها آخر عيون خلقها الله. بدأ يعيد من جديد في إنجيله ما قرأه من دفاتر الكحل بكتابة ثانية.. كان يقول؛ أحيانا عليك أن تعيد الكتابة مرتين كما عليك ان تعيد الكحل مرتين.

كتب؛ قال الكحّال للعيّار ترّاب في أيام البرية قبل رحيله لبغداد، وكانت خيمته بعيدة عن باقي العيارين، تعلو ربوة صغيرة تنبت فوقها شجرة وحدها في الارجاء، لم يقبل يوما ان يحطبها لأجل ناره.. كان يجد فيها حلمه، لان عصا أبي ذر كانت شجرة.. قال له الكحّال حينها؛

يا ترّاب..

حين تكون المرأة مدينتك، لن تدخُلَكَ مدينةٌ قط.

أتعرفَ ما هو الوجود بعد العدم، أنه العشق والقلب حين يلتقيان..

ياتراب هل كُتُبُ الله هي كُتُبُ عشق أم كُتُبُ صلاة؟.

آه، يا ترّاب.. مشكلة العالم أن أحلامه دنيّة، مشكلة التاريخ ان اسئلته غبية.

سَلْ عن حبك قبل حبيبك، وعن لحنك قبل نايك.. سَلْ عن نبيك قبل نبوته، وعن اصحابه قبل كتابه. سل عن إنسانه قبل الهه، وعن قلبه قبل غاره.

يا ترّاب؛ غبية هي الاسئلة، وليست كافرة أو مؤمنة. يمكن ان نجدها نبيلة أو دنيئة، ولكن النبل يجعلك مؤمنا، كما الدناءة تجعلك كافرا. دعك من الصلاة، فهي تسير لدرب اخر.

إسأل ربك، وصلّ بسؤالك.. الصلاة ليست دائما ركوعا.

يا ترّاب؛ نبشَ الفقهُ كل اسئلةَ المحراب وغفلَ عن اسئلة الطريق. نبشَ علمُ الكلام كلّ لاهوتية الله وغفلَ عن إنسانيته.. نبشَ التصوفُ كلّ اسئلة الروح وتركَ سؤال الجسد.

نبشتْ السياسةُ كل اسئلة الحكم وتركت سؤال المحكوم. نبشَ العاشقُ كل اسئلة الشفاه ونسي سؤالَ العيون.

يا ترّاب.. قالوا الاسئلة حصة عقل لا شعور، هذه لعبة الفلسفة. قالوا الاسئلة حق كاهن لا حق جمهور، هذه لعبة المعبد.

جعل الكاهنُ الاسئلةَ مقيدة وجبانة، وجعلها الفيلسوف عمياء وخجولة.. آه، ولكن الناس وحدهم من جعلوها غبية.

يا ترّاب.. غبية هي الاسئلة في التاريخ، سواء امام الانبياء قبل موتهم، أو بين العشاق قبل فراقهم!.

هل يُسْأل النبي عن نبوته في السماء، ام عن قيمه في الارض . ؟
هل يُسْأل النبي عن جبريل كيف يُرفع لسماءه، ام عن الجائع كيف تُرفع آلامه . ؟ .
عن الله كيف عريشه ام عن الإنسان كيف رغيفه؟ . عن الغيب ماذا ننتظر منه ام عن الوجود ماذا ينتظر منا ؟ . . عن الشريعة في الكتّاب ام عن الحقيقة في التراب؟ . . عن المعبد اين يصل أذانه ام عن القلب اين يصل سمعه؟ .
كيف نُدخل الصلاة على المعابدأم كيف نُدخل القلوب على القلوب.
كيف نُقدس الدين في إلوهيته؟، ام كيف نشربه في إنسانويته؟ .
. . يُسأل النبي؛ هل يجوز ان نختلي بالمرأة؟، بدل؛ هل يمكن ان نخلوا عن المرأة؟ .
يُسأل، كيف تنتهي الحياة؟، وليس، كيف ننتهي منها . ؟
مساكين الانبياء، أوذوا كثيرا؛ لم يجدوا حتى من يسألهم جيدا .
يا ترّاب . . غبية هي الاسئلة.
يَسأل العاشق عشيقته؛ كيف ستبدوا احلامك حين فراقي . . ! ! ولا يسألها؛ هل يمكن ان نصنع الان حلما، لن نخشى به الفراق.
يسأل هل أُناضل ان تبقي قربي، ولا يَسال هل نضالٌ ان نَحتَرِفَ البقاء .
. . لم يفهم لا البقاء ولا الغباء .

مسافات المومس..

(لقد وجّهتُ آخر خطبي الى ميت..)

.. صاحب زارا

1

يأس نيتشه من الاحياء فأتى القبور، ويأس سلمان من المسلمين فغادر النهروان. . لا يُعرفُ سلمان أين مات، وما هو خَطْبُ اختفاءه، ولا يُعرف نيتشه مع ايّ ميتٍ أخفى خُطَبه.

خارج الموت كلنا ميتون، فالمشي ليس حدُّ وجود.

خارج المعبد كلنا كافرون، فالصلاة ليست حدُّ ايمان.

هذا ما كان قد قاله جيندار للحافي مرةً قبل فراقهما، في يوم كان قد عاد فيه من خدمة المومس مرة ثانية دون أن يطلب منه جيندار ذلك. . لم يسله جيندار لما عاد لخدمتها من جديد رغم أن الشرط قد ولّى. ولم يسأل الحافي يوما عن لغز ذلك الشرط، هنا سأله فقط. . فأجابه جيندار؛

يا حافي القلب. . إن وجدت مومسا تستحق اسمها، فغيرها لا يستحق اسمه. الاسماء لاتتوزع بعدل.

ما زال الحافي لم يفهم، ومازال جيندار لا يحب أن يوزّع كل معانيه.

حاول جيندار حينها أن يَصُفّ عيونه صَفّاً، فعلى قدر الكلام عليك أن تصفّ العيون. أين تنظر وأين تخفت. . لأنه أراد أن يروي له حكاية سمعها من فلاح لا يعرف إلّاها عن آبيه،

وبقيت هي كل دينه. الغريب انّ هذه الحكاية لقيها بذاتها في دفاتر الكحل لكحّال إخوان الصفا، تحكي عن امرأةَ ليلٍ هربتْ خِلسةً من مدينتها، بعد أن فقدت فيها خِلسَ ليلها بلحى النها ر حين أفتوا برجم كل غواني المدينة. . أخذتها أقدامها الى صحراء نينوى، فشمّتْ بها كل الرمال، شمّت بها كل القلب، كما شمّت منها مدينتُها كل السقوط. . كانت مومس حقيقية تحب لعبة الجسد، أتت للعهر ولم يأتها.

العطش طفَقَ يتعهّر أكثر، لانه سرى في كل جسدها، كما سرى الرجال في كله من قبل. . قالت لا بأس هذا هو الجسد، تسري فيه كل الاشياء، الدم والعهر، العطش والفقر. كما الحياة يسري فيها الخير والشر. . لابد ان يسريان.

وصلتْ مُنهكةً تلهثُ عيونُها من العطش إلى صومعة راهب متنسّك، عرفها مومسا من اثوابها. المتّدينون يعرفون الغانيات اكثر من الحانيات!، لانهم يتلصصون كثيرا.

كان قد سمع من مريديه ان القرى اتفقت فيما بينها على رجم الزانيات اينما وجدن بعد أن اتفق كهنتها على ذلك. أرادت منه ماءا فطردها. توسلت له انها ستموت إن لم يعطها، فامامها مسافة من البرية لأ تستطيع أنْ تعبرها بهذا العطش، فلم يعبأ. . قال لها ستصلبك الصحراء بشمسها، ستأكلك الكلاب والذئاب، إنها أولى بلحمك لانك اكلتي عفة الرجال.

أنكسرت بكلامه أكثر مما كسرها العطش. تركته بين عطش جسدها وبكاء روحها. .

يا حافي القلب. . حين تجتمع في الإنسان رزايا الجسد والروح تصبح الحياة رزية. حين تذنب فيك البشريةُ تصبح الحياة كلها ذنبا.

مشت مسافة عطش وعطش، رأت من بعيد كلبا مريبا في أمره، ينبح لها دون أن يتحرك وكأنه يناديها، لا يبرح مكانه ولا تبرح عيونه عن سَمْتِها. لا تعرف هل يريد ان يلبي نداء المتنسك ام الصحراء ام عطشها؟. . يريد لحمها أم يريد حلمها؟. . ولكن قلبها مشى له.

اقتربت منه أكثر فوجدته ينبح بلسان ابيض لوّنه الظمأ، إلى جواره بئر لا يستطيع الوصول لماءه. بقي على حافته، تتعبه المسافة بينه وبين الماء.كان حائرا، لا يريد أن يغادر البئر، ولا يستطيع ان يطوي المسافة للماء. . أيضاً بين البئر والكلب مسافات، كانت وحدها الغانية تستطيع ان تطويها.

كثير من الاشياء لا نستطيع مغادرتها ولا تقبل هي ان تطردنا، تنتظر أقدارا أن تجمعنا. ولكن آه لطالما يطول نباح الإنسان دون قدر.

يُحدّق الكلب في عيونها، تتوسل عيونه لها عطشا فنسيت عطشها كما نسيت عهرها، ولكنها لم تنسى عهر الناسك.

حينما يلتقي الإنسان والحيوان في محنةٍ يتفاهمان كثيرا.. لطالما الحيوان يجعلك إنسانا، ولطالما يجعلك الإنسان حيوانا.

خلعتْ عباءتها وأسبلتها لقعر البئر فلم تصله، بدأت تخلع من جديد كل اثوابها، لابأس فالحياة لم تخلع لها ثوبا.كانت هي وحدها تخلع للحياة.

بقيت عارية كما خلقها الله، جلدها الى الرمال والريح. إنتبهت أنّ الصحراء أيضا عارية.كانت أول مرة تشعر فيها بشرف عريها.

ربطت اطراف أثوابها كلها ببعض وإنزلتها لآخر البئر ومائه حتى نقعت فاخرجتها وعصرتها في فم الكلب، وهو ينتظر بين مرة وأُخرى، وكأنه طفل ينتظر أيادي أمه. أعادت انزال اثوابها عدة مرات حتى ارتوى.. ارتخى مستلقيا، تشكرها عيونه.

رجعت كي تسقي نفسها. لم تبدأ بعطشها، لقد بدأت بعطش الكلب!. استلقت جنبه بعد ارتوائها، وهي تنظر لجوارها وعيونه تحدّق بها، فَرِحٌ بارتوائها لا بإرتوائه.

هنالك دمعة واحدة جامدة اسفل عينه، لم تكن تصدق الناس حين يقولون الكلاب لا تبكي كما العاهرات.. فالدموع دموع.

يحدقان ببعض، تفهم انه يشكرها ويشكرها.. فقالت له ومعها دمعة عطشى:

سقيتُكَ وانت حيوان، ولم يسقني الناسك وانا إنسانة!.. سقيتُكَ وانا عاهر، ولم يسقني وهو مُصلّ.

قامت تريد ان تُكمل عبورها للصحراء، فما زالت تحتاج نصف يوم كي تصلَ لديارٍ بلا كهنةِ القرى خلفَها. ديار لا يعرفها فيها أحد.

مشتْ ومشى الوجود وراءها والبئر والرمل كما الله.. التَفَتَتْ فوجدتْ الكلبَ أيضا يمشي وراءها.

2

ما زال الحافي بعد ألم الحكاية لا يفهم أين لغز الشرط، هل سيجده عند حافة البئر ام عند حافة الناسك.

قال جيندار له. . لا تنسى إن تسميها حكاية المومس والكلب، لانه هو من سقى روحها حتى وإن كانت هي من سقت جسده.

حينها فهم الحافي ان اللغز عند حافة الكلب، لانه لطالما يكون الحيوان خير من البشر.

عاد جيندار لعيون الحافي غير عابئ باللغز. عبئه كان ما مر به هو من خطايا . . قال للحافي عن كثرة خطاياه؛ لا ينفعني في محوها قدرا من حافة الكلب ولا حافة البئر. ينفعني فيها أن القي نفسي بينهما .

لا اعلم لما نحن النبلاء نقع فيها . تُحيِّرُني خطاياي. عليّ أن أردّد لك من جديد؛ حيّرتني الحياة، تريد أن تشبع بالصدق فيشبع بك الكذب، تريد ان تشبع بالفضيلة فتشبع بك الرذيلة.

حاول ان يعبر قلق خطاياه، وكره نفسه بها، كي يقول للحافي ما تريد قوله الرمال تحت المومس وهي تعبرها . . بعدما عبرها جرح الناسك، وبعدما عبرت هي عطشها بالكلب. . لقد سقت الكلب قبل أن تسقي نفسها .

يا حافي القلب؛

لا نملك حق التسمية مؤمنا، حتى نعبر الله بإنسان. . لا بصلاة.

لا نملك حق التسمية إنسانا، حتى نعبر الليل بضمير. . لا بنجوم.

لا نملك حق التسمية روحا، حتى نعبر القلب بعشق.

. . . لا يملك الله حق التسمية إلها حتى يعبرنا بجمال.

يا صاح؛

في جمهورية الله، حيثما تحقق الجمال تحقق الدين، بينما في أديان اليوم حيثما تحقّق الدين تحقّق القبح ! ! !. لا تقل ما أتعسنا، بل قل ما أغبانا .

سأله الحافي؛ ايا جيندار كيف افهم الجمال. . أجابه؛ لقد قلتها مرة لرامة. .

يُعرف الجمال بغاندي وليس بيوسف، ويُعرف يوسف بالصدق وليس بالجمال.

يا صاح. .

إنْ لم يكن هنالك جمال فليس هنالك دين.

. . من لم يتدين بالجمال خاطئ دينه.

هنا كل علم الكلام خاصّتي، وهو أن أنتهي من أن الدين هو بديهة الجمال والخير، لابديهة المأذنة.

. . من لم يكن الجمال دينه كانت عين الصلاة قبحه.

يا صاح. . التجديد بلا جمالٍ هو كِذبٌ جديد.

ردد نبيٌ روسي؛ (الجمال وحده يمكن أن ينقذ العالم) وهنا أنقذ ديستو الجمال. . فللروس أنبياءٌ كُثُر، للروس طغاةٌ كُثُر. للهنود أغنياتٌ كُثُر، للهنود مآسي كُثُر.

في هذا كان على أغنية رابندا أن تقول هنديتها؛ (الجمال ديني). ليس لان الجمال دين الحكماء. وانما لان الجمال بديهية العطر. . ولا شك مع العطر.

الجمال هو هو مذ كان؛ فما يهتز أمام يد عيسى وهي تمسح على بائسة في جسدها، سجّلت دمعتُها آخرَ طهر يناغي صليبه، هو عينه جمال ما يهتز امام يد عليٍ وهي تمسح على رؤوس أيتامٍ أياديها سليبة.

يا صاحٍ. . إنْ لم يقبلْ القمرُ كَدَر الليل، فلن يكون للقمر إسمَ أغانيه. وإنْ لم يقبل الليلُ أغانيَ القمر، فلا الليل ليلٌ ولا القمر قمر.

إنْ لم يكن دين الله يحرر العبيد، فلا الدينُ دينٌ ولا الله هو الله.

يا صاح. . الدين صحتُه إنسانويته وليس إلوهيته أو وثنيته. .

عيسى نبوته في إنسانويته وليس في جبريليته. . الله الوهيته في إنسانويته وليس في جبروتيته.

يا صاح. . الله رومانسيٌ. هذا ما اختصره لي قديس قلعة صالح، قبل ان تختصر الحياة رومانسيتها، فتُفرّق بيننا بالمدن. . آه لكم كانت اقدامه خفيفه لي.

كَتبتُ صداقته لي؛ الصفة الاولى لله هي الصَدِيق، وكَتب صاحب زارا؛ (الاقدام الخفيفة هي الصفة الاولى للالوهية). . آه لو ترك كلمته لمعناها، ولكنه جعلها لمعناه.

سأله الحافي؛ ماهي صفتك.. أجابه؛ نبيٌّ كافر.
لقد قال لرامة مرةً، وكان كحلها كافرا، لأنه تمرّد على الجمال بين الناس؛
سقراط كان كافرا لدى اثينا، وعيسى كان كافرا لدى اورشليم، ومحمد كان كافرا لدى قريش.
.. وا عجباه. النبي يقول المصيبة في قريش، والفقهاء يقولون الامامة من قريش!.
خُذي النارَ، أُريدُ جمرتي.
.. لا أُريدُ الامامة، أُريدُ المصيبة.

3

يا حافي القلب ردّد صاحب المنزلة بين المنزلتين في البصرة حسرته؛ (أدركت اقواما ما انا عندهم الا لصٌّ). وبعد زمنه ذاك بجيل عاد الشعراء اللصوص.. يا صاح، لقد أدركت أقواما ما أنا عندهم الا كافر، وفي زمني عاد المؤمنين الكفّار.

يا حافي القلب، قرأت في دفاتر الكحل أنّ العيار (ترّاب) وهو مع رفاق ثورته في بادية السماوة، أرسل رسالة لرفيقٍ له يُحبه من أولئك الشعراء اللصوص يُدعى (جحدر المحرزي) حين سُجِنَ في البصرة، وكان قد قَطَنَ معهم فترة من الزمن، وغيّر الكثير من عقيدة اقدامه في الثورة..

تقول مدونات الكحّالة عن هولاء الشعراء أنهم كانوا على مذهب العيارين والشطار، فلديهم سرقة الاغنياء فضيلة، وتخطئة سرقتهم خطيئة. لقدا كانوا يقولون حين يتحدثون عن السرقة؛
لطالما تكون الخطيئة فضيلة، ولطالما تكون الفضيلة خطيئة.
.. مما كان في تلك الرسالة من ترّاب لجحدر؛
ابق شاعرا مجنونا، فإن عُدتَ عاقلا كما قومك، حينها سيتركك الحفاة.
لا تخشى أنْ يُقال لك لصّا، أخشَ أن تكون في قصرهم.
حينها تحدّث جيندار للحافي بكلمات صعلوك شَرِبَ كل الكأس وما زال يصلي، ساخرا من الفقهاء؛

لا تخش ان يقال لك كافرا، اخش ان تكون بإيمانهم.
بيننا وبينهم كثير من الكفر.
بين العدل لديهم والعدل تحت القمر؛ تجوالٌ قلق، بين حاكم زنا بوطنه فمجّده العار مع اول نشوة لاقلام الممجدين!. وبين عاشقة زنا بها دينها فعيّرهم الشرف مع اخر وجع لحصى الراجمين.
لا تخش من الموت، اخش من حياة ميتة، فلا يجدك قبرك.
لا تخش ان ينساك التاريخ في أسماءه، اخش ان تنسى انت اسمك، فلا يجدك تاريخك.
لا تخش ان تكون بغير وطن، اخش ان تكون بغير اسم، فلا يجدك وطنك.
لا تخش ان تكون بلا إيمان، إخش ان يكون ايمانك قبيحا، فلا يجدك الله.
يا صاح؛
لا تخش من ان يُقال لك مجنونا، اخش ان تشاركهم عقولهم.
لا تخش من أن تعيش خطأً جميلا، اخش ان تعيش حقيقة تعسة.
يا حافي القلب..
قريبا من نومك الذي لم يستيقظ عليه أحد بعد سيرونك مجنونا. ولكن، لم تثق الرمال باقدامك إلا لتيهها.. الأرض تعرفنا من أقدامنا.
أبق حائرا، تائها، حزينا. لا تعيد الحياة جمالها إلا بالحزن.. الحزن يُجدّدُ الله، التيه يَجِدُ الله.
هكذا يمكن تسريح صفة النبوة الى بريّة أُخرى، تنازلْ بها عن جبريل، واذهب الى التعساء فقلّدهم جُبّة القلب. دعك من جبة الكاهن. الثانية تخفيك عن الله، والاولى تخفيه فيك.
القرى لدى الله أهم من المعبد.. يا صاح، أردت بالدين ان ينتقل من الزقاق الى الصحراء، من المعبد الى الحقل، من الكاهن الى الله، من الكتب الى القلب.. أردت أن أحرر أنفاس الله، كي تعود للطبيعة انفاسها.
يا صاح.. أسمَعونا الكثير عن الحقيقة ولكنها كانت تكذب كثيرا.
ادخُلْ غارك، هنالك في الظلام كل الشمس.. ادخُلْ عارك، هنالك في الخطيئة كل

الشرف.. ادخلْ دارك، هنالك في الصمت كل الصوت.. ادخلْ نارك، هنالك في الجمر كل زرادشت.

يا صاح.. ظلامي خير لك من نوري، لأننا نريد التيه.

خلف الذات، خلف الطريق، خلف المعبد، هنالك دائما أزقة من الكذب، أزقة من العمائم، تتكئ عليها.. الطين وحده لا يتّكئ، وُلِدَ الطينُ إنسانا.

يا حافي القلب؛

اثنان لا تجلب منهما الدين، الكاهن والفيلسوف، فكلاهما يجعلانك بلا رَب.

اثنان لا تجلب منهما العشق، الكاهن والفيلسوف، فكلاهما يجعلانك بلا قَلب.

اثنان لا تجلب لهما الخمر، الكاهن والفيلسوف، فكلاهما يشربانك بلا ذنب.

يا صاح.. ليس المشكلة أنّ الخمر يُذهب العقل، المشكلة ان الخمر يُذهبُ القلب..

أُحلّل الجنون ليس لانه يُبقي القلب، وإنما لانه يرفع العقل.. أحلّل السكر لانّه آخر الجمال.

.. لقد سكر في الجمال كثيرا، فاتركوه يصل لجِواه قبل ان تجلدوه.

يا صاح، لقد قال تائه قبلي؛ "أحب الصحراء، لأنها نظيفة".. كان يجب أنا من يقولها.

الجمال والنظافة.. أيُّ ماء بينهما، أي معبد بينهما، اي مسافة بينهما؟.

في ليلتها كتب جيندار في إنجيله ما مشت له رسالة ترّاب إلى جحدر، ولكن بمقاسات قلمه وكحله؛

يا جحدر، لا يحلو للعصا الا أبو ذر.

يا جحدر، ما زلت ابحث عنها، ولكن الصحراء ما زالت تبحثني.. أظن أنها للان لا تثق بي.

ثم ختم ترّاب رسالته؛ يا جحدر، لا تغضب على البصرة وسجنها.

.. لا يحلو للنخيل الا طين البصرة، ولا يحلو لله الا دين الضمير.

كما ختم يوما الكحّال كلمته للسومرية مدمنة كحله؛

.. لا تكرهي شمس البصرة، فنخيلها من يعرف كحلك.

4

ارتاح الحافي كثيرا لمعرفته اخبار العيار ترّاب من جديد، وارتاح أكثر ان ترّاب بقيَ بإحثا عن العصا، هكذا اراد التاريخ أن تكون. ولكنه بقي يردّد بطراوة كلمة جيندار؛ . . لا أُريدُ الامامة، أُريدُ المصيبة.

لقد أحبها كثيرا، فأحب جيندار ان يكمل له حكاية ترّاب. قال له؛

كان ترّاب يكره إمامته لأن الناس تجعلك إلها بها . لذا أخفى اسمه ونسبه وعاش بين العياريين. .لقد قال؛ أنْ أكونَ عيّارا أُطعِم الفقراء أفضل لي من أنْ أكون إلها تُطعمه الاغنياء .

يا صاح، لقد مشى كثيرا ممن حررهم في دعوته وثورته في البادية خارج اقدامه واحلامه بعد أن اصبحت الدروب لهم. . لم يطيقوا مبادئ حربه وسربه. كان يريد لهم في قُراه القرمطية الاولى ان تشترك الناس سوية في كل شي، في القمح وفي الله.

كان يريد لهم مبادئا في الجمال، تذوي بها الاعراق والاديان، عدوهم ورفيقهم، غنيهم وفقيرهم. . اختلف ثلاثة من مقربيه حد التكفير، خان بعضهم الجمال بالمال وخان بعضهم الدم بالدم.

لقد يأس ترّاب من الناس ومن الثورات ومن العقيدة فاعتزلهم جميعا، وبقي يختفي هنا وهناك من الولاة مع عصبة قليلة ممن بقوا على مبادئ نعاله، واوصى جدة طفله التي ربته بعد موت أبنتها بإخفاء هذا الطفل، وحذّرها هي وبعلها الشيخ الفقير عبدان من أن يقول نسب هذا الطفل وإمامة أبيه في الثورة.

حين اصبح صبيا جاءت به جّدته الفقيرة لرفيق من اخوان الصفا، وقالت له سر أبيه ونسبه فعرفه هذا الرفيق وحفظ سره لانه كان يعرف أباه ترّاب. حينها دخل هذا الصبي الفقير مدارس الاشراف التي لا يدخلها ابناء بيوت تلك البادية أمثال العجوز جدته وبعلها الفقير عبدان.

قال احد الكحّالة في المدونات أن هذا الرفيق من اخوان الصفا هو من لقّبه بالمتنبي وليس كما تقول الكتب. لقد وجد فيه لغز ربوة رامة التي أقام عليها اخوان الصفا كل مبادئهم. فقد وجده بعد أنْ شبّ يترفع عن الامة وينبو عن تفاهاتها دون مرتفعنا .

قال هذا الرفيق؛ لقد اخترنا اسم رامة لانها مرتفعة نريد ان ننبو بها عن الامة ونعلوا على أوساخها، وان لا يلوحنا شيئا من سيول خرابها . وكان هذا الفتى يحب صهوته كثيرا وارتقاعها، كما كان يحب لغته لأنها تقول رفعته.

كان المتنبي يترفع كثيرا لأنّ في دمه الكثير من الصهيل كما الكثير من اللغة. . لذا حين شكك أحدهم بنسبه، اجابه؛

الشعر دم. . سل شعري، أيُّ دم عربيٍ فيه؟. .

كيف تُوهِنُ أجدادي؛ وبهم فخرٌ كل مَن نطق الضاد . . وعوذ الجاني وغوث الطريد .

لم تكن حسرته على النسب، كانت حسرته على الحقيقة.

لم يكن يظن احد ممن منع إمامة الثورة منه، ان الوجود سيجعله نبيّا للشعر. . فلكل لغة نبيها، كما لكل دينه نبيُّه.

أيها الحافي. . لقد كان نبي شعر العرب هو حفيد نبيّ دينهم من لحمه ودمه. . هذه هي الحقيقة التي مازالت مطمورة بعد ألف ونيف. فما أحمقَ ألأمّة التي تحذف من نبيّ دينها نبيّ شعرها .

يا حافي القلب. . لم يُعرف ترّاب أين اختفى بعدها ومتى مات. قيل بعد زمن أنه كان يتخفى مع ثلة قليلة، كان بينهم رفيق صغير وحده بقي وفيا، انظمّ إليه بعد أنّ وجد احد الدهاقنة يهين أمه امامه في الحقل فجعله يعيد كرامة أمه بأن تُقدّر أُمّه عقابه على قدر حسرتها وحسرة ابنها . . قال لهما هكذا يترك الله الحساب يوم القيامة للناس وليس له.

فاجئهم فوج من السلطان فمات الكل الا رفيقه هذا كان خلف جروحه. . بقي ترّاب وحده في المعركة، لا يقبل ان يترك فرسه ولا تقبل المعركة ان تتركه. لا تهمُّه الغنيمة، ولا تعنيه الهزيمة. ما يهمه سيفه فحسب. . تماما كما وقف ابنه المتنبي في موته. تشابه الابناء والاباء .

قيل أنه لجأ ورفيقه الصغير بعد المعركة مجروحا إلى حبيبته القديمة ساوه، وكانت مزرعة أبيها قريبة منهما . لقد مرت سبع سنوات على يوم مجيئها تريد خيمة أسره، فأخفته في كوخ جاريّةٍ لها في بساتين ابيها الذي مات في احد غزوات القرامطة الذين خرجوا على ترّاب.

يقال أن ساوه تركت قصر أبيها ورافقته بعد أن شفي. يا حافي القلب، وانا اقرأ ذلك في دفاتر الكحل، سمعت كثيرا في أذني بيت حافظ الشيرازي؛

الا أيها الساقي أدر كأسا وناولها . . متى ما تلقى من تهوى دع الدنيا واهملها .

لا يعرف بعدها أين ذهب ترّاب، وأين مات. لا يعرفُ التاريخٌ ابدا . . ولطالما يفعل ذلك بقبور العظماء .

وقف الحافي حزينا على ترّاب كصوفي يريد السكر . . تمنى ان يجد له طريقا في التاريخ يبحث فيه عن ترّاب أين اختفى وكيف مات، كما بحث ترّاب عن عصا أبي ذر، أين اختفت، وأين انتهى امرها .

لكن جيندار بقى همه مع خيانة اصحاب ترّاب وقرامطته الذي حاول ان يطهرهم بمبادئه وترابه وعقيدته فلم ينفعهم أصل عقيدته ولا أصل دمه .

قال للحافي؛ . . لدى الله الايادي الكاذبة نجسةٌ مهما أسبلتَ بحارا عليها ، فالقلوب النجسة لاتطهرُ اياديها .

ردد نبيُّ النظافة فلسفةً بين الماء والقلب؛ (من لم يُطهّره الله فلن يُطهّره البحر) . إنها وجودية كبرى. فمن لم تجعله القيمُ نظيفَ اليد، فلن تجعله البحارُ نظيفَ القلب .

غسلَ أحدهم يده ونسي قلبه فلم يشُمَّه الله . . ألَمْ يأن لنا ان ندرك الاشياء من جديد؛ الوضوء خلف روحك لا أعلى جسدك، داخل قلبك لا فوق وجهك .

بكارة الإنسان قلبه، لا تُفضَّ حتى يَسمح للأشياء أن تدخله دون نظافة .

كن نظيفا وافعل ماشئت، وليس احبب وافعل ماشئت، اخطأ أوغسطين بذلك . لانك تستطيع ان تكره بنظافة، كما تستطيع ان تحارب بنظافة . سل المحاربين القدامى . . ما يهم هو ان تكون نظيفا فحسب .

لاطهارة لمن حَمُقَتْ روحُه، ولو اغتسل بالبحار السبع . . فأن تتوضأ هو ان تعبر البحار داخلك، لا ان تضع كفوفك لها .

لكم كنا نكذب، لأننا لم نتوضأ يوما . . فالماء على قلبك غيره على وجهك .

يا حافي القلب؛ الصلاة تمشي في القلب وليس في اليد .

الكاهن يتوضأ بيده ويقتل بلسانه. . النبي يتوضأ بقلبه ويصلي بحبّه.

أقبلُ منك أن لاصلاة دون وضوء، ولكن إقبل مني أن لا دين دون جمال. فليكن الجمال وضوئي، وليبقى الماء فقهك.

أريد ان أغسل القلوب، وأغسل انت الايادي، لا بأس. . لا اريد ان نَتَعاوَل، مِعوَلُك ومِعوَلي.

. . لكم وسّخ الكهنةُ قلوبَ الناس بوضوئهم.

5

أرّخ جيندار ليلا صفحة إنجيله بيوم ساوه، وحكى للحافي؛

قال الكحّال لقس وشيخ يوما، بعد منعهما زواج مسلم ومسيحية؛

النبي لديه زواج الهندي من العربية افضل من زواج العربي من العربية، فلما تقلبوا العربة وتقلبوا الهند والاسلام والنبي. . عيسى لديه زواج الشريف من غانية خيرٌ من زواجه حانية فلما تقلبوا اغنيات عيسى.

لقد قطعتم الطريق الى يثرب حينما قطعتم الطريق إلى اورشليم.

أيها الحافي للإنجيل كلمة فيها كل الوزن؛ (الرب يَزِن ما في القلوب). تكفيني هذي الكلمة كي أزن بها الله نفسه.

. . قل للمومس التي تخدمها؛

لا تخشي من ليلك عبورَ جسدك، اخشي من جسدك عبور قلبك.

افعلي بالنهار ليلا، واجعلي الليل نهارا، ولكن اياكِ ان تجعلي القلب فقها، فلا عشق يتمُّ في الفقه. ومَنْ عاش بفقهه في العشق، ليس كمن عاش بقلبه في الفقه.

أيهما اصح في فتوى العشق؛ فقيهٌ لم يعشق ام عاشقٌ لم يفقه؟. الامر يحتاج قلبا لا كاهنا. . يا صاح، الله والكاهن لا يجتمعان، كما الله والقلب لا يفترقان.

يا صاح، حينما يسرقك وطنك فهو يسرق منك عين كلمة وطن. وحينما يسرقك دينك

فهو يسرق منك عين كلمة دين. ولكن حينما يسرقك ضميرك فهو يسرق منك عين كلمة إنسان.

الضمير وحده يجعلك إنسانا، لا معرفتك ولا حضارتك، لا صلاتك ولا معبدك.

يا حافي القلب.. الدين هو الخجل.

ليس المسألة ان تخجل من خطيئتك امام الناس، المسألة أنْ تخجلَ من ذاتك امام الخطيئة.

ردّد طليانيٌّ في باب الجمهورية، وهو يرسم ملائكة عراة على سقف كنيسة: الرب خلقنا عرايا وعلمنا الانبياء الخجل. فردّد له الباب: علمنا الانبياء الخجل، وجعلنا الفقهاء عرايا..

.. الفقيه لا يُبقي لله ثوبا.

كان خزّار الكوفة يصنع الثوب في دكانه وفي فقهه. الم يصبح خزّه ثوبا لثورة.

خلقنا الله عرايا اجل، ولكن في الروح وليس في الجسد. عِريُ آدمَ كان في روحه وفطرته، ولم يكن في جسده. لم يكن يغطيه دين ولا قانون ما، كان كالبرية.. لقد تزوج حواء دون كاهن، الاشجار كهنته. ما اجمل مدينة ادم.

بين ان تكون عاريا بقلبك وعاريا بجسدك هو بين ان تشرب كأسك وبين ان يشربك هو.

يا حافي الطين.. ما يشربه قلبك يصلي بك، ولن تدخل بغيره مهما كبر باب معبدك.. حجمك حجم قلبك.

.. العري نظافة.. العري وضوء.

مع الله، وضوءُك هو نبلُك لا ماؤك. مع الناس، وجهُك هو طيبتك لا لحيتك.

القيم تحتاج وضوءا أكثر من الصلاة.

يا صاح.. لطالما يتوضأ الإنسان للاشياء بدمه أو دموعه أو حبره أو آلامه أو عشقه.. احيانا يبلغ الإنسان بموقفٍ وضوءاً لا يبلغه بوضوء البحار.

قد تذوق اياما مؤلمة، لا تحرم نفسك ان تتوضأ بها. إستمر في اسباغ وضوءك بها، احيانا تقفز عليك دمعة في الطريق تكفيك وضوءا الى نهايته.

الكلمات احيانا تكفي وضوءا. الكلمات ليست حبرا، والوضوء ليس ماءا..

لطالما توضأت الكوفة بخزارها . . آه، لا تليق بغداد بأبي حنيفة، ولا يليق الخزُّ بالكوفة.

يا صاح. . (ركعتان في العشق لا يصح وضؤهما الا بدم). بهذي الكلمة تؤضّأ الحلاج. وكلمتان في الحق لا يمكن كتابتهما دون صليب. وضؤهما الصلب. بهذي الكلمة توضأت الحروف.

غنوتان في الحرب لا يصحُّ نشيدُهما الا بحزن. . غنوتان في الحب لا يصحُّ عزفُهما الا بناي.

يا صاح. . العاشق الذي لايعرف أن يتوضأ بليل حبيبته لن يرى الفجر.

. . لطالما توضأتُ بالكحل.

قال ترّاب حين التقى ببعض القرامطة الذين تركوا الدرب بعد زمن من اختفاءه؛ العشق يعيدك نبيا. لطالما ضاع مني جبريل بينكم. . فلكم رأيته في عيون ساوه

وقال الكحّالة عن ترّاب؛

كان لا يتوضأ الا بالجمال، لذا لم يُصلّ يوما، لان المعبد بلا جمال.

كان لا يقرأ الفجر الا بالتراب، لذا لم يجد لأيامه كلمة، لان المدينة بلا تراب.

في المدينة، توّضأ بالفجر فلم يجد الصبحَ. في الصحراء، الفجر من توضأ به، والصبح من صلّى عليه.

كان يقول؛ انّ كل من عرف التراب هو نبي، وكل من عرف الفلسفة هو غبي. .

بعد قراة جيندار خبر ترّاب واختفائه من اصحابه واعداءه في دفاتر الكحل ردّد بيتَ إبنه المتنبي؛ نحن ادرى وقد سألنا بنجد . . أطويلٌ طريقنا أم يطولُ.

ولكم كان يُردّد حينها ورامة تملئ الليل قربه ؛ أطويل ليلها ام يطول. . أطويلٌ شعرها ام يطول. .

6

التقت غانية البئر بعد اعوام بعابر سبيل على مزرعة اشترتها في براري نينوى كي تزرع بها قلبها الجديد . لقد فتحت بئرا في وسطها للعابرين، لأنها أحبّت البئر بعد أنْ سقى قلبها .

وجمعت في أكواخ مزرعتها كثيرا من الايتام، لأنهم مقطوعين في طريق الحياة، كما كانت هي يتيمة حينما انقطعت بها الحياة في الصحراء وحدها أمام الكلب.

كان قد حكى جيندار للحافي ذلك، كما حكاها إنجيله. لقد غدت مزرعتها ديرا للايتام دون كنيسة، وغدت تُعرف بالراهبة في الانحاء.. نحيلة عيونها، نحيلة اقدارها، لم يفهم أحد لغتها، لم يفهم أحد اغنيتها، لم يفهم أحد دمعتها. اليتامى كانوا يفهمونها.

كان عابر السبيل هذا قسّا من عادته ان لا يرتدي ثوب لاهوته حين السفر، لا يريد للناس ان يعرفوا قسّيته. حين أقبلت عليه كان معها الكلب يلتصق باطراف ثوبها، لا يقبل لاهداب الثوب ان تترك انفاسه.. رأى ذلك عابر السبيل فحيّرَه الامرُ.

كانت كل العيون وراء دهرها، كل المسافات وراء بئرها.. كانت كل الاسرار وراء قلبها، كل الاسماء وراء كلبها.

سألها ما اسم كلبك الجميل هذا؟، قالت، اسمه الناسك.

رجع يسألها؛ جعلتي الحيرة حيرتين.. لما هذا اسمه، ولما يتعلّق بثوبك طوال الوقت؟.

أجابته؛ اسميته الناسك لانه يتعبد هذه الاثواب. سقيته بها مرة واحدة فبقى يتطهر بها، وسقيتُ الناس من حجري الاف المرات، فبقوا ينجسوني.

كيف ترون الكلب نجسا وهو خير من الناسك؟!.

ثم هدأت عيون القس بعد أن حكت له قصتها، وهدأت عيون جيندار بعد أن انهى الحكاية..

سأله الحافي؛ لما الكلب لا يقبل الناسك؟ أجابه جيندار؛ لان الناسك لا يقبل الغانية.

يا صاح.. من لا يقبل الكلب لا تقبله الصلاة، ومن لا تقبله الغانية لا يقبله الدين.

يا صاح.. هذه المومس هي راهبة البسطامي عينها التي غيّرته بكلمتها؛ طهّر قلبك وصلّ اينما شئت، بعد أن شكّ البسطامي بتنجيس كلبها للمكان.

يا صاح.. الكلب ما زال يليق بالطبيعة بينما الإنسان لم يعد يليق حتى بالكلب.

إسم الوجود لا يليق الا بمن كان وجودا حتى في عدمه، لا بمن كان ماشيا في قدمه.. كم عظيم أن تمشي الاشياء بك وانت بعيد عنها.

اسم المسلم لا يليق الا بمن كان سليما في قلبه، لا بمن كان موحدا في ربه. . . فليس كل من طاف بالكعبة أصبح مسلما.

المسلم لم يعد يليق بالاسلام، والمسيحي لم يعد يليق بالمسيح.

عاد جيندار يريد ان يكحّل ساعتهما ببعض الاساطير، فحكى للحافي؛

سأل أناندا البوذيُّ في الاعالي الفارسيَ سلمان؛ لما اختفيت عن المسلمين فجأة؟، فلا يعرف احد منهم اينَ رحلتَ واين متّ!. التاريخ يجهل ذلك!.

أجابه سلمان؛ وجدتُ الزمن بعث ابا سفيان من قبره، فلم أقبل لهم أن يدفنوني.

لقد كتبنا الارضَ كبارا، فلا أقبل للصغار أن يُدوّنوني.

يا اناندا، وجدت المعابد يبنيها الطغاة فتَرَكَها صلاتي.

دائما هذا حالي، لقد تركت الزرادشتين والمزدكيين والمانويين والمسيحيين والمسلمين الى شجرةٍ لأُمّي في شيراز، كانت تُطعم بها الشمس.

. . لمَمَتُ الله من جديد في الظل، كي أبقى جديدا.

يا حافي القلب، لطالما كنت أجمع الكحل من جديد بهولاء، كي ابقى جديدا.

يا صاح، كان سلمان واناندا تلميذان يعرفان كيف يجددان دينهما بالمشي، لانهما كانا يجددان القرى التي يمرّان بها.

كان سلمان ممن اتوا الى النبي وقيمه قبل ان ياتي هو اليهم. وهؤلاء هم انبياء من وراء جبريل، ومسلمون من وراء مسجد.

في عقيدتي ان هذا الرجل الغريب بين اديانه الكثيرة كان يعرف اسم الاسلام. . فلا يعرفه احد ليوم الناس هذا. . دعك من اسمهم دعك من كذبهم.

نهاية الرجز كله، نهاية اخوان الصفا كلهم، نهاية المبدأ كله، نهاية الاسم كله؛. . الاسلام هو اسم القيم الحِسِنَة، وليس اسم الجماعة المؤذّنة.

الاسم كل المبدأ. . لا يوجد مع المبدأ كلٌّ وجزء.

. . لا يوجد مع الروح جزء وكل، رائحةُ العاشقِ هي كُلُّه.

تذكر رامة واسمها، كان في أماكن اسمها اسرار اخوان الصفا، كما كان في ألغاز اسمه كل المبدأ من كحّالتهم.

يا حافي القلب، كان كحّال البصرة وخزّار الكوفة على اسم واحد ومبدأ واحد.

للكوفة اسرارها وخزارها. بقي عنان بن داوود يُسمي معلّمه ابا حنيفة بخزّار الكوفة عند ابن حيان، لانه لم يأكل بعمامته يوما، بل كان يمد الثورات من دكانه في الحرير.. كان عنان يشكر ذلك الخز كثيرا، فلولاه لما دخل السجن، ولولا السجن لما كان اليهود القرائيين.

كان اليهود والمسيحين والصابئيين في محفل النواويس، يعرفون ذلك اللقب من عنان، فاعتادوه في علومهم ومراسلاتهم.

يا صاح، لدى اليهودي عنان؛ سجن أبي حنيفة خير من الف معبد، وخزُّه خير من الف كتاب.

لقد نادى عنان يوما أبا حنيفة بعد مقتله؛

يا خزّار الكوفة، خزكَ أرقُّ ام فقهك.. آه ابا حنيفة إني اقيس فقهي على الخز، إنني اجدد الفقه بدكانك.

يا حافي القلب، ليس لأبي حنيفة تلميذا الا عنان بن داوود تلميذ السجن.

غريب هو الوجود، غريبة هي الامة، ليس لأبي حنيفة تلميذا مسلما. تلميذه يهودي فحسب.. لكم كان عظيما في هذا، ولكم كانت خيانة أمّتُه له عظيمة.

يا حافي القلب.. الشيباني ليس تلميذا لأبي حنيفة، دعك من شيبة التاريخ.. فحين دخل أبي حنيفة السجن في سنتيه الاربع الاخيرة كان الشيباني صبيّا.

يا حافي القلب، الشافعي يسأل الشيباني؛ كيف تدخل على الصلاة؟. يجيب؛ (بفريضتين وسُنّة، تكبيرة ونيّة، ورفع اليدين).. وتسألني انا نفسي؛ كيف ندخل على الحقيقة. فأجيبها؛ بجُرحين وحِنّة، الموقف والمبدأ، ولون الطين.. فحناء الطين ضميره.

يا حافي القلب؛ ان تدخل على الاشياء وتجعل الله فيها، لا ان تدخل على اليدين وتجعل التكبيرة فيها.. ان تُدخِلَ الله عليك.

ان تدخل على الصلاة هو ان تدخل على الوجود، لا ان تدخل على السجود.

7

كان يعرف ان جبال رامة تعيده من جديد، كما تُجدّد شجرةُ شيراز دينَ سلمان. أليس الجبال من تُعطي الكحل.. حتى أصبح يقول؛.. من يعرف الكحل يعرف الله.

كان يردد قديما؛ الجبال وحدها تبقى في الحروب، ولكنه الان في زمن لا تبقى فيه حتى الجبال، زمنٌ لا تبقى حتى الأنهرُ فيه.

وحدها القرى في الحدود كالجنود، تموت كاملة.. القرى في الحدود تحب النايات، لان اغانيها حزينة دائما.

كانت رامة ترغب ان تموت مع الجبل، ولكن الجبل لا يقبل لاحد ان يموت فيه. لذا الناس لا تدفن الا في التراب.. ولكن قريتها من ماتت بالحرب دونها، هكذا عرف بعد سنوات من عيونها، ولا يعرف أين يجد أثرها.

سمع من الكثير عن بقايا رماد قريتها، وسمع قريتها وكأنها تقول له؛ تعال وانظر إلى عطري أصبح بعطر الدم.

صمت فجأةً، ساد وجعه على ناصية حرفه.. اصرّ انه لن يقول شيئا لهذي الامة، فلم يعد يجدي معها شيئا.

لن يقول شيئا للانسان بعد ان مات نايه. الناي وحده ابقى لدينه، والمدينة دائما تنسيه الناي.. لا يريد غير الناي دينا.

لم ينشد القافية التي كررها الحالمون كثيرا؛ "لمن تعزف مزاميرك ياداود".. بل ردّد؛ المدينة كرهت القوافي كما كرهت الخراف.

إنه الناي، آذانه لا يطلب مصليا، هو يطلب قلبا فحسب. والناي دون قلب هو عشق بلا ديون.

ردّدت القرية؛ اقلبي كأسه، فانه لم يعد يؤمن بها، ومزّقي اوراقه فانه قد مزّق قلبه.

وقفَ في الليل فقبّل القمرُ دربَه، ووقفَ في العشق فقبّل الحزنُ قلبَه. دخل المعبد دون امام، فرجع مرتدا. لم يصلبوه فحزنه توسّط له، حزنه كان أيضاً إماما. لم يعلم ذلك، حتى عزف نايه.

تلثّم بوجعه، فلم يجد غير عشقه هناك، اسلم بركته للبحر فوجد الغريقُ انفاسه. . كتب في عيونها النائمة فاستيقظ، لم يكن يريد العودة للحياة.

كان فقط ينتظر العيون، فلياخذ عزرائيل سراويله، لأنه ليس لديه الاها . . تراجع بضع خطوات عن مصيره، مسكين لم يعلم ان مصيره للوراء .

لكم تمنى الغباء مرةً. . فقال؛

. . راحة الحمار هو في مشيه غبيا مع الحياة.

كان عنتر قويا ولكن القوي يحتاج أحيانا بعض الغباء. لذا كان عليه أحيانا أنْ يركب حمار شيبوب.

لم ينفك يرغب بزيارتها، ولكن الوجود اقداره جبلية، دائما تجعلك بين الارض والسماء. لا تعرف الى ايهما تصلي. . هل ترفع رأسك الى الله، ام تطرق برأسك الى القِبلة؟.

قال بعضهم انه زار قريتها كثيرا، حينما رأى أن الجبال في بلده لم تعد تهوى البغال.

لكم تمنى ان يعرف أين ذهبت رامة وأين ضاعت بها الجبال، ولكم تمنى الحافي قبل فراقه أن يعرف عن ساوه حبيبة التّراب، أين ذهبت، وكيف ماتت بها بحيرتها . .

فترنّم بكلمات جيندار؛

آه يا ساوه، لا يوجد في الروح جزء وكل، رائحة العاشق هي كله. .

مسافات الله..

(لا تحكموا علي من وجهة نظر البشر، بل احكموا علي من وجهة نظر الله..)

.. صوفيٌّ لا يُريد صوفه

1

وقف جيندار ذات مساء على اغنية ومشى، تذكر اياما مَطَرِية.. جلس الى اوراقه كي يكتب في إنجيله.. نظر للأوراق قليلا ونظر إلى المطر كثيرا، فكتب؛

.. آه، احبتني عاهرةٌ يوما فوجدتها أشرف مني.

نسيتُ خصرها على طاولتي كي أصلّي فلم يقبل الله صلاتي!، لم أكن أعرف أن الله وجوديٌّ هكذا!!!.. صدّقوني تعلمت الوجودية من الله وليس من كيركجارد..

لا تخطأوا.. لم يزعل الله لاني كسرت قلبا، بل لأني كسرت خصرا.

هنا كل الوجودية وخصرها. فلكي تكون وجوديا عليك أن تحترم الاشياء في نوع وجودها.. هنا ابعد تعاريفها؛ الوجودية هي أن تُعطي الاشياء حقّ وجودها، كما أعطاها الله حق ماهيتها.

أنْ تكون وجوديا، هو أن تعرف من الوجود استحقاقاته كما تعرف من الدين مسافاته. ولكن أنْ تحسب مسافات الإنسان لا مسافات الله.

لقد علّمني البحر ملح الوجودية، ولكم تمنيت أنْ أُعلّم الوجودية بعض أشرعتها، ولكن هي

من لاتقبل أنْ تتعلم، لأن دفتها لا تقبل جهة واحدة. الوجودية فتاة لا يقبل عشقها حلما واحدا.

صدّقوني، تعلّمت الوجودية، من إخوان الصفا وليس من إخوان هايدكر.

كي تكون وجوديا، عليك أن تجعل الدين يشرب من الارض اكثر من السماء.

كي تكون كاتبا، فعليك أن تجعل القلم يشرب من الكحل أكثر من الحبر.

رفع جيندار رأسه وردّد روميّتَه؛ تعال نتكلم عن الله. . . ثم تداركَ يكتب وجوديته؛ تعال نتكلم عن الإنسان. . هذا مانسيته، هذا ما أنسانيه علم الكلام.

المسلمون كما المسيحيون، ليس المشكلة معهم ان لا أحد يعرف مسافات الله، المشكلة معهم انُ لا أحد منهم يعرف مسافات الإنسان.

الوجود لا يقاس على احد . . هذه هي وجوديته.

مسافات الوجود ليست كمسافات اليهود، لانها بلا درب. مسافات الصحارى ليست كمسافات النصارى، لأنها بلا رمل. أما مسافات المسلمين فهي كمسافات الطين. . الوحل دائما يغطي اقدامك.

هنا آخر الريش في تعريفها؛ الوجودية هي المسافة بين الطبيعة والشريعة. . النسر عطش بين امتارها . .

من امتارها؛ الكاهن الذي فسّق السكير ينتظر الصلاة. أما السكير المملؤة كأسه بثورته اكثر من خمرته، فالصلاة من تنتظره.

من أمتارها؛ عليك احيانا ان تتركَ المعبد مهما داسه قديسيك، لصلاة الازقة مهما داسها الصعاليك. . احيانا، عليك ان تتخلى عن حزب دينيٍ مهما كثرت صلاته، الى حزب بلا دين مهما كثرت حاناته.

ألم نتنبه أنه كلما نشأت دولة دينية كلما زاد عدد الغانيات! . . ليس غريبا، نحن الاغبياء حينما نقيس خطأ الدين بالغانيات.

متى يأتي يوم يرى الله فيه امرأة الليل ورجل المعبد يجلسان للشمس سوية لا للمحراب، فيتحدثان عن الله دون مفاضلة بينهما . . متى ما توحدت المومس بالكاهن توحّدالله.

عاد لأوّل صفحات إنجيله، وكان مكتوب فيها؛

هذا كتاب لا تقرأه دون موسيقى، هذه عيون لا تنظر لها دون عشق، هذي خيل لا تركبها دون قيم.

كان الخمر يسري في قلمه أكثر من الحبر. . لقد كان يقول؛ يَسكرُ القلم بيد الكاتب، أكثر مما يسكر العاشق بيد فتاة.

كانت قناني الكحل جنبه كما الشموع. وحده هذا الكحل عاد معه من احجار الوادي الذي كان بإسمه امام سفح رامة والكوة التي يقطنها الغانديُّ. ما الذي جعله يضنّ ان تلك الحجارة تصلح كحلا؟. قيل أنّه كان يؤمن بسر في ذلك الوادي وفي الكحل لا يفهمه. ولطالما نؤمن بأشياء لا نقدر أنْ نفسّر إيمانها.

رأى الكحّالة أن معلّمهم الكحال ينزل دائما بعد لقاء كوّة رامة ودرس الحكمة فيه إلى ذلك الوادي. . تبعه مرة تلميذ منهم فسمعه يقول وسط ذاك الوادي؛

في توابيت الكحل اسمي، فان دفنتموه فسيعود، لأنه يغصن باسمها.

لا يعرفون سرّه هناك، قيل أنه دفن فيه القوارير التي جمع بها كحل جلنار بالكحل الذي اخذه من عيون الفتيات طوال تجواله يبيع لهن الكحل بكحل بات في عيونهن. قال احدهم انه كان يشم عطرا كلما مرّ بالقرب من ذلك الوادي، لم يشمّ مثله من قبل. هل سيتحول الحجر هناك الى كحل بعد زمن، هل كان يريد أن ينبت الكحل، وهل يُزرع الكحل؟!. بعضهم قال؛ توقعوا من الكيميائي كل شي، كما عليكم ان تتوقعوا من الوجود كل شي. فالوجود كيمياء وحسب.

كان يؤمن بغيبٍ للطبيعة خارج ظهورها، حتى كَتَبَ في مصحف الكحل؛ إياك ان تكذب على الكحل، لانَ الكحل سيلعنك. الاشياء تلعن كثيرا. . . انها وحدة الوجود، انها وحدة الارض والشمس، هل انفكا يوما؟.

فهم جيندار ذلك فلم يكتب يوما بالكحل غير كلمات تليق بالحقيقة. لم يجعل الكحل يوما يكذب في إنجيله.

حين سأله احدهم مرة عن الفرق بين الشريعة والحقيقة. . اجابه؛

. . كي تكون كحّالا فعليك ان تجعل الكحل يلمس العيون اكثر من الرموش.

2

أضاف لشرطيّة إنجيله؛

هذا كتاب لا تقرأه دون موسيقى، هذا كتاب لا تقرأه دون صدق أبي ذر . . فلن ينفعك وانت بكل الكذب.

يكذبُ، كلُّ شيءٍ يكذب، اليسار كما اليمين، الحب كما الحرب، الخير كما الشر.

. . كل السفن نفس السفن، كل الخمر نفس الخمر.

في عقيدتي؛ يُفضّل النبيُّ لقبَ صادق على لقب نبي . . النبوة هي الصدق مع الاشياء.

ردّد بحسرة؛ كي تكون كاهنا عليك ان تشرب من الكذب أكثر من الصدق.

رفع قلمه وقلب الصفحات يبحث عن اخر السطور العارية لديه، لأنه غطى الكثير . . وكتب؛

لا تصدّق من يغطون تاريخك. صدق عصا بن جنادة كيفما غطتك، لأنها لا تقبل ان يُغطيها الذهب.

حين نتكلم عن الحقيقة يصبح الكذب على العيون، وحين نتكلم عن التاريخ يصبح الكذب على الرفوف. ولكن حين نتكلم عن الكهنة يصبح الكذب على المآذن.

كل شيء مشكوك فيه. لا يوجد شيء سالم في المعبد الا كذبة الاباء، تعلمها الابناء وزادوا عليها . . وحينما تسترشد قافلة التاريخ بأقدام الكذب، فلن يكون التاريخ نفسه الا كذبة. ويكون الاحتفال به كذبة مضافة.

لدى الله؛ مستوى الكذب يحدد مستوى القبح. ولا آخِر لقبح الكهنة، لانه لا آخِر للكذب فيه.

لقد كذبوا على الانبياء، فالكذب لا تردعه النبوة . . إختصرت عجوز مصريّة دنيئاً فقالت؛ (إنه يسرق نبي) . . أحببتُ طولَ عمرِ العجوز وأحببتُ الاختصار، لأنهما عبرا عمر الحقيقة.

في عمق الزور تجد الاصيل، لأن الحقيقة تمشي وسط الكاذبين.

الكاهن لا يحب الاصل، تجده دائما مولعا بالحواشي. كما لا يحب السماء، تجده دائما يبعدها عنه بقبابه.

منذ ان كذب الإنسان اصبح شريرا.

يا صاح.. صراع التاريخ بين الإنسان أكثره صراع للكذب فيما بينه بإسم الحقيقة، وليس صراعا للكذب مع الحقيقة. فلطالما يلتقي كاذبان لحرب (يموت فيها الصغار ويثرثر فيها الكبار)، كما ثرثر هوميروس يوما. ولطالما ماتت اجيال بصدق لأجل كذبة.

لا أثق الا بنبي أوعاشق، لتجردهما؛ احدهما لرسالته والثاني لعشقه، يدوران حول تلك القبلة، لا يطمعان من الحياة بغيرها، كي يكذبون لأجله عليك، كما هي الاحزاب والمذاهب.. من قِبلة لقِبلة، وهُم دون قُبلة.

دائما، قبل ان يتناول النبي قلمه الوحيد يشرب كأس نزيفه، وقبل انْ يثمل العاشق بقُبلته الاولى يَعِيَ وجسَ رِحاله.. كلاهما لديه قبلة واحدة كُسِرَت القاف أو ضُمّت.

لا أثق الا بنبي أوعاشق.. كلاهما لديه طواف، بمبدأ أو بشفاه. ولطواف الشفاه سرٌّ يُبللُ اللهُ فيه الوجوديةَ كلها، يُبلّل فيه المسافات كلها.. كيف نسي إخوان الصفا شرح طبيعة القبلة!؟.. الكحّال لم يُقبّل جلنار. يا للحسرة.

لا اثق الا بنبي أو عاشق.. ألكونهما حزينان؟.. فلم يأت نبي فَرِحٌ ولا عاشقٌ، فالسعادة امر اخر.. غليان الذات لا يسمح لهما بذلك، فالنبوة جمرة داخلية للإله تحرقُ أقدامُها الرمال، والعشق جمرة داخلية للقلب تحرق قُبلاتُها الشفاه.

جعل قلمه ينادي الحافي في إنجيله.

أيها الحافي.. القُبلةُ التي لا تَصْلِيكَ كاذبة، والقِبلةُ التي لا تُصلّيكَ خائبة.

المشكلة انه لم يعد هنالك نبي ولا عاشق.. لم تعد هنالك قبلة، لا بالضمّ ولا بالكَسر. هنالك حقيقة مكسورة فحسب.

تصفّح أوراق انجيله بأتجاه أوّله، وترنم بروح الكلمات هناك.. ردّد معها؛ كيف تتصفح وجهك، وانت دون جهة؟!.

عاد يكتب؛

أبحث عن وجه حقيقي كي أعرف به الوجوه الكاذبة. أحتجتُ صدق أبي ذر كي اعرف كذب المسلمين، واحتجتُ بياض صاحب الزنج كي اعرف سواد صاحب قريش، واحتجت عدل عليٍ حتى اعرف جَور افلاطون.

هذا منهج الوجه معي في الحكمة.. دائما تحتاج وجها تعرف به الوجوه.

عرفتُ من وجهِ علي ان اشكّ بأيّ أحد لا تمشي عيونه بالجياع، ولا تبرق أحداقه بالايتام، ولا تتألم نهاراته على إمراة ليل، ولا تثور حريته لاجل عبد.. تعلّمتُ منه أنّ (الغالب بالشر مغلوب)، وانّ الخير هو صدق القلوب.

هكذا نفعني وجه علي، حينما كنت اركض بالشمس وانسى ركضها، لذا لم اقع يوما.. لأني شربت كأسه في كل كأس، ووجهه في كل وجه.. آه، ومن يركض بعلي لن يقع.

.. ولكن إياك ان تجعل كاهنا يرسم وجه عليّ، فلا كاهن يعرف وجهه.

لقد صبّت لي العصا في الصحراء كل أبي ذر، كما صبّ لي الملح في البحر كل غاندي.. فمن يجمع العصا بالملح تشجر أغانيه، ومن يجمع البر بالبحر تجري صواريه.

أشك بأيّ دين يقبل إماما يخرج من القصر. أشكّ بأيّ فكر يقبل للاغنياء ان يناموا بسهاد أهل الفقر.

لا أظنني ابدا اؤمن بنبي يخرج من قصر. أعتقد ان بوذا لم يرَ الناس أمامه الا حين أختفى قصره وراءه.. النبي دائما يخرج عاريا عُريَ الصحراء.

يا صاح.. مسافات الرمال لا تعدها الجِمال، لأنها بلا مسار. هي مسافاتٌ تجلبُ لك ليلى قبل ليلها، الرمال تجلبها لا اقدامك.

وحدها الرمال هي جلد الارض، دعك من صخورها. وحدها الشفاه هي جلد الإنسان، دعك من جسمه.. لذا مسافات الرمال كمسافات الشفاه، تريد الاشياء مباشرة.

عاد لشرطية إنجيله، يُخاطِب بها الحافي.. ولكنه أضاف لها؛

يا حافي القلب..

هذا كتاب لا تقرأه دون موسيقى، هذا كتاب لا تجلب له رفيقة.. هذا كتاب لا تقرأه دون عصا أبي ذر، هذا كتاب لا تجلب له العذر.

3

ترك بعض الكتابة وبعض أنجيله، يريد القلم أن يعيد وضوءه بالكحل.. عبأه من قناني الكحل، وعاد يكتب مناديا الحافي الذي لا يعلم أين حلّ به الحال؛

يا حافي القلب.. من لا يعرف العشاق لا يعرف العشق، ومن لا يعرف الثوّار لا يعرف الثورة.

العشق ممتنٌّ كثيرا لقيس، العصا ممتنّةٌ كثيرا لأبي ذر، الله مُمتنٌّ كثيرا لغاندي. فمن لايعرف النبلاء لايعرف الله، وليس العكس كما يَعْكُزُ القدامى...

ابداً ليست القصة أنّي اقيس المجهول بالمعلوم ولا المُجرّد بالمحسوس. القصة في فلسفة ماقاله مُغنٍ هندي لحبيبته؛ "لولاكِ لما عرفتُ الجمال".

يا صاح.. الاشياء لا تظهر للوجود الا بموجود، كما العشق لا يظهر الا بعاشق.. الاشياء لا تُعرف حتى تغدو لحما ودما. هنا بعض ماتستحقه تسمية وحدة الوجود، لا وحدة ابن عربي.

يا حافي القلب، قيل لمتُّهم في جناية؛ انك تكذب.. اكتفى ان يرُدّ عليهم؛ (انا اتبع غاندي). كان يكفيه ذلك لصدقه.. ليس لان غاندي متديّن، وانما لان عقيدته الصدق.

ردّد القاضي ورأسه للأسفل؛ الصدق نفسه يؤمن بغاندي. فأفرَجَ عنه.. يا حافي القلب، هنا تفهم كلمة صادق يثرب؛ "يدور معه الحق حيثما دار".

كثيرون هم الذين يجعلوننا نلتقي بالله، كثيرون هم الذين يجعلونا نلتقي بالجمال، بالحقيقة. ولكن الحسرة هي، قليلون هم حين اللقاء من يعانقوها.

يا صاح.. ان تَصِلَ للحقيقة غيره ان تُصلّيَ بها، وان تُصلّي بالحقيقة غيره ان تُصلّيَ هي بك.. أن تعزفك الحقيقة غيره ان تعزفها انت، وأنْ تعانقك الحقيقة غيره ان تعانقها انت. فأن تكون جميلا غيره أن يتكامل الجمال فيك.

لطالما تصلي الصلاة بانسان، ولطالما تنتظر الشمس شرق إنسان.

ردد صينيٌّ لا يؤمن بلاوتسه؛ (ليست الحقيقة هي التي تجعل الإنسان عظيما، ولكن الإنسان من يجعل الحقيقة عظيمة)... لقد قال هذا الوزير بعض الشمس، رغم أنّ كثيرا القمر لا يؤمن به.

يا صاح.. مرة يكون الله كعبتك، ومرة تكون انت كعبة الله. مرة يكون النبل كعبتك ومرة تكون انت كعبة النبل.

يا حافي القلب، وصفَ أحدهم قديسةً، فقال: (كُنّا نخيطُ على ضوءِ وجهها) . . أَقْبَلُ ذلك صوفيا، شرط أن يبلغ الوجه درجة القلب، ويبلغ القلب درجة الروح، وتبلغ الروح درجة الجمال. حينها يتوحد الوجه بالوجود . . هذا بعضٌ آخر من وحدة الوجود .

هذه القديسة هي من قالت: (انا ابنة الطواسين) . فاصبح الحلاج أباً لهذا الاسم، لأنه كان يعرف معنى آخر له، يَخيطُ على ضوئه كلمات خشبته.

يا صاح . . هنالك قلوب تغير وجه الله، هنالك اقلام تغير وجه اللغة، هنالك عشق يغير وجه القمر .

كان غاندي من القلوب التي غيرت اسم الإنسان، كما أن قيس من الوجوه التي غيرت وجه العشق، كما هنالك الواح غيرت طين اللغة . . الله يمنح الخلق ولكن الإنسان يمنح الوجود .

لا يوجد حصان يُغيّر حصانا، ولكن هنالك إنسان يغير الف إنسان . . ردّدت النبوة: (لايوجد شيء افضل من الف مثله الا الإنسان) .

خوفو يبني هَرَما في الجيزة، ومحمد يبني قلبا في أبي ذر، فنذهب للجيزة وننسى اباذر ! .

ابو ذر الأول يضرب صنمه حين تجوع بطنه، وابو ذر الاخر يضرب السلطان حين تجوع الناس .

لغاندي عصا ولأبي ذر عصا . . هذا يمنع بها خصام الفقراء وهذا يضرب بها رؤوس ألاغنياء .

لقد سَرَت العصا في العصا . هنا تُبدّل كلمة بن عربي دلالتها: (طابق المعنى المعنى) .

يلوموني على إظهار أبي ذر، ولا يلومونهم على إخفاءه . .

يلوموني على مشيي بعصاه !، كيف لا امشي لها وبها قد عرف التاريخ كيف يمشي . .

يا صاح . . من يعرف ان يسأل الاشجار فليسأل، لانها تحن لخشبة عيسى ولعصا أبي اذر بمسافة واحدة .

آه، يلوموني أنّي الح على تكرار أبي ذر منذ الف سطر، فليَلُومُوا الليل أنه يلح على تكرار القمر منذ الف عصر .

4

اهم ما يميز قبح المسلمين هو حينما خرج على كاهنهم رجل يدعى ابا ذر فتكهنوا من بعده. . أهم ما يبرز قبح البشرية هو حينما خرج على عنفهم رجل يدعى غاندي فحا ربوا من بعدهِ.

كتب؛

لا يؤلمني في عيسى هو انه أتى الصليب، ما يؤلمني هو ان الكهنة جعلوه رمزا له. كيف !؟، وقد أراد حذفه من عيون الناس!.

. . كل ماغنته كاتيوشا القروية لحبيبها البعيد في الحرب هو؛ "كما انت تحرس حدود ارضنا هناك، انا احرس حبك هنا . . فخذ اغنيتي وغنّها".

مسكينة كاتيوشا أرادت اسمها للاغنية فجعلوه للسلاح. . مسكين يسوع أراد أسمه للمحبة فجعلوه للصليب.

ذهبتْ الاغنيةُ وبقي السلاح، ذهبت المحبة وبقي الصليب.

مسك يسوعُ يد كاتيوشا وتألما من جديد. أم غنيا من جديد؟، لا اعرف. . أبَكَتْ تلكموا الحمامةُ أم غنّت؟، لا أعرف. المعرّيُّ أيضا لايعرف!.

ختم وضوء قلمه. .

ولّى زمنُ الانبياء. وزمنٌ لا تنتظرُ فيه أنبياءاً، عليكَ ان تنتظرَ منه كهنة.

ولّى زمنُ الإنسان. ودينٌ لا تنتظر منه إنساناً، عليك ان تنتظر منه سفاحا.

فلسفةٌ لا تنتظرُ ان تقرأها الحانات، عليك ان تنتظر من حروفها السكر.

ثورةٌ لا ينتظرُ رجالُها دواليَ مشنقة، عليكَ ان تنتظرَ منهم حبالُها.

تاريخٌ لا تجد فيه ابا ذر، ستجد فيه الحَجّاج.

معبدٌ لا تجد فيه ضميرا ستجد فيه لحى.

نظر إلى إنجيله بيأس، وعاد يخاطب الحافي؛

لا أُريدُ الأَحياء أنْ يقرأوني. . فالأموات يصغونَأكثر.

لا أُريدُ الحُكماءَ أنْ يُصدّقُوني. . فالحقيقةُ تكذبُ أكثَر.

لا أُريدُ الدُعاةَ أنْ يَحضنوني . . فاللهُ يَكرهُهُم أكْثر .
لا أُريدُ الأغنياء أنْ يدفنوني . . فالحفاة حُفَرُهم أطهَر .
لا أُريدُ الكُتّابَ أنْ يُسمُّوني . . فالغانية بعُهْرِهم أشطر .
أُريد أنْ أُفرِغَ من القلب جنوني، فالكأس حين تَفرغُ تَسْكَر .
أُريدُ أنْ أعيدَ على الفجرِ سجوني، فالحديد حين يُعادُ يُكسَر .
أُريد أنْ أكْتُبَ على الجرحِ عيوني، فالسيوف حين تَكْتُبُ تَحْمَر .

حرّك القلم بين اصابعه، وكأنه يُلاعبه أو يُعاتبه. تذكّر رامة. . سالته مرة؛ كيف تكتب. أجابها؛ لا تخطأي. . لا تضعي القلم على الكلمات، ضعي الكلمات على القلم.

يا رامة حين يضع المتصوف الاسكندراني كلمته؛ انت لا يُخاف ان تلتبس الطرق عليك. انت يُخاف ان يغلبك الهوى. . يضعها قلمي هكذا؛ انت لا يُخاف ان تلتبس الطرق عليك. انت يُخاف ان يلبس الهوى يديك.

قالت له؛ . . إبقَ عاشقا، كي تبقى كاتبا .

عاد لوجه رامة بين الحروف، وعاد يكتب بيدها وكحلها؛

أمر خطير ان يكون لديك قلم، تماما كما خطير ان يكون لديك جبريل، فكلاهما يكتبان.

ولكن لدى الوجود؛ ان تملك قلما غيره ان تملك جبريلا. القلم تعطيه كلماتك وجبريل يعطيك كلماته . .

جبريل يكتب بالنبي، لا النبي يكتب به . . كثر بلا جبريل، كتبوا في الله اكثر مما كتب جبريل فيه.

الله يشتاق ان يسمع جبريلنا أكثر من شوقنا لجبريله . . نحن ننتظر كلمات الله، بينما الله ينتظر كلماتنا .

يا حافي القلب، لقد كنا نلهوا كثيرا في علم الكلام حينما قلنا انّ كلام الله انتهى بالنبوات . . إذن من قال كلمات غاندي؟ ! .

الرسالة كما تأتي من السماء، كذلك تخرج من الارض. لذا أن تكون كاملا هو ان تُكتمل القيم في الارض قبل ان تُكملك هي من السماء .

ان تكون متدينا هو ان تُصلّي بك الارض قبل ان تُصلي انت للسماء.

ان تكون صادقا هو ان تَعْرِفُك الارضُ قبل ان تسألَكَ السماء.

ان تكون واضحا، هو ان تتعرى للارض قبل ان تَضُمَكَ عاريا.

أن تكون نبيا، هو ان تُغطي الصحراء قبل أن تغطيك..

.. لا يهمني من النبي هو ان الرب أتاه. ما يهمني من النبي هو أنه أتى القلب.

غاندي يمشي للناس بغانديته وفقط، بلاكتاب مقدس ولامعبد مقدس.. أكثر كهنة الارض هنود، ولكن غاندي لم يكن كاهنا. لما لم ينجبوا واحدا؟!.

شعيب وموسى ام أبو ذر وغاندي.. أولئك جاءهم الله، وهولاء هم من جائوه. ومن ينتخي اللهَ ليس كمن الله ينتخيه.

شعيب وموسى جلبهم اللهُ للناس، وابو ذر وغاندي جلبوا الناس لله.

السماء من كانت تُحرّك الارض لموسى ويوسف.، ولكن أبو ذر وغاندي كانوا يحركون الارض للسماء.

يا صاح.. الله يميل الى صاحب الزنج كثائر بين العبيد وتعاستهم، اكثر مما يميل الى موسى بين شعيب وإبنته.

كانت ابنة شعيب تمشي لموسى وفي جبهتها استحياء، وكان صاحب الزنج يمشي لزنجه وفي جبهته الدماء. فارق كبير بين الجبهتين.

.. هنا نبي تصاهر مع نبي، وهناك مسلم مات لاجل عبدٍ سُبِي.

يا حافي القلب، هل أعرّف لك غاندي.. أُعرّفَهُ؛ شكّ جبريلُ كثيرا بأن الله ارسل له الف كتاب دون علمه.

5

بدأ جيندار يترك اناملة تحت ماء الشمعة.فيها بعضا من رواسب الكحل..

لم يكن جيندار يقبل أنْ يكون الليل بالمصابيح، يريد ان يبقى الليل ليلا. كما العيّارون. لطالما كان يُردّد؛.. يضيع الليل بالمصابيح، ويضيع التاريخ بالمؤرخين.

كان يحب التاريخ بلا مؤرخين، ويحب الليل بشموع. . والا لن تبقى جلنار كحيلة ولن يبقى الكحّال من اخوان الصفا. لن يبقى أبو حنيفة حكيما، سيغدو كاهنا فحسب.

رفع أنامله من الشمعة وقد ذاب بعض الكحل في مائها فتغير ت الوانها . .و نزل قلمه لإنجيله مخاطبا الحافي فيه؛

يا حافي القلب، هل أُعلمك ديني.

لا تخطأ. . لا تضع القبر على العظيم، ضع العظيم على القبر.

يا حافي القلب لدى قرى المسلمين القريبة من مقبرة اليهود التي التقيت فيها ذلك اليهودي المتخفي معتقدٌ لا يعرفون كيف نشأ، تعبر به المراة المسلمة العاقر قبرا منزويا ليهودي عند حائط لا يعرفون اسمه، تعبره ثلاث مرات جيئة وذهابا كي تنجب. الغريب أنه معتقد للمسلمين دون اليهود اهله.

لا تعرف تلك القرى المسلمة كيف نشأ هذا المعتقد مع اجدادهم ولا يعرفون أن هذا القبر لعنان ولا يعرفون أي سجن نشأت به روحه عند أبي حنيفة. هم فقط يؤمنون به حد إيمانهم بأنّ القمر حين يعبر الارض مرة يعطيهم هلالا.

يا حافي القلب؛ صاحب القبر هذا، هو صاحب السجن. . إنّ الذي غادر اليهود في سجنه، جاءوه المسلمين في قبره.

يا حافي القلب عرفت من دفاتر الكحل عند رامة أنّ جابر بن حيان تفاجئ كثيرا حين جاءه عنان بن داوود للكوفة بعد مقتل أبي حنيفة وقال له انا صاحب السجن. .

لم يفهم حينها جابر، فقال له عنان؛ إنّ صاحِبَي السجن لم يأخذا من يوسف ما اخذتهُ أنا من أبي حنيفة في سجنه. . أنا صاحب السجن لا غير.

بقي ابن حيان يلقّب عنان بصاحب السجن، وبقي عنّان يلقب جابر بصاحب أبي حنيفة.

رعى عنانُ جابر بنَ حيان كثيرا بعد مقتل أبي حنيفة فلقد بقي وحده من روّاد المعتزلة. . مات ابن حيان في السجن ومات بعده عنان ببضع سنوات. لم يستأمن ابن حيان غيره على اسرار معتزلة الكوفة ورفاق الصفا. . الغريب ان الزيدية كما المعتزلة واخوان الصفا

وعلى رأسهم أبو حنيفة كلهم كانوا يُودعون مخطوطاتهم لدى اليهود القرائيين. . بل يقال أن لديهم نسخة من مصحف ابن مسعود الذي أحرقه الخليفة. .

قيل أن ابن مسعود اودع نسخة من مصحفه عند احد اتباعه المجهولين في قرى الكوفة، قبل ان يتوجه من الكوفة ليثرب بعد أن استجلبه الخليفه من الكوفة هو ومصحفه في العام الذي أمر الخليفة به أن تحرق مصاحف الامصار، والذي سُمّيّ بعام حرق المصاحف. كان بن مسعود يعي ان مصحفه سيُحرق. . مات ابن مسعود بعد عام في يثرب، وبقي مصحفه يثب في سره على باقي الاسرار.

بقيت هذا الكتب عند جماعة اليهود القرائيين، وعنهم وصل الكثير منها الى شمال بحر الصخر الابيض. .

يا حافي القلب، الكتبُ دائما تهاجر.

يا حافي القلب، للطير أعشاشها، وللكتب اعشاشها.

كثير من رسائل اخوان الصفا قطن سواحل طليطله وصقلية وكريت قبل الاندلس، لكنها عادت ترحل إلى اعالي اوربا قرب ثلوجها الأكثر بياضا في هلاند. . لقد تاه الكتاب كما الانهار. .

يا حافي القلب، كلُّ الانهار في الارض تمشي تائهة، لم أجد يوما نهرا مستقيما قط!. . والانهار لا تخطأ يا حافي القلب.

لا شجرةَ علمٍ أو فنٍ ظهرت في عش الغرب الا وكانت على جرف هذا الكتاب ورسائله. . لقد عصروا من كرومه كل ما وضعوه في الكأس بعد حين من عظمة خمرهم. . من تفاحة نيوتن إلى اسم الماسون الاول؛ الاخوة الاحرار. قبل أن تتشرذم اخوتهم بين الشر. لقد تعلّموا من إخوان الصفا كل مراتبهم وسرانيتهم. . لقد لعبت فكرة السر من جماعة اخوان الصفا لعبتها وخيميائها.

يا حافي القلب، بعد زمن من رحيل معلم الكوفة، قال أحد إخوان الصفا؛ لا تبقوا في المشرق. . لم تعد الامة تقبل باخواننا، يقبلون فقط بإخوان الحجّاج.

مسكين هو الثائر الصيني، وهو يردّد لتلامذته: "الشمس تشرق منّا وليس من الغرب" . لم يعلم انه ما عاد درب الشمس من هناك. . كُروية الإنسان غير كروية الأرض.

لم تكن لدى إخوان الصفا أرض للميعاد، تائهون لا يريدون مدينة تحدد تيههم. .

ياصاح. . الوجود طرق القلب، فقدمك تهوى قلبك. . السماء طرق الطير، فجناحك يهوى سربك.

لا يريدون دينا يحدد معبدهم، ولا يريدون قوما يحدوون دمهم. . معهم كانت تُفْهَم كلمة عيسى؛ (سيروا في الطرق الخالية) . . كي تختفي المسافات.

. . رفع قلمه قليلا، فقلمه أيضا لا يقوى عليه.

تذكر لحظةً من رامة وهما يطلّان خارج منزلها على سفوح جبال همدان. لم تكن هنالك مسافة. .

انتبه أينَ يمشي شعرها مع الريح، اقترب الجبل من شعرها، ام شعرها قرّب الجبل، لا يعرف.

دائما إخوان الصفا يجمعوه برامة. . لانها اسم ربوتهم كما كانت هي اسم كحله، ولكنها لم تكن هي اسم قلبه. . لان قلبه كان ينزل في مطر دمشق.

6

يا حافي القلب عرفت من دفاتر الكحل عند رامة، أن الاب السجين لجلنار دخل السجن أيضا بتهمة أخوان الصفا رغم أنه لم يكن منهم، ولكنه اصبح من خلان الوفا في السجن على يد الكحّال.

أراد حينها من الكحّال أن يُخبره عن الذين كتبوا تلك الرسائل، فأجابه بأنّ السر الأكبر هو أن هذه الرسائل التي ظهرت في أيامنا هذي ليس لها مؤلف بيننا، بل كُتِبتْ قبل أكثر من قرن من الزمان مع الجيل الأول لإخوان الصفا، إننا من الجيل الثالث.

لكن الاهم في السر هو أنهم لم يؤلفوها، بل املاها عليهم معلّم الكوفة. كان يملي على كل واحد منهم رسالة. . ثم بقيت سرّا في النواويس عند جابر بن حيان. لا اعرف من أخرجها هذه الايام واوصلها لاسواق البصرة.

يا حافي القلب، قال الكحّال كثيرا من الاسرار لأبي جلنار، لقد اطمئن لروحه، لانّ عيون جلنار الكبيرة لا ينجبها إلا من كبرت روحه.

يا حافي القلب، إنهن اربعون رسالة وليس اثنين وخمسين. . المجريطي من كثّرها حين فرّق بعض الرسائل بابواب أخرى، كان يريد ان يسطوا عليهن، فجعل أسمه عليهن حين وصل الاندلس بعد زمن، لانهن بلا اسم أصلا. لن يعرف بسرقته احد هناك، فالناس هناك بعيدين عن أخبار اخوان الصفا العراقيين. يا حافي القلب. . الاسلام لولا العراق لما مشى به شراع.

لم يقل أحد عن كِتّاب الرسائل حين كان يهاجر هناك، كيف انّ الكوفة وحدها من حاكت كلّ الكوفية العربية.

كم طويلة هي المسافة بين الكوفة والاندلس، كم واضحة هي المسافة بين الطغاة والنبلاء .كم واضحة هي المسافة بين الجنة والنار. . لا منزلة بينهما .

يا حافي القلب، قال قسٌّ فقير؛ إن لم يدخل جيفارا الجنة فلن أدخلها .

. . كان جيفارا قد انقذ قرية القس من طاغيتها، وطبب فقرائها من الكوليرا .

يا حافي القلب عرفت من مدوّنات كحّالة الصفا عند رامة؛ أنه جاء رجل للحسن البصري مهموما لأنه حلف على زوجته بالطلاق إن لم يدخل الطاغية الحَجّاج للنار، وحار هل يقيم مع زوجته أم ينفصل عنها، فردَ عليه البصري بأن الحجّاج طاغية ولكنّ رحمةَ الله وسعت كل شي، فقد يدخل الجنة. فأربك هذا الجواب الرجل وتردد في العودة لزوجته. . كان يجلس على مقربة منه عَمْر بن عبيد حينها فقتله جواب البصري كما قتل ذاك الزوج.

حينها قال عمر بن عبيد للرجل؛ عد لزوجتك ولو زانيا، فإن كان الله يُدخِلَ الحَجّاج الجنة وهو قاتل، فلن يدخلك النار وانت زان. . الإله الذي لا يحاسب على قتلٍ لن يحاسب على زنا، ومن لايضر معه قتل لايضر معه زنا .

يا حافي القلب. . زعَلَ بن عبيد كثيرا من عقل ألامة في شيخه فترك هذا العقل.كان الامر معه زعل مبادئ وليس اختلاف معرفة، كما تحسب الأمة ليوم الناس هذا بسذاجة. لا يخدعنك التاريخ. لهذي القصة لا غير حدث الشرخ. لم تكن قصة الاعتزال عن اخطاء عقل، وإنما عن خطايا ضمير. .

لا يخدعنك التاريخ، لم يقل بن عبيد وبن عطاء بالمنزلة بين المنزلتين في الحجاج الثقفي بين الايمان والكفر، بل الحسن البصري من قال بذلك.. واصل وبن عبيد قالوا بكفره فحسب، فلقد اعتزلوا لذلك منذ الكوفة.

رفع جيندار عيونه وردّد؛ آه، العشقُ عمرُه بضعةُ اعوام، والكذبة عمرها ألف عام!.. الوجود غير عادل.

يا حافي القلب.. لقد غدا الله سيفا من سيوف طاغية مشى يذبح زوجَ جارية كي يختلي بها وزوجها لم يدفن بعد. آه، وإبنها لم تجف دمعته بعد.

لقد صَدَمَ بنَ عبيد وابنَ عطا كثيرا تردّد شيخهما في هذه الكبيرة ومنزلته بين الايمان والكفر. عجبا، وهل من منزلة بين النقيضين؟!. صدمهم تردده في هذا الذبح، وكان الحجّاج سيد الذبح في الامة. لقد جعله فاسقا فحسب؟

إنتبهَ جيندار لآية؛ (منهم المؤمنون وكثير منهم الفاسقون).. وعى حينها صلاة اللغة، اللغة أيضا تصلي، حينما تقول الحقيقة. ردّد؛ الاشجار في أغصانها يتعادل المطر والتراب، والنبي في عيونه يتعادل الله والانسان، والله في دينه يتعادل الفسق والكفر.

الليل لا يطيق النهار، والايمان لا يطيق الفسق.

يا صاح، هم يريدون كبيرة السلطان وأنا أُريد كبيرة الفقيه.

الكافر هو من لم يُبق لنا نخلةً لا من لم يُبقِ لنا صلاة. فقيام النخلة أهم لدى الله من قيام الصلاة. هذي بديهية دينية من لا يعِها فلن يعِ الله حتى وإنْ صعد معبده الاف النخلات.

غبية هي البشرية تغطي عورتها، بينما لاعورة لها الا عقلها فحسب.

يا حافي القلب، وحدهم اربعين الكوفة رأوا ذلك السيف الفاتح كفرا، رأوا فجيعة الجارية وابنها كفرا..

سال الدم اكثر من الحليب فيها، فهدم الطفولة.

قال الحليبُ يشكو؛ عجبا!.. كيف يمكن لمن يهدم الطفولة ان يبني الله؟!!!.

.. آه، هذه أديانك ياالله.

7

عاد يحكي في إنجيله بعيون البصرة اساطيره السرية، مخاطبا الحافي.

جاء أبو الشمقمق ضاحكا للنواسيّ في السماء وكان هو الوحيد الذي يتفهمه ايام الارض ويكّف عنه شر النخبة، سيما غلظة أبو العتاهية معه.

قال له النواسيُّ؛ حتى في السماء تضحك!.. ردّ عليه أبو الشمقمق؛ صدّقني ليس ذنبي، الحقيقة هنا من تُضحكني.. ماذا أفعل، أُحبُّ أن اتلصص على غرائب أهل الارض في السماء.

النواسيُّ؛ هات ما عندك، ماذا وجدت وما اضحكك منها.

ابو الشمقمق؛ لقد ذهبت أختلس النظر على أهل النار لان احد العباد أيام كنا في الارض كان يقول لي؛ أكثر أهل النار من الكافرين، والان قبل أن آتيكَ وجدتُ من بعيد؛ اكثر أهل النار من المصلين.

عاد يضحك، آه، أيها النواسي، إن الله يفاجئني يوميا هنا في السماء بحقيقته.. غريب هو الوجود، اكثر أهل النار من المصلين.

أيها النواسي.. بدأ الله يكره الصلاة كثيرا، لان أكثر أهلها قتلة. بدأ الله يكره الايمان كثيرا، لأن أكثر أهله جهلة.

كان قد قال مرة الحافي لجيندار قبل فراقهما؛ يحيرني هذا أبو الشمقمق بدأت أشك أنه من اخوان الصفا.

حينها قال له جيندار؛ ستشك بالكثير غيره، ستجدهم يوما في أنجيلي.. لا تنسى المعرّي.. لا تنسى حتى العيارين.

يومها كانا قدهَدَرا للصحراء، يريد جيندار أن ينظر لأخر روحه فيها.. قال للحافي؛

بليد هو العربي الذي لا يعبر التاريخ بحصان مالك الاشتر، أحمق هو العربي الذي لا يصعد الى السماء بعصا أبي ذر.

يا حافي القلب، عصا أبي ذر معها كثير من السر، كثير من مالك الاشتر، كثير من أخوان الصفا، كثير من العيارين، كثير من الصحراء.. كثير من القرامطة.

يا حافي القلب، عرفت من دفاتر الكحل أنّ كثيرا من العيارين بعد جيل بلا اخوة، انضموا لأوائل القرامطة على يد ترّاب في بادية السماوة لانهم بعضا من إخوان الصفا .

يا صاح. . لم تكن الاخوة مبدأ الا مع العيارين في تاريخ المسلمين. فالمسلمون لم تكن لديهم إخوّة.

قرأ جيندار سورة الكهف؛ ثلاثةٌ رابعهم كلبهم. . فقال؛ ثلاثةٌ رابعهم قلبهم، الحق والخير والجمال. . دونهن يسقط الكهف، دونهن يذوي الكلب.

وقال ترّاب لمن حوله في بادية السماوة وهو يدعوهم لعقيدته ومبادئه عكس الكاهن والسلطان؛ ثلاثة رابعهم سيفهم؛ الإخوة والخبز والعدل. . دونهم يكفر الكهف دونهم ينبح الكلب.

لهذا الكهف اتبع اليهود والمسيحين اخوانَ الصفا وانضموا اليهم، ولهذا الكهف لم يقبل عنان بن داوود معلما يهوديا، قَبِلَ أبو حنيفة فحسب. ولهذا السبب اتّبع أبو حنيفة معلّم الكوفة، فلقد كان ابنا من الموالي عانى الذين عانوا من المسلمين.

ياصاح، لقد قال بلال الوثني لعمار بن ياسر وهو يدعوه الى إله محمد، هل لدى إلهه عبيد وسادة؟. فأجابه عمار ان الناس لدى إله محمد سواسية في اللون والدم. حينها قال بلال لنفسه؛ جيد، إن إله محمد ليس كإله أبي سفيان.

ياصاح، آمنت المجدلية بإله عيسى ليس لانه يحيي الموتى ويشفي الابرص والأكمه، وإنما لانه يجعل النبي والغانية يمشيان على قدم واحدة.

آه ياحافي القلب. . الغنيُّ الذي يؤمن بالله ليس كالغانية التي يؤمن اللهُ بها .

مسافات الصليب..

(النُقَبُ كثيرة والعروس واحدة..)..

.. صوفيٌّ لم أجد صوفه.

1

.. ردّد يسوع للمجدلية؛ لم يعد دربي جديدا.
الصليب يحمل أوصالي، وهم يحملونَ للجبال بِيدا!.

هذا ما قرأه جيندار في مخطوطة عن حدّادٍ كان فارسا في الحملات الصليبيه يقول فيه؛ أنه بعد معركة منها لاح له وجه عيسى وسط القتلى يكسر صليبه.. فتحوّل حدادا لا يطرق الا المناجل للحقول، حتى لا يكسر قلب عيسى من جديد.

كتّب للحافي عن ذلك يومها في إنجيله. لقد أصبح إنجيله وكأنه رسائل للحافي يُتمّ له مالم يُخبره إياه في تلك الاربعين يوما لرفقتهم؛

يا صاح، قرأتُ مشاهدة الحداد ذاك لعيسى في طروس جلدية لدى قسٍ في دير قديم صغير ينأى بعيدا في الجبال، لا يريد مصلين ولاصلاة.. صدّق ديني لأني صدقت مخطوطته..

يا صاح، لقد قال القس أنها من الجيل الرابع لقساوسه اخوان الصفا، اخفاها حسن الصبّاح في قلعة آلموت بمكتبته الكبرى فقد كان مولعا بالكتب ولعه بالسيف. وخرجت هذه

المخطوطات مع الطبيب الاغريقي الذي رافق حسن الصبّاح وعاش في القلعة فترة من الزمن لاجل تلك المكتبة التي تحوي رسائل اخوان الصفا، وأخذ منها الكثير من الكتب حين عاد لديا ره بعد موت الصبّاح، قبل أن يدخل هولاكو تلك القلعة بزمن ويدمّرها بمكتبتها.

يا حافي القلب، من ذلك الجيل بدأت الحركات السرية في الكنيسة بسرانية اخوان الصفا، التي عرف منها ذلك الاغريقي كثيرا.. كل الاديان فيها جماعات سرية، عادة ما تكون هي الاقرب لحقيقة الدين.

ياصاح؛ لم اخبرك عن كل الليل، لان النجوم مازالت فينا. ولم نشرب كل الذي اخفيناه على شاطئ الروح لان الروح ما زالت طينا.

يا صاح.. التاريخ لا يقول لك صليبه، التاريخ يقول لك كاهنه فحسب.

تَرجَمَ لي ذاك القسُّ في ديره بعضا مما لم يقله التاريخ في درب عيسى؛

جبل الجلجلة فقط من يقول حقيقة الصليب هو ونجاره.. قال النجّار لاحقا؛ لم أجد خشبةً حزينةً قط كخشبة عيسى. ولكن الاخشاب سخرت منه، قالوا رأينا عبدا صلبه سيده على جذع لانه أخفى بعض الطعام لعياله. لم يكن همه الصلب كان همه من يطعم عياله بعد موته.

يا صاح.. عيسى هو عيسى، هو رائحة الروح وقرآن العيون، هو نسمة الوجود وبوذاه الخفيف. فقلوب الهنود أرقُّ، لذا تراهم يغنون كثيرا.

ياصاح خذ هذي الثلاثية في الشعب؛

- الشعب الذي يغني قلبه تُغني صلاته.
- احذر من الشعب الذي يهزج كثيرا، كما نحن العرب.
- الشعبُ الذي تركض دموعه، شعبٌ تركض إليه الانبياء.

يا حافي القلب.. دعني اروي لك ساعات الصليب في طرسه؛

جبل الجلجلة ينتظر عيسى، وعيسى ينتظر صليبه.

أخطا من ظن ان عيسى ولِدَ دون صُلْب، كيف؟ وقد أنجبه الصليب!.

عيسى يسمع صليبه. كل اللذين سمعوا الصليب عظماء، انبياء كانوا أو صعاليك، إلا من

غدا كاهنا به. الكهنة وحدهم كانوا سفلاء بحمله.. رذيلة الكهنة انهم يعتاشون بأنبيائهم.

عيسى يسمع بصليبه، كما العاشق يسمع بعشقه، الاميال لا تَحُول.

عيسى يلتقي بصليبه، حينها فقط التقى باسمه.. قليلون هم من يلتقون بأسمائهم قبل ان يموتوا.

يا حافي القلب؛ دائما هنالك شيء في الوجود يحمل اسمنا، فقط حينما نلتقيه نجد انفسنا.. أخال انه هنالك وليس في غيرها قال المسيح كلمة الإنجيل؛ (ويلٌ لي، صرتُ انا الان).. ما أكبرها؛ ويل لي صرتُ انا الان.

.. حينما تبلغ الحقيقة تتورط إمّا بلقاء نفسك أو بلقاء حتفك. لا فرق فكلاهما موت.

دائما هنالك مكان تتوحد فيه الارض والسماء.

تتوحد الاشياء دوما لتغدوا على غير صفتها، حينما تعانق اشياءا اكبر منها.

يا صاح.. وصال الاسم وحده من يجعلك تاريخا، ومن لم يجدوا اسمائهم ماتوا دون تاريخ.

الانبياء لا يجدون انفسهم بالنبوة حينما يلتقون بجبريل، الانبياء يجدون انفسهم بالحرية حين يلتقون ببلال.

عيسى لم يشعر باسمه نبيا مع جبريل، وانما شعر به مع الصليب، كما شعر الحسين باسمه مع كربلاء.

الصليب هو من حمل اسم عيسى وليس هو من حمل اسم الصليب.. كربلاء هي من حملت اسم الحسين وليس هو من حمل اسم كربلاء.

هكذا هو خلود العظماء، ان اسمائهم لا تُدفن، لانها تَحمل ورائهم عظمة موتهم بعد أنْ حملت عظمة حياتهم.. مايهم هو ان يبقى اسمك وراءك.

وصال الاسم وحده يجعلك وجودا حتى وإنْ اهداك موتا، ولكن على الإنسان حين لقاء اسمه ان يبادله وجوده.. عيسى بادلَ اسمه مع الصليب فمات به، والحسين تبادله مع كربلاء فمات عليها.

العُشّاق الذين لا يُبدّل العشق اسمهم لن تجتمع شفاههم، والثوار الذين لا يتبادلون الاسماء لا يموتون سوية.

2

كان القلم معه يُكحّل الاوراق اكثر مما يُكحّل المرود عيون فتاة. لذا كان عليه أن يرفعه عن الاوراق قليلا ويعيدها بين حين وآخر.. عاد قلمه يخاطب الحافي. يا حافي القلب؛

أعزُّ شيء على المجدلية رحمها، وأعز شيء عليهم رجمها.. أعزُّ شيء على الفتاة حلمها، وأعز شيء عليهم لثمها.

أعزُّ شيء على الحرية بلالها، وأعز شيء عليهم حلالها.. أعز شيء على خشبة الحلاج نَصْبُها، وأعز شيء عليهم نَهْبُها.

أعزُّ شيء على بغداد دارها، وأعز شيء على الاعراب نارها.

أعز شي على الطرق غريبُها، واعزٌّ شيء على الاشجار صليبها.

يا صاح.. الشجرة التي نام تحت ظلّها المسيح قبل ايام، قامت اليوم لصلبه بجذعها. ياللغرابة، من كانت بالامس ظله غدا اليوم هو ظلها!.

يا حافي القلب، دعني اروي لك ساعة الصليب وظله؛

عيسى يُسعف صليبه. خطاه تجرُّ الطريق الى الجبل.

لم يكن هنالك طريقٌ لجبل الجلجلة قبل عيسى، ولكن هنالك كان طريق للصليب بعده.. صحيح قولهم (أنّ المشي يصنع طريقا)، ولكن ما أنتبهوا؛ أنّ الطريق يصنع مشيا... وعيسى صنع مشيا.

عيسى يحمل صليبه.. وحدهم الانبياء لا تحملهم الاشياء، سواء كان صليبا أو طريقا أو اسماءا أو بشرا.

جبل الجلجلة ليس بعيدا. ورائه المريميتان؛ أُمه العذراء ومريم المجدلية، لم يبق الّاهُما، فالحواريون انكروه.

.. السوط يداهمه من خلفه. يتعثر المسيح، يقع.

أُمُّه تُدنِفُ اليه، ومعها دموع الله. وراء خطوتها المجدلية، ومعها قلب عيسى.

يلتفت عيسى لأُمه.. يُحدّق بها؛

أُماه لا تحزني. . القلوبُ التي خزفَتها الريحُ قبلي منحتْ طينَها لهيبي.

لا تنسوا ان تمشوا الشموس بها، سَرِى في الطين صليبي.

اسمي لا يريد أباً. لستُ نسيبا لله أمّي، الإنسان وحده نسيبي.

اماه. . .

الدماء خطى عنيدة، كلماتها آخر الإنسان وجرح الولادة

الجراح يا أُماه اسم اشرعتي. لا قلادة للنحر أُمّاه، الجرحُ وحده قلادة.

. . تَلْتَمُّ أُمُّه على عيونه، دموع مريم تنزل دون نشيج. . ابدا لا مجاز، دموع العذراء هي دماء يسوع. فلم يكن عيسى وحده مصلوبا .لان عيسى كان منها كاملا لابعضه. لم يشاركها فيه رجل.

تبكي العذراء. . يُخاطبها هو؛

اماه. . أُتركيني لِأُولدُ انا، خلف الصليب رَحْمُنا.

وُلِدتُ دون صُلْبٍ فأنجبني الصليب. . لا تحيري بسرّي، إسألي السرّ يجيب.

لاتقولي أمّاه أُخِذَ فجري، عادةُ الفجرِ في الليل غريب.

المأساة أُماه فرح عميق، لا يسمع نايَها النحيب.

لن يمل التائه بُعدي، سيتيه في البعيد قريب.

أُماه، اتركيني لأُولدُ انا. . فوق الصليبِ رَحِمِنا.

كل ما صيّف في عيونك وما عنى، ابلغيه لشتاء اهلنا.

اتركيني لأُولدُ انا. .

أماه. .

المجدلية عادت نظيفة، احبيها مهما اشترت بخصرها الرغيف.

خلف الليل روحُها للرب تجوع، فيغتال حلمها النزيف.

أُمّاه. . الغبار لا يأخذ من الطريق اسمه.

هم سموها غانية اورشليم، فسميها انتِ حافية الرصيف.

3

مسك قلمه من جديد، وكأنه يمسك كأسه.. عاد يكتب مخاطبا الحافي في إنجيله؛

مرّت فتاةٌ على عاشقٍ قبل أن يموت بلحظات.. قال لها؛ امسكيني قبل أن يمسكني جبريل.

يا حافي القلب، هكذا كان يريد عيسى ان تمسك عيون المجدلية عيونه قبل أن يمسكه جبريل للموت. لانه هو من يحظر للانبياء والعشاق والثوار قبل الموت كي يموت معهم عن الارض.

يا حافي القلب.. جيفارا لم يكن يهتم بمن يشاركه الموت، كان يهتم بمن يدافع عن الحياة. لذا مات كثيرا.

كان قد سأله الحافي بعد آذان الكنيسة واطلالها؛ عرّف لي جيفارا.. أجابه؛ مُدمِنَ موت..

كان الله معه ضد المعابد، وكانت المعابد ضده مع الطغاة.. يا صاح، الله يمشي مع اسماء النبلاء حتى وإنْ كانوا ضد اسمه، حين تكون أقدامهم مع التعساء.

يا حافي القلب دعني أعود لعيسى وعيونه للمجدلية تمسك بعض عيونها؛

عيونُهُ تقولُ لها انّه نبيٌّ، فلا حاجة لمعجزة مع الانبياء في دليل نبوتهم. أفسدَ الفلاسفةُ النبوةَ ببراهينها.

الغواني اعلم من الفلاسفة بالانبياء، فعيونُ الانبياء تتكحّل بالنبوة، كحل يرفع الرموش لا يغطيها كما المكيات.

في تلك اللحظات كانت تجري دموع المجدلية بصمت.. خصلات شعرها التي لعب بها شباب اورشليم بالامس، تحولت اليوم الى ريش نور.

عيونُهُ تقولُ لها انّها قديستُهُ، ودموعُها تقول له انّها الرسول بعده.. عظيم هو الامر، نبيٌّ يضع نبوته عند غانية!.

.. هنا عظمة الانبياء؛ الغانية تعود على ايديهم نبيا!.

.. يحدق في مآقي عيونها؛

حبيبتي، انتِ رسولي.. صلّي عند الغانيات.
لا تحملي الحانة للمعبد، احملي المعبد للحانات.
أريهم الشاطئ في كأسي..
سيقول لهم، الان عاش من مات.
حبيبتي، سيُصلّي بصليبي الجبلْ
.. فصلّي انتِ عند العصاة.
اغسلي بعينيك عيونا تَسَلْ.
.. ذاهب هو الدرب أم آتْ
الله يسار الروح، يغْسُلُهُ الوجلْ.
لا القاضي يُدنيه، ولا يُبعده الجناة.
حبيبتي...
الآلامُ شارع الله، أرصفةُ المتالمين تحمل حصاه
اسمعي جبريلها بعدي، الآمنا تحمل صداه.
حبيبتي...
قلبي الصغير دون مهدٍ، من الصليب سينحتون سهامه.
قلبك الكبير دون لحدٍ، يصل الجنة دون قيامه.
حبيبتي...
خلفي بعض خطاي، ابدا ليست تعيسة.
اخشى ان تسورها الاحجار بعدي، فيسموها يوما كنيسة.
عالم من الطين اشقر، على ابوابه الناس فريسة.
حبيبتي...
اصحاب موسى صلبوا طريقه. طريقا، اعرف اصحابي غدا يصلبونه.
ايامي تعود كثيرا، حدّثتك عن الحسين سيعرفونه
عيونُهُ احملُها في الجلجلة، وسيحمل هو الجلجلة في عيونه.

. . بدأ ينزل من اكليل الشوك على رأسه بعضٌ من الدماء على عيونه، شعر بحرارتها. رمشت عيناه قليلا ثم عاد لعينيها، وهي تبكيه أكثر من دمه.

حبيبتي. .

امسحي دميَ بشعرك التائه، كما مسحتُ هذا الشعرَ يوما يدايْ

ليس همّي ريشُ جبريلَ، شعرُكِ الباكي مَن يحمل صدايْ

أنتِ إبنةُ الله وليس أنا. سمعتُهُ فيكِ، كيف أشكُّ، كيف عسايْ.

4

نام قلم الحافي قليلا، بعد أن دوّن غفوة الصليب ونايه. وبقيت عيون جيندار تجاور الشباك تريد مطرا. . أطالت عيونه صحبة الشباك، وعاد يوقض قلمه مخاطبا الحافي في إنجيله؛

يا صاح. .دائما الصليب يجدد وجهاً آخر للمسيح.

يا حافي القلب، قرأت في دفاتر الكحل عند رامة انّ يهوديا من اخوان الصفا جاء بقس ما زال صغيرا الى محفل النواويس شمال غرب الكوفة وفي يده منحوتة لرأس مذبوح، كأنه ًرأس مقطوع توّا من جسده، وليس نحتا مرّ عليه قرنان من السنين.

في ملامحه كل الشكيمة وكل الخيل. في عيونه كل الصحراء وكل الوحي. كل العطش وكل الغضب. كل أهله وكل أصحابه.

تفاجأ باقي أخوة الصفا بجلب هذا الغريب إلى سرّ محفلهم، فعرفوا أن هنالك سرٌّ وراءه، لانهم يثقون بصاحبهم اليهودي، فترك هذا اليهودي صاحبه القس الصغير يحكي لهم وكان قد جاء بالرأس المنحوت من أحد الغرف السرية لكنيسة حلبية عمرها خمسة قرون، كان صاحبها لا يجري طقس عيسى الا عند هذا الرأس.

قال لهم القس الصغير؛ مرّ هذا الرأس باقدار أغرب من الاساطير حتى وقع بيدي. مرّ بأياد فيها جروحٌ كثيرة حتى وقع بيدي، لكن لايهم لديّ منها الا اليد الاولى التي نحتته.

كانت يدٌ لقسٍ نزلتْ قافلةُ جيشٍ ترتاح جوار كنيسته التي تعلوا إحدى تلك الربى. . كانوا

يحملون معهم رؤوسا على رماح عادوا بها من معاركهم. قالت الناس عنها وهي تهلهل أنها رؤوس من الخوارج.

حين نزل الليل، انتبه هذا القس وهو في صلاته قرب النافذة العالية الى رأس من تلك الرؤوس، تجرّه عيونه إليه. شعر أن هذا الرأس يأخذ منه كل صلاته وكل طقسه. لا يعرف لما ؟ !، فقط كان يعرف أن قلبه يتحول طقسا حين ينظر لهذا الرأس من بعيد . لم يشعر بذلك يوما حتى حينما حج إلى جبل الجلجلة.

ذهب للجندي الذي يحرس الرأس، وقايضة بخمسة دراهم كي يعطيه الرأس حتى الصباح. وافق الجندي بحذر، فبقي القس مع الرأس ينحته حتى الفجر في طست نحاسي نزلت عليه دماء الرأس. حين أنهى نحته، بقي يُرتّل معه مراثيه. .

قيل عن تلك الليلة وما حصل بين الرأس الذبيح والقس حكايات وحكايات، وقيل عن الرأس المنحوت وما حصل للكنيسة بعد ذلك حكايات وحكايات. حتى كانت تسمى هذه الكنيسة بكنيسة الرأس بين تلامذة القس المقربين، ممن عرفوا حكايات ذلك الرأس. . حكى الكثير منها وبقي الكثير منها سيما قصة الطست ودمائه.

كانت كل عيون اخوان الصفا بمحفل النواويس في طقس حكاية هذا القس الصغير المهاجر من حلب. . حينها قال لهم؛ جئت من حلب الى أرض النواويس لاني عرفت من مخطوطة للقسّ الذي نحته أنّ هذا الرأس ذُبِحَ هنا بين النواويس وكربلاء، فأردت أن احج للارض التي ذُبح بها . . حينها فهم جماعة جابر بن حيان لمن هذا الرأس وخرّوا بطقسٍ تُذبح له كل الاساطير.

قال القس الصغير لابن حيان؛ أريد قصته، لقد رواها لي الكثير من المسلمين، ولكني لا أُصدّق الامة التي قتلته.

يا حافي القلب، حكى جابر بن حيان للقس الصغير قصة الرأس الذبيح، وسأحكيها لك بطقس إنجيلي.

يا حافي القلب. .

أن تحمل صليبك، غيره ان تغفو على خشبته. . وأن تُصلب بدينك، بكلماتك، بشرفك، بنبالتك، بقيمك، لا فرق. . قيمتك في صَلْبِك، خشبا كان أو هموما.

. . آه، ما أجمل أن نموت واقفين، هنالك فقط تقف لنا القبور.

صحيح ان الإنسان لا يمكن ان يحدد شكل موته، ولكنه يستطيع ان يحدد قيمة موته.

للجسد طريقة واحدة للولادة، ولكن للموت الف طريقة. للروح الف طريقة للولادة، ولكن للموت طريقة واحدة. ففي نهاية الانفاس، إمّا ان تكون جميلا أو قبيحا.

أحب الفيلسوف الذي يعبر دون ضجيج لفلسفته، شأن فتاة تمرّ دون أن تتلفت لجمالها. هي تتلفت داخل قلبها تفتش عن حبيبها فحسب، وهو يتلفت داخل الوجود يفتش عن الحقيقة فحسب.

أكره المحارب الذي يموت دون سيف، أحب المحارب الذي يموت دون اسم، يتلفت داخل جيشه يفتش عن الكرامة فحسب. .

عظمة الجندي المجهول انه مجهول فحسب.

5

كتب في إنجيله بكل الطقس مخاطبا الحافي؛

العظيم هو من يبني الناسُ صرحَه وهو ميت، أما الطاغية فهو من يبني صرحَه بموت الناس.

يا صاح. . البشرية لا تعظم الأحياء.

دائما الاشياء العظيمة تُخلّف وراءها مكانا عظيما. ولكن فقط حينما تموت!، فالعظيم لا يكمل الا بالموت. . لذا كانت حكمة؛" ان القديس المنحوت اكثر أثرا من القديس الحي ".

غريب أمر الحسين، قَتَلَ من الطغاة وهو ميّتٍ أكْثر مما قتل منهم وهو حي. هذي هي سمة الخلود. . الخلود هو ان تحرك التاريخ من وراء قبرك.

يا صاح. . فكيف ان مشى التاريخ الى قبرك.

كثيرٌ من الحفاة شاهدهم التاريخ، ولكنه لم يدوّنهم يوما حضارة. فقط حينما مشى القلب اصبح المشيُ حضارة.

هنا بدأ التاريخ، فباقي البدايات هراء. وهل التاريخ الحقيقي الا الحكايات الكبرى التي مشى لها القلب.

ترنّم فيلسوف خراسان: (تركَ الحسينُ الناس يطوفون حول بيت الرب، وذهب هو ليطوف حول رب البيت)، ساعة ذاكَ جعل اللهُ الحسينَ بيتا .لذا القلوب تمشي له حافية.. دعك من العمائم فهم لا يمشون إلى الحسين، هم يمشون عليه.

الان تُفهم حكمةً في الحجّ الصيني قديما، تقول: (كلما مشى الإنسان اكثر كلما تطهّر أكثر).

دموعك اكثر وضوءا من مائِك، وقلبك احق مشياً من قدمك.. وكي يدوم القلب فلابد ان يدوم الجرح.

.. يا حافي القلب:

أن تصلي راكعا في محراب الكاهن غيره ان تصلي ماشيا في طريق الروح.

أن تصلي راكعا في طريق الخنوع، غيره ان تصلي واقفا في طريق الصلب.

لِمَا الله قُبَيْلَ كلمته (انك في الوادي المقدس طوى) قال (فاخلع نعليك)؟!.أبدا، ليس لان نعليك نجاسة، وانما كي تتوحد اقدامك والوادي في حكاية واحدة.. يتنفس بعضها بعضا، من الجلد الى الجلد.

يا صاح.. الحافي وحده يتوحد بالقلب، لان قلبه يتوحدبالتراب.

.. واكتمل المشي.

يا حافي القلب.. أن تكون حافيا لا يعني ان تكون بلا مسافة مع التراب، وإنما بلا مسافة مع الحقيقة.

ان تكون عاشقا لا يعني ان تكون بلا مسافة مع الحبيبة، وانما بلا مسافة مع العشق.

ان تكون متدينا لا يعني ان تكون بلا مسافة مع الصلاة، وانما بلا مسافة مع الله.

ان تكون ثائرا لا يعني ان تكون بلا مسافات مع الثورة، وانما بلا مسافة مع الموت.

يا صاح.. لا تكمُلُ الحقيقةُ الا بالموت، هذا من لغز الوجود. لا يكتَمُلُ الوجودُ الا بالموت، هذا من بؤس الحياة.

ماذا تفعل، انك الإنسان، والاوراق التي تكتب عليها تاريخك تغدوا رمادية بعد حين، شئت ام ابيت، لان الرماد لون تاريخك.

احيانا تحتاج للرماد، فرماد كربلاء ابقى بكثير من ذهب يزيد. تحول الرماد ذهبا وتحول الذهب وحلا.

يا صاح.. دائما هنالك كحل يختصر كل العيون. دائما هنالك حكاية تختصر كل الحكايات.

الحسين يقف وحيدا في المعركة.. يموت اصحابه السبعين كلهم. ينظر يمينا ويسارا يشاهد على مسافة منه أجساد إخوته وأبنائة وأصحابه تشرب دمائَها الرمال.

قبل قليل طلب لهم من المسلمين ماءا فلم يعطوه، وكان جده محمد قد أعطاهم كل ماء قلبه.

ينظر يمينا ويسارا لجثث اصحابه، يتفحص كرامة الدماء يجد الصحراء قد كتبتها، فيطمئن ان لاذلّ هناك.

لم يقل الحسين هيهات منّا الكفر، قال هيهات منّا الذُل، لان النبي علّمه ان الذل كفر. ولكن الناس لا تعرف معنى الكفر كما لا تعرف معنى الايمان.

لقد حمل الحسينُ روحَ الجد محمد وهو كبير يحارب في نينوى، أكثر مما حمل الجد محمد جسده وهو صغير يلعب في يثرب.

يقف الحسين وحيدا امام جيش يزيد.. شيبته الستينيه ترفع سيفا تعدُّ أنفتَه القرون فتتيه، تُعيد عدّها من جديد، وتتيه.. فحينما تقف امام الالاف وحدك، تقف أمامك آلاف السنون في سنة واحدة.

تتيه الصحراء به، لما لايستسلم هذا الرجل؟!، فلقد بقي وحده.. آه، الله حمى القلبَ بألاضلاع، والنبلاء يحموه بالشرف.

ان تكتب الإباءَ غيره ان تشرب كأسه، وأن تشرب الإباء غيره ان تكون كأسه. . وان تكون كأسه غيره ان تكونه هو، لتعرفك الكؤوس والنفوس.

يلتفت من جديد الى دماء اخيه العباس وجسده ملقى على طرف الفرات، أخي ابا الفضل اطمئن، إني أرى الان الكرامة أكثر، إني أرى الان الصحراء أكبر، إني أرى الان جيوشهم اصغر. . كان العباس لا يخشى الا أنْ يبقى اخوه الحسين وحيدا.

يقف الحسين وحيدا امام جيش يزيد، يلتفت الى النساء والاطفال ورائه، وكل نسل النبي. . حارت الصحراء؛ يالسخرية الخيل؛ جيشُ المسلمين يريد أن يقتل نسل نبيهم، بإسم النبي نفسه!!!..

يا حافي القلب، هكذا روى التاريخ، ولا يكذب التاريخ في حريته؛

سُئِل سبارتوكس من رفيق له وهو على صليبه وحيدا؛ من صلبك؟. . أجابه؛ الذين اردتُ انْ أحرّرهم!.

. . يقف الحسين وحيدا امام جيش الكوفة. يتألم كثيرا. . لقد راسلوه؛ انْ أقْبِلْ علينا، فلقد طغى يزيد في جواريه وقصوره. . ولكنهم الان حين وصل لهم يريدون قتله لأجل تلك القصور. . لقد راسلوه يتلوّعون من العبودية، وها هم الان يُلوّعون الحرية.

يقف الحسين وحيدا امام جيش يزيد. . يعود ببعض دمه، يقف وحيدا قبالهم. . وقعت عينه على دماء الحُرّ ابن الرياحي بينه وبينهم.

آه، قال له الحسين وهو يقف عند جثمانه؛ لن اضع نبيا جنبك. .

يا صاح. . إنها كلمة كبيرة لا تسعها كتب السماء. وَسَعَتْهَا دفاتر كحالة اخوان الصفا، هناك قرأتها، فعرفت؛ أنّ الفروسية لطالما تفوق النبوة، ولطالما يفوق الفرس جبريلها إلهاما.

6

قبيل سويعات وقف الحُر الرياحي قائد بعض جيش يزيد يحدّق بالاف الجنود جواره، ويحدق بسبعين الحسين قباله. . لم ير ذلك عدلا.

ينصت لكلام الحسين قباله وهو يحاجج جيشهم ولكلام ابن سعد جواره.. حكمة الصحراء قبال طمع الغواني.. لم ير ذلك عدلا.

يحدق بعيون فرسه، انتبهَ أنها لاتقبل ان تهدأ من صهيلها كما لم يهدأ قلبه من صهيله، لان الفارس الحقيقي تصهل فرسه إنْ صهلَ قلبه.. الفارس الحقيقي تأخذه الفرس لدربه.

احتار الجندي جوار الحر الرياحي من حاله وحال فرسه.

خاطب الحُرُّ فرسَه؛ لطالما كنتُ وفيّا لكِ، لَمْ احاربُ فوقكِ الا الباطل، فكوني وفية معي، ولا تجعليني احارب معك الحق.. حرّكت الفرس قوائمها، وحرّك الحر رَسَنَ قلبه، فانطلقا قرب الحسين.

كل الجيش ينظر للحر الرياحي مذهولا؛ كيف يترك جيشا بالالاف وهو من قادته الى عصبة قليلة وهو من مائته، كيف؟!.

.. لم يفهموا خيولهم العربيه جيدا، ولم يفهموا دين محمد جيدا.

الحر للحسين؛ لم أترك جيش يزيد لاني أخشى النار والقيامة، ولكني اخشى الشرف والكرامة... قال له الحسين؛ وهل النار الا أن تعيش بلا شرف، وهل الدين الا الشرف.

الحر؛ إذن اسمح لي أن اموت به.. الحسين؛ إذن لقد سمحتَ أنت للشرف أن يعيش.

يحدّق الحُرُّ الرياحي بالألوف أمامه وخلفه الحسين وصحبه.. عيونه تصبح بلون الصحراء، وكأن الصحراء تريد أن تهجم معه.. يصهل فرسه، يرفع قوائمه بكل شوق الدماء.. شعر الحرُّ الرياحي لاوّل مرة أنه يعانق فرسه، فعرف حينها أن الموت أيضا عناق.

قال فارس من صحب الحسين لرفيقه وهو يرى الحر وعناقه؛ مافعله الحر لم يفعله نبي قديم.. هذه هي النبوة التي يغبطها جبريل، لانه لم يكن له جناح فيها. ولانها نبوة بكل الاجنحة.

كل هؤلاء السبعين يجدون أجنحة، ويبقى الحسين وحيدا بكل السيوف.. لا جناح في الصحراء الا أجنحة الموت.

يا حافي القلب، أعشق القديس حين يكون محاربا لا مصليا. هكذا كان ابا ذر كما عليّا، كما صاحب الزنج.

الشهادة كما القداسة هي ان تموت للناس بدمك، لا ان تموت لله بلحيتك.

.. لجيفارا لحية وللعمائم لحى!. وحدها لحية جيفارا تفضح لحاهم. طالت لحية جيفارا لانشغاله بهموم الناس، وأطالوا هم لحاهم لاجل سرقة الناس.

أيها الحافي أنشد رفاق جيفارا على نعشه وهم ملاحدة؛ "سينزل القديسون عليك يطوفون بنعشك". ولكن كيف؟!، وهم ينكرون إله القديسين!.. جدير ان تُحيّر إنشودتهم الفلاسفة، لا أن تحيّرهم مشكلة ابن عطاء والحسن البصري.

.. سُمِعتُ جميلةً في انشودة ثوار؛ (قم فأذّن يا قتيل سيُصلي جبرئيل).

يا حافي القلب، حين الشهادة تشهد عليك الكائنات والطبيعة، وتسمع اسمك وصفتك وترى قلبك وعيونك. ينزل لك الوجود كله، ينزل لك الله كله.

يا حافي القلب، قال النبي بوجودية كبرى؛ "كل ميت يُغسل الا الشهيد"!. يكفي أن يقولها لنعرف أنه نبي ونبي.. إنها لغز يُفهم به سكر الكون.

لا يُغسل الشهيد، لان الشهادة تغسله.. لا يُغسل الشهيد، لان الوجود نفسه قد أغتسل به.

فوق نعشه غسل التاريخُ نفسه، غسل اسمه وحلمه. ثم صلى به.. التاريخ يصلي، التاريخ يؤذّن.

يا صاح.. الروح التي تموت بنبالة يطُهرها النبل. كيف تحتاج لغُسلٍ وهي تغسل الاخرين!؟.

أُخطأنا كثيرا.. فلطالما يغسل الميتُ الاحياءَ، وليس الاحياء من يغسلون الموتى.

يا حافي القلب، تمنيت أنك قربي الان لتعيد علي سؤالك؛ علّمني دينك.. سأُجيبك؛ لا تخطأ.. لا تضع الماء على الشهيد، ضع الشهيد على الماء.

7

يا حافي القلب. .لقد ماتت الروح حين ماتت الخيل. ذهب زمن الصهيل.

يا حافي القلب، قال جابر بن حيان للقس الحلبي وهو يروي له حكاية الرأس المنحوت؛

كان الحسين لا يقبل ان يترك سيفه ولا يقبل سيفه ان يتركه. . لا تقبل فرسه ان تترك صهيلها، ولا يقبل الصهيل أن يتركها.

يقف الحسين وحيدا امام جيش يزيد، يعود ببعض دمه، يقف وحيدا قبالهم. تُخاطبه اخته زينب من خلفه؛ أخي أعرفُ عطشَ فرسك، ولكن ابنك الرضيع يبكي من عطشه، لعل الجيش يحن على هذا الطفل ببعض ماء. . يأخذه الحسين يطلب له ماءا، ولكن الجيش حن عليه بسهامه.

ينتبه الحسين الى دمٍ ينزل من الرضيع على يده، لم يصدق ان البشر يفعلون ذلك.

يرفع الحسينُ الرضيعَ بيده. . يرفع عيونه لهم؛ . .إنه طفل.

ينزل من فرسه يعطي الطفل المقتول لزينب، كما أعطاها قبله اولادها واولاده، كما اعطاها قبله دماء أخيها العباس. وكان العباس كل دماها، وليس فقط كل ابيها. فاصبح لاحقا كل بكاها.

كان العبّاس يتمنى من الماء أن يأتي معه للصغار، ولكن الصغار اكتفوا بامنية أن يأتيهم العباس وحده من الكبار.

قال بن حيان للقس وكانت أيادي القس تحضن الرأس المنحوت بقوة دون أن يشعر؛ كان العبّاس يتمنى من الموت ان ينتظر قليلا، كي يُريهم قِلّتهم. ولكن لا شرف للحياة. . لذا، ذهب العباس بحسرته.

لم يتحسر العبّاس من الموت أنه سيأخذه قرب الفرات وحده، تحسر من الحياة انها ستترك الحسين يحارب الجيش وحده.

يقف الحسين وحيدا في الارض امام جيش يزيد، ويقف عليٌّ وحيدا في السماء. . آه، لَكَم تحسّر عليٌّ كي ينزل، ولكنها مسافات الموت لا تسمح له بالنزول. لكم تحسرت الشمس أنْ تنزل ولكن مسافات الطبيعة لا تسمح لها ان تنزل.

يصعد الحسين فرسه من جديد، مازال يريد أنْ يقاتل. . يقف امام الجيش وحيدا، ويقف الجيش امامه واحدا. . لم تكن القبيلة العربية قبل ذاك تحارب وحيدا، ولكن يوم كربلاء حاربت القبيلة المسلمة واحدا !. وأيُّ واحدٍ كان، كان من بقي وحده من النبي؟.

السهام بدأت تملئ جسده وجسد فرسه . . أنهكته الدماء، سقط من فرسه، فصهلت الصحراء، تبكي حوافرها .

بقي على الرمال وحده بين الجيش . . كل السيوف تحيط به . ولكنها لا تقترب لقتله . . عيونه تتلفت إلى السماء، لم يعبأ بهم .

قال جيندار لمشاة يوما؛ لقد رأى شاعر "خمسين عصرا جاثما فوق الدقيقة وانتظر" . دقيقة كربلاء . . وأنا رأيت خمسين سيفا جاثما فوق الحقيقة واختصر .

آه، الحسين اختصر الدماء، كما غاندي اختصر الله .

مازالت عيونه تقطع كل طريق السماء، فقطعوا طريق رأسه . . حينها نزلت السماء لطريقه . .

. . . وصرخ الطريق على الرمال، تناديها النبوة . . إنه ابني .

مسافات الكحل..

(يالهذا اللعب القاسي..)

. . رابندا

1

أن تتوجع من قدرك، غيره أن تشتري قدرا لأوجاعك. . وقدر يناديك فيه نبي، غيره قدر تناديك فيه فتاة.

كَتَبْتْني هي قبل أنْ أكْتُبُها . ولّتْ هي بالكتاب وبقيتُ أنا بالقلم. . آه، يالهذا الكحل القاسي.

هذا ماكَتبه جيندار في وريقات اخيره من إنجيله عن الدمشقية.

سأله الحافي عنها قديما حين عرف بعض سرّها؛ لِمَا فراقكم؟. . أجابه مكتفيا؛

كثير من الاقدام تتركك لانك دون رمال، وكثير من الاقدار تتركك لانك دون مال! . . آه، دعنا من الحب يا صديقي فلقد كذبنا كثيرا.

وقف بخياله على مشارف مدينتها .

البُنَيّة كانت يوما ما مدينته النظيفة، فتركته شوارعُها . شوراعٌ كان يهرولُ بها القمرُ ايام كان العشق عشقا، أيام كان القمر قمرا .

لقد تَعِبَتْ مسافات جيندار، تعبت صلاته، تَعِبَ ايمانه، تعب كفره. . أتى لمسافاته

القديمة، فمرّ على مسافة دمشق، لقد نشأ فيها قلبه ألاول، لقد نزل فيها مطره الاول. . سأل عنها، فقالوا له؛

تأخرتْ على البحر، فمشى بها كثيرا. . حَمَلَتْ بطنُها بلا قمر فجعلها تحمل عيون طفلتها. تعود في كل عام بعض عام، تَزُورُ الطريق والحريق.

بقي يلامس في الطريق مسار أقدام قديمة سَكرَ بترابها العشق كثيرا. الطريق احيانا يفوق النبيذا سكرا، شرط أنْ يمشيه كأسك.

كان يحب انِ يسميها البُنيّة، لان جاره العجوز كان يناديها بهذا الاسم، قبل ان تسميها المدينة بأسماء أُخرى.

لم يكن يقبل لها ان تكبر. كان يكره الزمن لانه يغير الوجوه، لانه يغير الدروب، لأنه يغيّر الموسيقى، يُغير الازياء. . كان يريد للناي انْ يبقى قريبا من قصب الغابة، يكره نايات المدن.

كان يقول للحافي وقتها؛

كيف يموت العشق، وهو المنقذ الوحيد من الموت؟ ! . . كيف ينتصر العشق وهو الهزيمة الوحيدة للوجود؟ ! .

العشق كمعارك الانبياء، صدقُها في هزائمها. . العشق صِحّته هو ان يكون مهزوما، واليوم يريد العشّاق ان ينتصروا ! .

لا نصر مع العشق، لانه لا يحب النصر أصلا. . إنه رحيل وحسب.

العاشق قديما يعرف المطر والعاشق اليوم يعرف البَطر. . العاشق القديم كان يعرف سريرة الوجود والعاشق اليوم يعرف وجود السرير.

يا صاح، رغم أنّ العشق هو أكثر من يسخر من العقل، ولكن العشق لا يركبه الا الاغبياء. . لا تثق بعشق، كما لاتثق بقدر.

لقد فهم الحافي حينها لما جعل رامة كحلًا وربوةَ فحسب، لما جعل لياليها سبع فحسب.

كانت تقول الدمشقية لجيندار ايام قاسيون؛ يوما ما سيكتبني قلمك. . فيقول لها؛ ويوما ما سيجعلني قدرك كاتبا.

(الجبال تُخبرني حين تمرين). هكذا يقول العشاق الهنود، وهو يُصدقهم. أنها ميتافيزيا

العشق، إنْ شعرت بها فانت في قلبها الان لا هي في قلبك. إنها وحدة وجود أخرى تعبر ابن عربي وقلبه.

كان قبل عشقها، ينتقل بأسرار الوجود من كلمة المعلم بوذا " أذا جهز التلميذ حضر المعلم" الى كلمة كتبها هو ذات مرة؛ اذا جهزَ القلبُ حضرَ العشق.

ففرح كثيرا بهذي الكلمة، لانها تَعْبُرُ الصين، بينما كلمة بوذا تمشي في الهند فحسب.

مرّ كثيرا بمدن زرادشت، ولكنه عبر قليلا من اسم النار. مر كثيرا بمدن العيون، ولكنه عبر قليلا من وجع الكحل.

مر كثيرا بمدن المتصوفة، ولكنه عبر قليلا من صفاء القلب. مر كثيرا بمدن الفلاسفة ولكنه عبر قليلا من أضلع الحكمة.

.. مر كثيرا بمدن الكهنة، ولكنه لم يعبر صلاة واحدة.

لم يكن يريد ان ينجب الوجود، كان يريد من الوجود أن ينجبه.. كان يشعر أنه لم يولد بعد.

كان محتاجا لمعلّم كما لحبيبة. ولكن العشق لم يحضر كما المعلم، فكذّب بوذا والعشق.

عاد ليُكذّب نفسه، إذ لا يمكن أن تُكذّب الحب، لانك إن شككت به شككت بالقلب، ولا شك مع القلب. دع ديكارت يشك بعقله، وماذا بعد؟. فالبديهيات للقلب لا للعقل.

عاد ليُكذّب نفسه، حتى جائه المعلمُ الاشقر على حين وَطر، وجائت هي السمراء على حين مَطر.. فصدّق بوذا والوجود.

2

كتب في إنجيله عن بوذيّةِ المعلم والتلميذ يُخاطب تلميذه الحافي؛

العشق كالنبوة تأتي الانبياءَ متى ماكانوا أهلها. جبريل لا يُنْزِلُ نبوةً، بل النبوة من تُنزِلَ جبريلا.. النبي يُنزِلُ جبريلًا رغما عن جناحه، والعشق يُنزلُ قلباً رغما عن جراحه.

الاشياء العظيمة تجدك لا تجدها، تبحث عنك لا تبحث عنها. فيما يُسميه الناس صدفة، ولكنها كصدفة النبوة، جبريلُها دائما على حين غرة.. لقد(ذهب موسى ليجلب جذوة من النار فعاد بالنبوة) .هكذا قال عليٌّ جذوةً من أسرار الوجود.

هنالك طريق يتعلق بأقدامك، مهما أردت ان تنعطف عنه انعطف معك. تعي بعد حين ان ترابه يريدك، لا اقدامك من تريده.

لطالما نُتعب الاقلام كي نكون كُتّابا، ونتعب المحاريب كي نكون قديسين، فلا صلاة ولا كلمات. لا المعبد يصنع قديسا، ولا الكُتُبُ تصنع كاتبا.. ثم تستيقظ دونهما على قدرٍ تُتعِبُك اَقلامه ومحاريبه تُريدك قديسها وكاتبها.

هكذا كان الكحّال وطريق الكحل. وصف الكحّال عيونَ جلنار في مصحف الكحل حينما جاءته للسجن بأكثر من الكحل؛

كحل من فوقه كحل في عشق لجيٍّ، إن فتحت رموشها لن ترى عينك.. ووصف كتّابه مصحف الكحل؛ كلمات من فوقها كلمات في حبر سريّ، إن فتحت سطورها لن ترى جبريل.

بهذا المدى القرآني وصف الكحّال كتابه رسالة الكحل لانها كُتِبَتْ بين سطور المصحف فلم يبق فيه بياضا.

ووصف جيندار عشقه الدمشقي؛ مطر من فوقه مطر في نهر وحشيّ، إن فتحت السد لم يجري شيئا.

ولكن هذي الدمشقية كانت لا تعرف أن تضع الكحل ولا يعرف الكحل كيف وضعه معها.

كان كحلُها عبثيٌّ في الشتاء، عقلانيٌّ في الصيف. أندلسيٌّ في الربيع، مكيٌّ في الخريف.

سنيٌّ في الصلاة شيعيٌّ في الصيام. قرمطي في الحلال، أشعريٌّ في الحرام.

ثلجيٌّ في كره التراب، زنجي في حب الغراب. شرقيٌّ في البكاء، غربيٌّ في العتاب.

عراقيٌّ في الخمر فارسي في الجمر.. كل زرادشت فيه وكل عشتار فوقه.

وصف صمتها الأول فقال؛.. وحده هديلُها بقي من حمامات سليمان.

شعر ان كحلها يريد ان يهدل له حبره. ردّد يخاطب روحه؛ امشِ على كحلها خذ منه حبرا، ولترقد اقلامك في آخر رموشها.

لم يعد يريد قلبها، كان يريد أن يُودِع عندها قلبه فحسب، لانها من أعطته هذا القلب.. كثيرون هم من اودعوا قلوبهم في الاوراق.

عرف أنه سيكتب، ولكن ليس لها ولا للناس فلم يعد يؤمن قلبه بعشقها، ولم يعد يؤمن قلمه بالناس. . قلمه اليوم يؤمن برقدة الكحل فحسب.

كان قديما يجمع الكلمات كي يجمع جروحه، امّا اليوم فهو يريد ان يجمع الكحل كي يجمع الكلمات!.

. . قد يمنح الجرح تهويدة في ذلك، وليبقى الجرح مفتوحا.

كان يقول للحافي؛ جميل ان نشتري لانفسنا احزانا. فأن ترى الحياة الماً ضدنا، غيره ان ترى الالم حياةً لنا.

لا تخطأ. . بعضٌ من الشراع لا يكفي الريح، وليس بعضٌ من الريح لا يكفي الشراع. . اعذر الشراع والريح فكلاهما دون بحر.

بعضٌ من البطولة لا يكفي التاريخ، وليس بعضُ من التاريخ لا تكفي البطولة. . اعذر التاريخ والبطل فكلاهما بلا خيل.

لا تخطأ. . لا يكفي قلمي بعضَ الفتاة، يكفي الفتاةَ بعضُ قلمي.

يا صاح، سجّل صاحب زارا؛ "لا يمكن أنْ تكون شاعرا الا ضمن محيط من الشعرا". فسجّل وانت صاحبي؛ لا يمكن ان تكون شاعرا الا ضمن محيط من القلب.

الشفاه لا تنطق لنا الحق الا بقلب احمر، والاقلام لا تكتب العشق الا بكحل اسمر.

3

إتّكأَ جيندار على شجرة يُصدّق إلهها الروس، وهو يُصدّقهم. . اخرج اوراقا صفراء، لا يحب البيضاء، لانها تذكره بكذبهم. . . كتب لها؛

أيتها البنية، لا استطيع ان أُلقي الاشياء وراء ظهري لاني بلا ظهر. . قلبي في كل الجهات.

رغم أنّكِ خلّفتي كل الطرقات ورائي، ولكني ما زلت خلفك. . بكل الاحوال ليس لي القدرة ان اكون إماما دون موسيقى، دون حب. ولا موسيقى مع الكاهن.

لا أحتاج للفقه في إمامتي. . لا يكتب الفقه عشقا، ولا يعصر النبيذ حلالا.

أيتها البنية. . الإمام هو من يُجعلكِ تقين بوعودك، لا من يُجعلكِ تُغطين خدودك.

أيتها البنية. . الإمام هو من يجعلك تنامين بقلبك لا من يجعلك تُصلّين بسِربك.

أنفقي عليّ بعض عيونك، وسأُنفقُ عليكِ بعض كلماتي. . دعي أئمة الفلسفة، أئمة الفقه. فالعاشق لا يحتاج إماما، حُبُّهُ إمامُهُ.

آه، أيتها البنية. . العشقُ إمامة.

أيتها البنية، لا إمامة في الفقه، ولا في الفلسفة. . الإمامة في الطريق وفي العشق.

أيتها البنية، لم المس الحياة الا مرة، حينما مشيت حافيا بالعشق، حافيا بالسماء. وقتها شعرتُ ان التراب صلّى خلف أقدامي، فعرفتُ اني اصبحت إماما.

أيتها البنية، اتحاد الحبيب والمحبوب لدى المتصوفة غير اتحاد العاقل والمعقول لدى الفلاسفة، فالاتحاد مع القلب يصنع ملاكا، والاتحاد مع الجُبّة يصنع كاهنا. . أيتها البنية، لا جندي مجهول في الفلسفة الا القلب.

أيتها البنية. . الفلسفة التي لا تغتسل بالشِعر فيلسوفها اجرب.

لا يُوثَقُ بالشعراء حتى يكونوا فلاسفة، ولا بالفلاسفة حتى يكونوا شعراء. بينهما نسب صحراء لا نسب دماء.

تأنسن انكيدو بالمرأة، تأله القلب بالعشق. . أيتها البنية، حينما يعشقُ الإنسانُ يجد اسما آخر لله.

شعور النبوة يصنع تاريخا من السماء، ولكن شعور الحب يُهيئ نبيا من الارض.

احببت فأصبحت نبيا. يُغيّرك العشق كثيرا، العشق اقوى من جبريل امام الله.

أيتها البنية، غنوة الحب ترتعش في العاشق اكثر مما يرتعش الصوفي بجبريل. . يابنية، القلبُ الحزينُ نبيٌّ.

يفعل العشق ما لا يفعله الدعاة، فالعشق وحده يجعلك مسيحياً ويهودياً ومسلماً وبوذياً في حضن الله. يسخر من كل الاسماء بحضنك.

المعابد ليس لها احضان، المعابد لها كهنة فحسب. لذا التعدي على العشق كفرٌ في ليل الله.

الحب والدين لا يكفران، لكنهما أيضاً لا يقبلان معبدا بناقوس أو ماذنة، ولا يقبلان زواجا بشيخ ودفّ. . انهما بين الله والقلب طولا.

فلا خير يفوق وضوء العشق، لأنه وضوء الله. أمة العشق خير إمة أخرجت للناس.

أيتها البنية. . ان كنتِ تؤمنين بإلهك، فهو يؤمن بالحب. قَبِلَ إلهك، فإقبلي حبه.

. . الذين احبوا فقط هم من جعلهم الحب يسخرون من عقيدة الكهنة.

أيتها البنية. . قلبٌ العاشق قلبٌ صوفي. صلى ام لم يُصلّ.

أيتها البنية، صلاة العشق تصحُّ كيفما كانت، لانها بلا معبد، قلب وحسب. ولكن ارفعي قلبك كما ترفعين يدك، لا تخدعي روحك. . كيف ترفعين شفتيكِ دون عينيكِ!، لا تخدعي جسدك.

ايتها البنية. . الكل نسي طرسه الا قلبي مازال على جلده. الكل اخذ وقته الا انا بلا زمن، لا تنفعني لياليهم. . . آه، لم تعد تنفع الامير جواريه، ولم تعد تنفع البحر صواريه.

يا بنية. . انني في قلب قلّ فيه المعترفون بشغافه.

العاشق لا يضحك، سَلِ قيسا. . الغريب لا ينام، سَلِ التراب.

ايتها البنية. . لا تخفي جسدك خلف ثوبك، فما عاد الخفاء ثوبا.

لاعفة الثوب تخفي عيونك، ولا عيونك تخفي حقيقة الثوب.

الخصر تصدّر الوجود، والوجود هدرُ الصدرِ له.

ايتها البُنيّة. . نجومنا تتوحد حينما تغرق في ليلها، وعيوننا تتيه حين تنعس في كلماتها.

ماذا تسمين الاشياء انْ كانت وفاءا؟. . لكِ اسمك وليَ اسمي، لك عيونك ولي عيوني.

دعيني أُشركِكِ في كلماتي من جديد. . صحّحي كلماتي، لا بأس، ولكن دعيني قبلها أُصحّحُ عيونك.

دعيني أُصحّح عيونك. . هاكِ بعض كحلي، عفوا، هاكِ بعض حزني، واعطيني بعض كحلك، فالحزن كحل القلوب.

. . إتركي عينيك، واقرأيني بحزني.

دعيني اشركك مع كلماتي من جديد، ولكن لا تكبري، كلنا صغار.
لا تكبري، فانا اكتب بك، لا اكتب لك.. وهكذا سيقرأ الناس بائي قبل ان يقرأوا لامك.
لا تَمسّي حروفي، ما زلت منعزلا اكتب من بعيد، لا احب ان يلمسَني احد.
.. إتركي عينيك، واقرأيني بحزني..
.. لا تكبري، كلنا صغار.

4

أيتها البنية؛ العالم حزين..
العالم لن يتغير، لا تتأملي ذلك، احلمي، لم يعد لنا الا الاحلام فيه.
ايتها البنية، أتعلمين لما الانبياء لا يأتون؟، لاننا في ضجيج.
.. الانبياء لا يظهرون، لانه زمن لا يليق بالنبوة. انه زمن يليق بالسفلاء فحسب.
أيتها البنية هل تعرفين لماذا جدتك ما زالت تنهض بين الحشيش والطين. إنه سر الجاموس فحسب.

أحبّت بالزوّاج ولم تتزوّج بالحب. ليلة واحدة مع جدك جعلتها راهبة على قبره عشرين عاما، وانتِ الف ليلة معي ونسيتي قمري وشاطئي بليلة واحدة. آه، لم تتركي الالف والليلة يكتملان.. هذا سر الجاموس يابنية، إنه سر الطين.
أيتها البنية، لا تخدعك الأسماء، المراة احيانا تشبع بثدييها وإن لم تأكل بهما.. صحّحي معجم ابائك.

ليست العذراء من تحفظ بكارتها، العذراء من تحفظ برائتها.. صحّحي معجم آبائك.
أيتها البنية لم تعرفي الكحال ولا دفاتر الكحل.. أيتها البنية، كان الكحّال يرى كحل السومرية في الجنوب التي كان يقايض كحله بكحل عيونها غير كحل الكرخية التي قايضت مرة كحلها بسر كيميائه.
أيتها البنية، لكل شيء كحله.. ولكن انتبهي؛ كحل العيون عشقها لا رموشها، كحل النبوة بلالُها لا جبريلها.. صحّحي معجم آبائك.

. . تكحّلي بحزني، كما تكحلتُ بليلك.

أيتها البنية، لكل شيء كحله، ومعرفة الاشياء بكحلها. كحل لا يخطّه ميل كما تخطين، لقد خدعتني عيونك كثيرا.

أيتها البنية. .

كحل الإنسان قلبُه وكحل التائه دربُه. . كحل الليالي سُمّارُها وكحل الطرق اقدارُها.

كحل العشق جنونه، وكحل الثائر سجونه. . كحل الكاهن جَيبُه، وكحل القدّيس غَيبُه.

كحل الفيلسوف حيرته، وكحل البحّار اشرعته. . كحل الوصال شِفته، وكحل الموت وقته.

. . كحل المتمرد خروجه، كحل المتصوف عروجه.

. . كحل الموت صمته، كحل الشوق وقته.

أيتها البنية. . المكان الذي جمعنا ما زلت اتردد عليه لِأجمعَ منه عيوني. والكحل الذي فرّقنا ما زالت أُكتب به لاجمع منه عيونك.

. . لا تكبري، كلنا صغار.

أيتها البنية، المسافات للكحل ام للعيون؟. العيون تختفي في الكحل ام الكحل يختفي في العيون؟.

أيتها البنية، أين تختفي المسافات؟.

كحل الثورة شهيدها، كحل الآلام نشيدها.

كحل التاريخ أبطاله. كحل الصليب أحماله.

أيتها البنية، العيون تتناسخ بوذيا بين الازمان، الكلمات تتناسخ، القلوب تتناسخ. ليس فقط الروح، هذا ما تجهله البوذية. . لطالما يعود قلب دُفِنَ صاحبه منذ جيل وجيل، ولطالما تعود كلمات وعيون، لطالما يعود سيف وقلم. لقد عادت عيون جلنار كثيرا في التاريخ مع الفتيات، لكن كحلها لم يعد.

هذا ما يليق بالعود الابدي. الوجود يشتاق لنفسه، لا بأس، الوجود يلعب دائما بما أبدَع به سابقا. الوجود لا يعود وإنما تعود الاشياء فيه.

أيتها البنية صدح عاشق هندي؛ سأولد الف مرة كي أكتب حبك. وصدحتُ لك قافيتي؛ سأموت الف مرة كي تولد قصيدتي.. فسمعت الغيب يقول؛ إذن ساخلق الف قصيدة والف حب.

ايتها البنية، صدّقي أسرار الوجود، فشأن النفس في شغافها يتجاوز اللحم.. الا ترين حلمك على ثوانيه يطوي الزمان بكل تاريخه، وعيونك اللاعربية على صغرها تحمل العالم بكل نجومه.

أيتها البنية غريب كل مافيك؛
وثنيةٌ انت تُصلّين لقبلتي!.
سومريةٌ انت لا تعرف كلكامش!.
عربيةٌ انت وارضك في العجم!.
مُحجّبةٌ انت وشفاهك في الخمر.
عاشقةٌ انت وقلبك بلا شغاف!.
عذراءُ انت وكدتِ تحملين!.
... لاتكبري، كلنا صغار.

5

قال بعض اخوان الصفا المتأخرين بعد مقتل المتنبي؛.. لقد طارد العرب من المتنبي كلماته لا فرسه، ولولا فرسه لما كانت كلماته.. ألم يمت بها؟.

ألم يتنبه العرب انهم قتلوا شاعرهم على الحدود العربية.. لقد كان سالما بين العجم!.

وقال الحافي عن جيندار بعد فراقه؛ لقد طارد القلم من جيندار قلبه ولولا قلبه لما كان قلمه.

كان يقول له جيندار في أيامهما الاربعين؛

لا إمام مع الكاتب ولا أمام. دائما هو خلف المدن، خلف التاريخ، خلف المعابد، خلف الاقلام، خلف الروح، خلف الليل، خلف القبور.

دائما هو يكتب الاشياء بخلفها، ظهرُها ابدى له من ظاهرها. السطح يكذب دائما، هو مع الاعماق وان خنقته.. نشوته أن يغوص.

بعيدا عن الارض، خارج السرب، دون موانئ، وراء البشرية.. لا يمدُّ يده الى سلالها، ولا يحني ظهره لعقولها، ولكنه يشرب ثمالة آلامها، ويعانق نحورها المدماة.

الكاتب شرفه انه يخون عقل اجداده، ويشرب بقلبه ما قلبته كووسهم.

فقط خروجك على معلمك يُعلّمك.

مع الحقيقة، شرف التلميذ ان يخون استاذه. ولكن أن يخون فمه لا ان يخون دمه.

كان المتصوفة خوارج لغة وليس خوارج فقه.

مهمة الكاتب مع الكلمات هو أن يحررها من الاجداد، من ظهرهم وصُلبِهم، فابن العبد عبد بأبيه سيما في عبودية الحرف.

ولكن ياللحسرة، الكلمات تخونُ كاتبها كثيرا.. ليس المشكلة انك تكتب في زمن يقتلك، المشكلة انك تكتب في زمن يسخر منك.

ماعاد يجدي شيئا.. ليس المصيبة ان يُزوّروا كلماتك، المصيبة ان كلماتك من تُزوّرك. حتى كلماتنا تُزوّرنا.

كلمات الكاتب تُزوّر حياته، حينما يجعل في جيبه الايمن قلمه ويترك للايسر ماله.. مسكينٌ، نسي أن ليس للايسر الا قلبه.

يد تحمل القلم في يمينها عليها ان تحمل الصليب في يسارها. القلم وُلِد صليبا، تكتب به اول الطريق وتموت عليه آخره. أليس الاغصان التي تُصنَع في اوّلها اقلاما، تُنشَر حين تكبر صليبا.

الكلمات العظيمة كما تعظمنا كذلك تصلبنا.. إنها لا تنصب لنا نصبا في المدينة، حتى تصلبنا قبلها في ساحاتها.. آه كلماتنا من تصلبنا!.

كان الحافي يقول متذكرا ذلك؛ لا تشعر الاقدام بوجودها الا في التراب، ولم أشعر بالطريق الا في جيندار.

ولكن عيون جيندار اختفت منه سبع سنوات، دون أن يقول الليل عنها للحافي بعضا من نجومها . . هذا الليل الذي اضاعه منه لدى ضريح صاحب الزنج . .

لم تهدأ للحافي مدينة بعد اختفاء جيندار عنه . . سأل كثيرا من المدن عنه ولكن لا مدينة لعيونه. فذهب لطريق اقدامه الاولى، فالاوّل دائما ينادي الاخير.

شاهدها الحافي تشرب عيونها . . إنها الدمشقية التي بدأت به حزنه الاول، انها الكرخية التي ضاعت شامها هنا، إنها الهندية التي ضاعت حجازها هناك.

حينما رأى عيونها عرف عيون جيندار. حينما رأى سَمَارَها عرف حب جيندار لصاحب الزنج . . حينما رأى ثوبها عرف لما بوذا بلا نار.

سألها؛ هل تعرفين اين أقدام نهره . . أجابته؛ اعرف فقط أين تراب قبره.

جلس الى آخر اقدامه، شعر انه يُريد ان يلمس التراب . . فوضعت إنجيل جيندار في يده وقالت له؛ خذه لقد سجّل عليه اسمك.

أجابها . . لم يكن لي اسم.

سألته بعد قيثارة وجع؛ كم كان حزينا . . قال لها؛ لم يعرف القمر الا وجهه، والقمر لا يمشي الا بالحزانى.

قالت له أجل هكذا، عرفت من رسالته ومن عبائتي . .

كان قد كتب لها في رسالته قرب الشجرة التي يُصدّق إلهها الروس؛

لقد نسيت بغداد عطر الحلاج!، لانها لاتشمُّ غير طغاتها.

أيتها البنية، بغداد مدينة خائنة، تهوى هارون العباسي فحسب. يقولون هو من بناها. ولكن مالي لا أرى بناءا منه!؟. حدّثِيهم رعى الله عيونك، ورعى الله حلمي.

الكاتب دائما يخفر قلب المأساة.

حين تجرف الكاتب المأساة لا يميز حينها بين قلبه وكلماته. يرى قلبه في سطوره ويشعر بكلماته في دمه . . لذا لا اكتب دون حريق.

ايتها البنية؛ المأساة عطر العشاق. انه مذهب صوفي يردّدون فيه؛ "إنْ شكوتَ الهوى فلستَ منا".

.. في الكتابة، لا اعرف بعدُ، كيف نفرح بصليبنا ؟!!!.

أيتها البنية، كان سقراط من أئمة الطريق، لانه لم يقده احد، قاد حتى الموت بيديه.

كان سقراط يحترم الموت، لم يهنه، فاستقبله الموت باحترام... والموت الذي يحترمك يجعلك حياة.

لقد كان الموت في كأسه، فرفع الموت بيديه.. الشرفاء يخشون على شرفهم في الموت اكثر من شرفهم في الحياة.

آه، ردد النبي الجميل؛ "يُبعث المرء على ما مات عليه". هذي أجمل فلسفة عرفتها من الانبياء.

اذكر عباءتك التي تكرهينها، مرة واحدة ارتديتيها قرب دمشق فبقيتُ في بغداد كل المرات.

عباءتك، عباءتك.. مطر، مطر.

لتكن عباءتك كفني.

اتركيها سوداء.. فحزني لا يقبل أبيضا.

6

ايتها البنية، كيف يمكن العبور بالكلمات الى الجرح. لا اعلم هل الجرح طويل ام الكلمات ثقيلة؟.

أيتها البنية، الله والضمير والوجود ثلاثة لا يمكننا الخروج منهم كاذبين، ورابعهم الكتابة.

أيتها البنية، الكاتب الحقيقي تفضحه كلماته، متى ما أُجبرها لعنته. لذا يتركها لقلمه دون يده.

انا والقلم لا اثق به ولا يثق بي، لا نعرف متى يقفز احدنا على الاخر!.. انا والكحل لا اثق به ولا يثق بي، متى يعشق احدنا الاخر.

لطالما اخشى ان يفاجئني قلمي.. مشكلتي اني لا امسح مايخطه هذا القلم، وهذا عهد له ولد معي مذ ان ولدت معه، يوم توحّم به العشق في ليالي الله، وأنا آكلُ خبزة القمر.

ففي عقيدتي ان ما يكتبه هو مايذبحه في هيكل الروح، ولا يعاد القربان كما نعرف، سيما مع الآلهه.. آه سيما مع العشق، سيما مع الثورة، سيما مع ليلى، سيما مع غاندي.

مرة انت تقول كلمتك ومرة هي تقولك، مرة انت تجر قلمك ومرة هو يجرك.. هذا ما يجب ان تكون عليه مقولة النفري: "و جائك القلم". كأنه يقول لي:.. وجائتك ليلى.

أيتها البنية، تتمرد الكلمات على الاقلام وهي تكتبها. هنا كل كلمة الله: "و ما رميتَ اذ رميت".. وما كتبتَ إذ كتبت، ولكن القلم كتب.

الكلمات الحقيقية لا نكتبها، هي من تكتب نفسها.. كل له غيب في هذا الوجود.

.. ولكن أيتها البنية، ليست المسألة ان الكلمات تكتب نفسها، المسألة أنها تكتبنا نحن!.. الكلمات تكتبنا يابنية!.

الكلمات لا يكتبها العقل، الكلمات يشتهيها الوجود. النص توسل القلب لا القاموس.. تنتهي حدود الكلمات، تقفل الصفحة اطرافها خوفا من حروف اخرى.

شعر إنه يريد أن يكتب بعض إنجيلياته التي كان يحبها:.. أيتها البنية

- عشقٌ عربي خير من دين عربي.
- الحقيقة تخشى الحب.
- العشق جناح لا تتركه الريح.
- الله والقلب يتحدان في قِبلة الانبياء، وفي قُبلة العشاق.
- للكاهن عمامة وللحب اجنحة.
- من لم يُجرّب قلبه، لم يُجرّب إلهه.
- العشق في أُمة الكحل نبوة.

أيتها البنية.. الكلمات كما الحب كما الموت، لا حرية فيها. بهذي الثلاث تتيه المسافات.

صحيح ان كحل الكاتب كلماته، ولكن رغم أنها الأكثر سوادا من كل كحل، ولكنه لا يرى من عيونه الا القليل.

أيتها البنية، العيون من تتكحل، ولكن كحل اقداري عيونك.

.. لا تكبري، كلنا صغار.

7

سمع صوت مؤذّن من بعيد، يعلن آذان العشاء.. توسل للمؤذن في داخله؛ أن العشق من آذان الله.

تذكّر دفاتر الكحل التي بقيت هي كحل صوفيته ووجوديته.. لقد قالت السومرية للكحّال مرّة، حين عرفته حكيما؛ عرّف لي العشق؟. أجابها؛ وهل عرّفته الالهة.. اعبري الهند والصين، اعبري النار والطين، اعبري النون والسين، اعبري الكاهن والدين، ولن تعبريه.

حينما تكفر كل الاشياء يبقى العشقُ وحده إيمانا.

ردّد جيندار حينها، وفي قلبه ذكرى هجرها؛.. حبيبك تجده في الحب وإنْ رحل، ولكن حبك قد لا تجده في الحبيب وإنْ بقي.

عاد لإنجيله والبُنيّة..

العشق لديهم زنا، ما اكثر ما يزنون بالكلمات!.

أيتها البنية.. هذه آية الايمان؛ أفلا ينظرون الى القلوب كيف عشقت.

الانسان ليس بحيوان ناطق، الإنسان حيوان عاشق. ما أغبى المناطقة، فعشقه أهم ما يميز فصله.

الانسان ليس بحيوان صلاة، الإنسان حيوان قيم.. ما أغبى الكهنة، فقِيمه أهم ما يميز دينه.

أيتها البنيّة.. أروع ما قالته الصوفية هو ان مجنون ليلى كبير مشايخهم.

.. ما لاتقوله القصيدة يفهمه الانبياء والعشاق.

أيتها البنية، لقد قلت للحافي؛..

الصمت يعبر الكلام بجسر الروح، لذا، العشق الذي لا يبدأ صمتا مُتّهم.

أيتها البنية، السفينةُ تريد إلهاما.. الشراع من يُلهمُ الدفّة ام الدفّة من تُلهمُ الشراع؟. أم الريح من تُلهِمُهما؟!.. أبدا، فالشاطئ من يلهم الجميع.

مَنْ يعرف طريق الامواج، على أيّ صخرة يتحطّم؟. ومن يعرف طريق الرمال، إلى أيّ جهة يتقدم ؟. لا احد.

حين يهدأ الموج وتنبسط الرمال، يمكنك كتابة اسمك. ولكن لن تكتب اسم العشق، بل العشق سيكتب اسمك.. حينها يهدأ القلب وتنبسط الشفاه.

.. لاتنسي، عباءتك كفني.

اتركيها سوداء، فحزني لا يقبل ابيضا.

عبد الرزاق الجبران

الكتابة الثانية في جيندار شارحة السر الاحمر

بيروت في 2016/9/17

الفهرس

المسافات	الصفحة